

أفضل رواية جريمة في القائمة القصيرة لجائزة بيتر روبنسون بكندا 2024

SHARI LAPENA

شاري لابينا



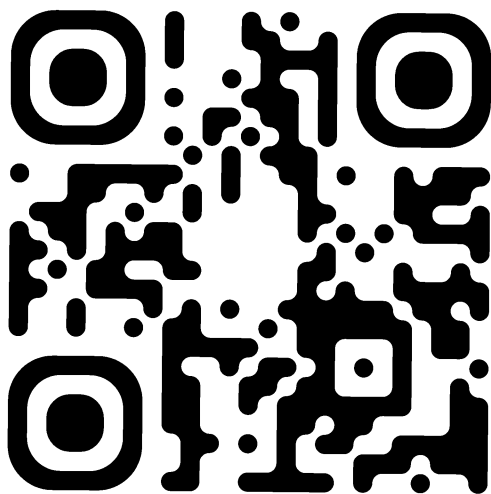
الكل هنا يكذب

EVERYONE HERE IS LYING



مكتبة

رواية | ترجمة: أميرة شريف



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الكل هنا
يكذب





للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي:

Everyone Here Is Lying

● العنوان العربي: الكل هنا يكذب

● حقوق النشر:

Copyright © 2023 by 1742145 Ontario Limited

● الطبعة الأولى: يناير / 2025م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● تأليف: شاري لابينا

● ترجمة: أميرة شريف

● تحرير: محمد المقيم

● تدقيق لغوي: سلمى أشرف

● تنسيق داخلي: معتن حسنين علي

● رقم الإيداع: 2024/23611م

● الترخيم الدولي: 978-977-992-423-6

مكتبة

t.me/soramnqraa

أفضل رواية جريمة في القائمة القصيرة لجائزة بيتر روبنسون بكندا 2024

SHARI LAPENA

شاري لابينا

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكل هنا يكذب

EVERYONE HERE IS LYING

ة | ترجمة: أميرة شريف



إلى جوليا

مكتبة

الفصل الأول

t.me/soramnqraa

لا يتحدثان إذ يصحبها «ويليام» إلى موقف سيارتها خلف النزل، لا يتركان سيارتيهما بالجهة الأمامية أبداً وإلا اكتُشِفَ أمرهما. لن يعلم أحدُ أنهما جاءا إلى هنا. هذا ما يقنعان به نفسيهما على أي حالٍ، وأقنعا به نفسيهما في كل مرةٍ تقابلا فيها على مدار الشهور القليلة الفائتة، تأججت خلالها علاقتهما السرية وتوهجت نارها. لكن تلك النار أُخِمِدَت دون مقدماتٍ، بيدها، وهو ما لم يتوقعه.

تقابلا في نُزُلهما المعتاد في ضواحي المدينة، حيث لا يعرفهما أحدٌ، والذي يقع على الطريق الرئيسي السريع. لزم عليهما الاحتراز، لا يسعهما اللقاء في منزل أحدهما لأن كليهما متزوجٌ، ويظهر أنهما تفضّلُ لقاءهما على ذلك المنوال. قبل نصف ساعةٍ مضتُ، لم يضع في حسبانها ما قد يحدث قط. كما لو سُحِبَ بساطٌ من تحت قدميه، ولم يزل عاجزاً عن استعادة توازنه.

يتوقفان عند سيارتها، ينحني ليقبلها، فتشيع بوجهها عنه. يتملّكه اليأس ومرارة الخيبة مدرّكاً أنهما تتعمد صده. يستدير من فوره مبتعداً، يتركها واقفةً وسلسلة المفاتيح بيدها. ما إن يصل إلى سيارته، ينظر نحوها فيجدها أدارت المحرك منطلقةً بسيارتها بسرعةٍ هائلةٍ، مما يؤكد موقفها.

يقف مكانه، كالمحروم، يراقبها راحلةً. بدت على غير طبيعتها نهار اليوم. يصل النزل قبلها على الدوام، يحجز غرفةً، يدفع نقداً، يستلم المفتاح ثم

يبحث لها رقم الغرفة في رسالة نصية. عندما طرقت الباب هذه المرة وخطت للداخل، جذبته إليها وقبّلته بشوقٍ جارِفٍ فاق ما أَلِفَها منها. دون أن ينبس أحدهما كلمةً، انتزعا ثياب بعضهما ومارسا الحب كعادتهما. بعدئذٍ، غالبًا ما تستلقي بجانبه واضعةً رأسها على صدره، تستمع إلى دقات قلبه، على حد قولها. أما اليوم، فجلست متكئةً على السرير بظهرها، تحدّق إلى صورتها في مرآة منضدة الزينة. شدّت الملاة البيضاء وغطت صدرها. تصرف آخر لا يشبهها.

لم تعد تستمع إلى دقات قلبه.

قالت: «ينبغي لنا التوقف عما نفعله».

ينظر إليها مذهولاً، وقد اعتدل بجوارها.

- ماذا؟! ماذا تقولين؟

تفرّس في ملامح المرأة الجميلة الجالسة جواره: عظام وجهها، شعرها الأشقر الحريري، فتنتها الطبيعية الأخاذة لنجمة سنيمايية من الزمن الماضي. أحسّ بنذيرٍ يبحث على الشؤم.

أدارت رأسها في الحين، ناظرةً إليه.

- لن أستطيع الاستمرار في هذه العلاقة، يا ويليام. لديّ أسرة، وأبناءٌ يجب عليّ الاعتناء بهم.

- وأنا لديّ أبناءٌ مثلك.

- لكنني أهم، وحالنا ليس سيّان.

بيّن لها: «لم تمنعك أمومتك عن علاقتنا قبلاً، ولم تمنعك اليوم أيضاً».

بدا الغضب عليها، ردّت: «لم يجدر بك قذف الحقيقة في وجهي بتلك الطريقة».

لانت حدّته واقترب منها، فصدّته.

أضاف: «تعرفين أنني أحبك، يا «نورا»، مثلما أعرف أنك تحبينني».

بانّت الدموع في عينيها الزرقاوين الرقيقتين.

- لا يهم.

بدأ يضطرب.

- بل يهم بكل تأكيد! إنه كل ما يهم! سأطلق «إيرين». ويمكنك الانفصال عن «آل»، ونتزوج، سيتأقلم أبنائنا مع الوضع. سيتابعون حياتهم. يفعل الناس ذلك على الدوام.

حدقت إليه هُنيهةً، كأنَّها فوجئت بما اقترحه. لم يتحدثا عن مستقبلهما معًا، انغمسا في عيش اللحظة فحسب. انغمسا في لذتهما وفي السعادة التي شملتهما على حين غرة. في النهاية، هزَّت رأسها بالنفي ومسحت دموعها.

- لا، لن أقدر. لا يمكنني التصرف بأنانية. ما بيننا قد يحطَّم آل، لا يمكنني فعل ذلك بأبنائي، سيكرهونني. متأسفةٌ.

نهضت عن السرير وشرعت في ارتداء ملابسها على عجلٍ، وهو يرقبها في عدم تصديقٍ. أربكه كيف تبدَّلت الأحوال بسرعةٍ شديدةٍ، وعلى نحوٍ جذريٍّ، دون سابق إنذارٍ. اقتربت من الباب لتفتحه، فصاح مسرعًا في ارتداء ملابسها: «انتظري! سأوصلكِ حتى سيارتكِ».

وقضى الأمر.

يركب سيارته ليقودها عائداً عبر الطريق السريع إلى بلدة «ستانهوب». إنَّها الرابعة إلا الربع من بعد الظهر، وبألَّه شديد التشوش، لا يقوى على متابعة عمله في العيادات الطبية أو المستشفى. كما أنه ليست لديه مواعيد مع مرضى، فالיום هو الثلاثاء، دوماً ما يخصَّص فترة ما بعد الظهر من أجلها. في ظل توتر أعصابه، يستقر على تمضية بعض الوقت في المنزل عوضاً عن الذهاب إلى العمل. المنزل خالٍ في هذه الساعة، لدى «مايكل» تمرين كرة سلة و«آفيري» لديها تدريبٌ مع الكورال بعد الدوام المدرسي، وزوجته في عملها. بمفرده سيتصرف على راحته، يصبُّ ما يشاء من الشراب، ومن ثم يغادر ثانيةً قبل عودة أيٍّ منهم. يقع منزله في مطلع «كونوت»، شارعٌ سكنيٌّ أنيقٌ طويلٌ، لا مخرج في آخره. ما زال ذهنه سارحاً بشأنها، إذ يضغط الزر المثبت على حاجب الشمس لينفتح باب المرأب. يقود سيارته إلى الداخل ويضغط

زراً آخر لينغلق الباب وراءه. على الأغلب عادت إلى منزلها، في نهاية الشارع ذاته. ربما يخالجها الندم على قرارها، لكن لم يبدُ عليها أي احتمالٍ للتراجع. يُشَاغله فضولٌ للتو عما إذا انخرطت في علاقةٍ غراميةٍ مع غيره، لم يخطر له سؤالها قط، افترض أنه الوحيد. يفتن إلى قلة معرفته بها رغم ظنه أنه فهمها، رغم حبه لها. وها قد أخذ في غفلةٍ منه كلياً.

يضع المفتاح في قفل باب المرأب الجانبي المُفضي إلى المطبخ. يسكن مكانه عند سماع صوتٍ. بالمطبخ أحدٌ ما. يفتح الباب ليجد نفسه وجهاً لوجهٍ أمام ابنته آفيري، ذات الأعوام التسعة، يُفترض أنها في تدريب الكورال! تلتفت محدقةً إليه ويدها ممدودةٌ نحو البسكويت على المنضدة.

يا له من تَعِيسٍ، ألا يسعه الاختلاء بنفسه مطلقاً؟ لا يرغب في التعامل مع ابنته مضطربة السلوك الآن.

يسألها محاولاً إخفاء أي حنقٍ في صوته، رغم مشقة ذلك: «ماذا تفعلين هنا؟».

إنه يومٌ مشؤومٌ. خسر المرأة التي يعشقها، ويشعر من دونها بالضيق. تردُّ في تهكمٍ: «إنني أعيش هنا».

تلتفت عنه وتمد يدها نحو البسكويت، تفتح العبوة في خشخشةٍ مسموعةٍ وتُدسُّ يدها داخلها.

يسألها مذكراً نفسه بالهدوء حتى لا تنزعج: «أعني، ألا يُفترض أنك في تدريب الكورال؟».

يصبرُ نفسه، إذ لا تتعمد التصرف بفضاظةٍ، إنه أمرٌ خارجٌ عن إرادتها. هذه فحسب الطبيعة التي وُلدت عليها، لا يمكنها اكتساب الخصال مثل سائر الناس.

تقول: «أُرسلتُ إلى المنزل».

لا يُسمَح لها بالعودة إلى المنزل مشياً بمفردها، ينبغي أن يرافقها أخوها الأكبر؛ ينتهي تمرين كرة السلة وتدريب الكورال في موعدٍ واحدٍ، في الرابعة

والنصف. يرفع بصره نحو الساعة المعلقة فوق الموقد، إنها الرابعة وثمانية دقائق.

- لماذا لم تنتظري أخاك وتعودي معه؟

تحشر البسكويت في فمها.

- لم أُرِد الانتظار.

يعنفها حانقًا: «لا تجري الأمور حسب مشيئتك».

تُحْمَلُ إليه في حذرٍ، كما لو استشفَّت مزاجه العكر.

- كيف تمكنت من الدخول؟

- أعرف بشأن المفتاح المُخبأ تحت ممسحة الأقدام بالباب الأمامي.

تتفوه بها كأنه أحمق في عينيه. يحاول تمالك انفعاله الآخذ في التصاعد.

- لم أُرْسِلتِ إلى المنزل؟ هل ألغى تدريب الكورال؟

تهزُّ رأسها بالنفي.

- إذًا، ماذا حدث؟

يتمنى لو إيرين معه، لتمكَّنت من احتواء الموقف، تواجه تلك المسائل أفضل منه. يُدغدغه وخزُّ مألوفٍ متوغلًا بين عينيه، يقرص عظمة أنفه، ويتحرك بلا هوادهٍ في المطبخ، يعيد ترتيب أشياء ويزيح أخرى عن أماكنها. لا رغبة له في النظر إليها، فلاحترقار الذي يلقاه في تعبير وجهها يضيق عليه الخناق. يروح باله إلى أبيه، سأمحو تلك السخرية عن وجهك.

- هل أنا مُعاقبة؟

لا ليس اليوم، لا طاقة لي للتعامل مع أي سخافة.

يسأل ناظرًا إليها بعد هُنيهة: «على ماذا؟».

تحدِّقُ إليه وبشراهةٍ تَأْكُل. لم يُطَق صبرًا، انتابه الغضب المستعر المعتاد على ابنته. ترتكب الحماقات على الدوام، لقد ضاق ذرعًا. في صغره، لطالما صفعه أبوه على وجهه إذا أساء الأدب، مما نشأه نشأةً سليمةً، غير أن التربية تغيَّرت هذه الأيام. تساهل هو وأُمها في تربيتها، لأن المعالجين أوصوا

بحاجتها إلى طول البال والرعاية. يزعم أن ما فعله نَشَأها طفلة مدللة لا تستوعب الحدود.

تشوب صوته نبرة محدّرة، أمرة: «أخبريني بما حدث!». - كلاً.

أطلقتها وبتحدّ سافر النبرة، كأن أوراق اللعب بقبضتها كافة، ولا مكانة له ولا سُلطة عليها أبداً، مما أشعل غضبه. في ذروة هوجاء، يقطع المطبخ في ثلاث خطوات واسعة. لدغ شيء ما بداخله، وبسرعة فائقة، أسرع من فكرة خاطفة، يضربها على جانب وجهها بقوة تعدّت ما أراد. تسقط كالحجر والتعبير المتحدي على وجهها ينمحي، تحل محله صدمة ثم نظرة فارغة، ولجزء من الثانية غمره شعور بالتشفي.

بيد أنه شعور لم يدم. يقف عند رأسها، فزعاً مما اقتترفه لتوه، مصدوماً مما اندفع إليه. ينخر الألم يده. يحدث نفسه بأنه لم يقصد إلا لطمها، لطم أي موطن للإحساس بها. لم يعمد إلى ضربها قط. ينحني إلى ابنته الهاوية على الأرض، منكمشةً منه. يرفعها متعجلاً لكن برفق، لتجلس ورجلاها ممدودتان أمامها وظهرها مُسنّداً إلى خزانة المطبخ.

- إنني آسف، يا عزيزتي آفيري! لم أقصد! إنني في غاية الأسف.

تندفق الكلمات إلى فمه، ويمسك دموعه.

تبادلته النظر في تبلّد، خرس لسانها الآن. يتقزز من نفسه لما فعل. إنه رجل ذو خلق، طبيب محترم، وليس شخصاً مستبدّاً. لا يُشبه أباه؛ يحب ابنته، يحبها بصدق. كيف يسمح لأعصابه بالانفلات هكذا؟

- متأسف للغاية. سأكفر عما اقترفت، يا آفيري. أعدك. لم يجدر بي فعل ما فعلت. ما حدث أنني فقدت التحكم بأعصابي؛ مررت بيوم شديد السوء. أدرك أنه لا يكفي عذراً. لكنك تعرفين كم أحبك، يا صغيرتي. أنت أغلى ما لدي.

خلاف عينيها الحزینتین قليلاً، لا يبدو عليها شيء مقلق. تشيح عنه بوجهها، تتحاشى تلاقي عينيها بعينيها.

يُبغض ميلَ نبرته إلى الاستعطاف.

- يؤسفني ما فعلتُ. أتفهم أنه أمرٌ لا يُغتَفَر، لكنْ لنتفق ألا نخبر أمكِ.
يكفيها ما تحمله من أعباءٍ فوق عاتقها.

لا تستجيب ابنته لكلامه، لا تريد مخاطبته. يسكت للحظةٍ ثم يُردف: «كذا
لن نخبرها أنكِ عدتِ وحدكِ، لأنه سيثير استياءها، إذا عرفت قد تضطر إلى
معاقبكِ. يمكنكِ القول إنكِ تمشيّين برفقة أحد أصدقائكِ حتى المنزل».

تتجاهله بوجهٍ واجمٍ، شاردة العينين. يتراءى له أنها ستخبرها، وهو ما
يستحق، كما ستظهر كدمةً على وجهها. قد يُفْلِح في الإنكار؛ لا يمكنه التكهّن
أيهما ستصدق إيرين. ابنته لها باعٌ في قول الأكاذيب، وهو ليس بمنأى عن
الكذب، غير أن زوجته لا تعلم.

ينهض مُتراجِعاً عنها. ينبغي له الخروج من هنا، والبعد عن مكان الوقعة
التي تسبب فيها. يكتنفه اشمئزازٌ من ذاته. يستشعر تأنيب ابنته الصغيرة له،
ويخالها تتحسّب منه. بات لديها ما تستعين به ضده. مسمارٌ آخر يُدَق في
نعش هذه العلاقة الزوجية. يستدير عائداً من مخرج المرأب.

لكنْ ما إن يصل إلى السيارة ويمسك سلسلة مفاتيحه، يتردد.

الفصل الثاني

تصل نورا إلى منزلها نحو الخامسة إلا الربع. تجوّلت لشراء بعض الحاجيات بعدما تركت ويليام في المنزل، لتتخذها ذريعةً غيابها. «فايث» في تمرين كرة القدم وحان موعد عودتها، و«راين» خرج من دون شك؛ لا أثر لسيارته في ممر المرأب. سيعود زوجها آل في السادسة أو نحوها. لن يتسنّى لها وقتٌ كافٍ حتى تستحم، لتزيل عنها رائحة ويليام، رائحة ما وقع بينهما. كيف قد تبرر استحمامها في هذا التوقيت إذا عاد راين فجأة؟ استعاضت عنه بتنظيف جسدها بمنشفةٍ عند حوض الحمام.

تُطلق لدموعها العنان، ذلك ما وجب عليها فعله. تقنع نفسها أن لا أهمية لمشاعرها. عليها التأقلم مع الاختيارات التي اتخذتها، بعزيمةٍ قويةٍ حتى تنساه، على الرغم من صعوبة النسيان، لأنها تعشق ويليام. تفتن لتوها إلى الحبّ الذي لم تحمله لزوجها قط، ولا حتى في بداية علاقتهما. وقعتُ وآل في الحبّ مرةً فيما مضى، غير أنّه حبٌّ بلا غرامٍ حقيقيٍّ، ليس على غرار ما تبادلته مع ويليام، وانقضى.

بلغت الثانية والأربعين، وما زالت محتفظةً بقوامها وحُسنها. لم تفقد إلا القليل من فتنّتها التي تمتعت بها منذ عشرين عامًا مضت، فإذا دخلت أي مكانٍ تُلِفَتْ إليها الأنظار. لم يسعها ألا تقع في عشق ويليام، الطبيب الوسيم الجذاب، أو أن تكبح ميلها الأزلي أن يرغبها رجلٌ. لكنّ بإمكانها تهذيب تصرفاتها،

بإمكانها الامتناع عن مقابلته. العواقب غير مأمونة، كم كانت أنانيّة! سيتألم الكثيرون حولهما إن اكتُشفت علاقتهما: زوجها وأبناؤها، زوجته وأبناؤه. لا تتمنى التسبب في تحطيم كل هذه العلاقات. لذا ستتخلى عن عملها التطوعي في المشفى، لن تحتمل حتى رؤيته هناك، بعدما قررت تركه.

صدمها اقتراحه المندفع ليقطع كلُّ منهما ارتباطه العائلي ويتزوجا. هل كان جاداً فيه؟ لم يطرأ ببالها قط، ولو على سبيل الاحتمال، وحتى بعدما باح به يظل أمراً غير واردٍ على الإطلاق. لن يغفر لها أبناؤها، فايث وراين، وهما كل حياتها. لا، لن تخاطر بخسارتها.

اتخذت القرار السليم وأنهت تلك العلاقة. من العجب أنه لم يُكتشف أمرهما، ولا يجب أن يعلم أحدٌ أبداً. بلغ قلقها أشده أنه بان عليها، إذ غمرتها مشاعر، في الأشهر القليلة المنصرمة، أنّها أصغر، أجمل، وأسعد من ذي قبل. حاولت مداراتها. انبغى عليها حسم الأمر سريعاً، قبل انتباه أي أحد، قبل انتباه آل، إن لم يحدث بالفعل. ازداد ميله إلى الصمت مؤخراً أكثر من المعتاد، وكذا انعزاله. لعل السبب يتعلق بالعمل. كيف له أن يتبين ما بينها وبين ويليام، وقد التزما أشدّ الحذر؟

يسيل العرق من مايكل مع انتهاء تمرين كرة السلة. المدرب راضٍ عن أدائه اليوم، مما يضطرب له حياءً. يودُّ إخبار أمه وأبيه بما أثنى به المدرب على أدائه. في غرفة تغيير الملابس، يجفف جسمه بالمنشفة التي أخرجها من حقيبته الرياضية. يخلع سرواله القصير ويرتدي بنطالاً قطنياً وكنزة خفيفة من الحقيبة. الهواء معتدل البرودة بالخارج، إذ أوشك شهر أكتوبر على الانتصاف. يودّع على كُرهِ منه أصدقاءه، يتأهب جميعهم لمغادرة المدرسة، يودُّ لو باستطاعته الخروج معهم والاستمتاع بوقته برفقتهم لمدة أطول بصفته عضواً في الفريق. لكن، ينشق عنهم عابراً الردهات قاصداً قاعة الموسيقى، على الطرف الآخر من المدرسة، ليصطحب أخته الصغرى. كم ينغصه هذا الأمر كل ثلاثاء. لمَ لا تُنهي أمه عملها مبكراً ليومٍ واحدٍ في الأسبوع وتأتي لتصحبها بنفسها؟ أخته شوكةٌ في جنبه. إنه في الثانية عشرة، بصفه

السادس، ويتوق إلى التسكع مع أصدقائه. لا شيء ممتع في التمشي بصحبة أخته الصغيرة حتى المنزل. يشغله ما يحدث حوله أصدقائه، والكثير مما يفتقد.

ينعطف عند الزاوية الأخيرة في الرواق، حيث قاعة الموسيقى. لا يرى أخته منتظرةً في مكانها المعتاد على المقعد الملاصق للجدار، وحقيبة ظهرها على كتفها، متململة تحك قدميها في الأرض ريثما يصل. يختلس النظر إلى داخل القاعة ثم يدخل. ترفع السيدة «بيرك»، معلمة الموسيقى، رأسها ناظرةً إليه وتبتسم. تتذكره، فقد التحق بصف الكورال مثل أخته، حتى تركه مفضلاً عليه صفوف الألعاب الرياضية. يتلفت ناظرًا في أرجاء القاعة، ولا يراها. تسأله السيدة بيرك: «هل تبحث عن أختك؟».

يومي لها: «نعم».

- يؤسفني أنني اضطررت لإرسالها إلى المنزل، فقد كانت مُشْتَتَّةً لانتباه الصف.

سقط قلبه في قدميه. ليس مجددًا! عندما تُوَقَّع آفيري نفسها في المشكلات، يزداد الجدل بين والديه. تُسْتَنْزَف كل قوتها حتى بالكاد يلاحظان وجوده، ويتعين عليه إنجاز عملٍ باهرٍ حتى يلفت انتباههما. بينما جُلُّ ما تفعله آفيري هو إساءة التصرف، دائمًا، يحصل على الدرجات الجيدة وينضم إلى فريق كرة السلة، في صمتٍ، حتى إنه يجزُّ العشب دون اعتراض. هذا ليس عدلاً.

يخبر معلمة الموسيقى: «غير مسموح لها بالعودة سيرًا بمفردها». تُلَوِّح على وجه المعلمة رجفةً قلقًا، قائلة: «توجب عليها انتظار مجيئك، إذا ما اتفقتما على ذلك».

يبرح مايكل قاعة الموسيقى عائداً أدراجه خلال أروقة المدرسة الخالية. تسوء حالته المزاجية تدريجيًا، ويختفي التوهج الذي تركه ثناءً المدرب في نفسه. ستنال آفيري العقاب لا محالة؛ لن يقبل والداه مسألة عودتها بمفردها. ماذا أمكنه أن يفعل، وهو بتمرين كرة السلة؟ لم يكن ليتكهن بشيء. إنه خائفٌ، وحانقٌ عليها أيضًا.

يهول في طريقه إلى المنزل، مدركًا أنه سيخيم مزاجٌ عكزٌ على الجميع هذا المساء. لن يُلقِيَ أحد والدَيه بالآ لما ذكره المدرب عن أدائه المتميز في اللعب. عادةً ما تتخذ المسافة عشرين دقيقةً مع أخته، إلا إنه قطعها في ربع الساعة فقط. لدى وصوله، يجد الباب الأمامي مُقفلاً، على غير المتوقَّع. يُخرج مفتاحه ليفتح الباب مندفعًا. ستعود أمه عما قريب، في الخامسة والنصف. لحظتها تخطر له فكرةٌ، بوسعهما القول إنهما عادا معًا، أو يصمتا عن قول شيءٍ فحسب. لا حاجة إلى أن تعرف أمه أن آفيري أساءت التصرف بعودتها من دونه. أمرٌ مغرٍ. لكن، ما العمل إذا اتصلتُ بها المعلمة بترك؟ هل يستحق الأمر المجازفة؟ سيثار غضبُ والدَيه إذا علما ولم يطلعهما بنفسه. لم يكذب عليهما من قبل قط.

يتحرك تلقائيًا نحو المطبخ، مناديًا أخته: «آفيري! أين أنت؟». يلج فيه، ولا أثر لها. إن عادتُ فسيجد حقيبة ظهرها ملقاةً على الأرض. ينتابه القلقُ، يجول بالطابق الأرضي كله بحثًا عنها. يتمتم: «تبا!».

ثم يرفع صوته، صاعدًا الدرج إلى الطابق العلوي، درجتين في المرة: «أين أنت، يا آفيري؟».

يُلقِي نظرةً على غرفة النوم، ليست بالداخل. يبحث في غرفته؛ عادةً ما تتسلل إليها عابثةً بأغراضه، لكنها ليست هنا كذلك. يتضاعف قلقه. لا أثر لها في غرفة والدَيه، المكتب، الحمامات، ولا حتى في المرأب الخالي. كما ليست في القبو. يخفق قلبه من هرولته في أنحاء المنزل، ومن الذعر. هو المسؤول عنها، ولا يدري عن مكانها شيئًا. يفتح الأبواب الزجاجية المنزلة لقاعة الطعام المطلَّة على الشرفة المرصوفة، هاتفًا باسمها في الباحة الخلفية. لم يتلقَ أي إجابة. يستطلع الباحة حتى الحاجز الخلفي، ثم يستدير ويلقي نظرةً نحو السطح. سبق لها التسلق إليه. لم تعد إلى المنزل. أمرٌ لا يُعقل، أين اختفت؟ ربما تلعب في الغابة القابعة خلفه، أو في أي مكانٍ آخر.

يسحب هاتفه من جيب كنزته. لم تزل أخته في التاسعة، ولا تملك هاتفًا خلويًا بعد. يتصل بأمه.

- مرحبًا، يا عزيزي، ما الأمر؟

لها نبرة المنشغلة بالعمل، ومتى لم تكن؟

يزدرد ريقه: «امم، أفيري ليست موجودة».

في حدة تسأله: «ماذا تعني بأنها ليست موجودة؟ من أين تتكلم؟».

يحسن به إطلاعها على الحقيقة في الحال.

تغمض إيرين وولر عينيها مستمعةً إلى ابنها. بعد لحظاتٍ، تخطو بأسرع ما أمكنها نحو مخرج المكتب. اكتفت بتحريك فمها لرئيسها، طارئٌ عائلي، وتلقت إيماءة السماح لها بالانصراف. تقول لابنها ذي الاثني عشر عامًا: «لا داعي للفرع. على الأرجح ذهبْتُ عند «جينا». إنني بالطريق. هل يمكنك الذهاب إلى منزل جينا والتأكد من وجودها هناك؟ هاتفني ما إن تعثر عليها. سأصل في غضون دقائق».

تشق طريقها إلى باحة الوقوف، تركب سيارتها وتضع الهاتف في منظم المقعد ليتسنى لها التقاطه بسرعة. تملكها القلق، بطبيعة الحال، إلا إنه لم يصل إلى حدِّ الدُعر، بعد. تحبُّ ابنتها، بيد أنَّها صعبة المراس، دومًا ما تتعدى تصرفاتها الحدود. تتساءل بسخطٍ أكثر منه خوف، لم لا تلتزم بما يُطلب منها فحسب؟ حينما يُعثر عليها، سيتحتم عليها وأبيها معالجة هذه المشكلة. كيف يمكن حملها على التعلم من أخطائها، بدلًا من التماذي في تمردها؟ وغالبًا ما تنتهي أي محاولةٍ منهما لكبح جماحها إلى التمرد.

يذهب بالها إلى مايكل والعرشة البادية في صوته. يا له من صبيٍّ طيب القلب. سيظن أنه المسؤول، ينبغي عليها طمأنته بأنه ليس المَloom بل أفيري، لا ذنب له بتصرفات أخته. إنه مرهفُ الحس، إلى حدِّ الدُعر من التسبب في استياء أحدٍ، وبخاصةٍ والديه. تزيد من سرعة قيادتها. لا ينبهك أحدٌ إلى صعوبة دور وليِّ الأمر، ولا يذكرك بمقدار الطاقة التي ستمتص منك. هذه

ضريبة الزواج. لا يعني ترعرعك في أجواءٍ عائلية، أنك مؤهلٌ جدًّا لتحمل أعباء عائلةٍ خاصةٍ بك.

تقود والمطر يتساقط. تلقي نظرةً خاطفةً إلى هاتفها، مترقبةً اتصالاً في أي لحظةٍ، يفيد بعثوره عليها. ذهبت في الغالب إلى منزل صديقتها جينا، على الجهة المقابلة من الشارع. لكنّ تتذكر أن جينا تحضر صف الكورال أيضاً، ولم تُصَرَف من الصفِّ مع ابنتها. إذاً فقد دخلت الغابة. تحبُّ آفيري اللعب في الغابة خلف منزلهم، وبخاصةٍ في بيت الشجرة. بينما تنعطف إلى درب المنزل يرنُّ هاتفها، فتلتقطه بلهفةٍ.

يقول مايكل: «لا يُستجاب على طَرَق الباب لدى منزل جينا. إنني عند بيت الشجرة، ولم أجدّها هنا كذلك».

يتشارك معها على ما يبدو سير الاحتمالات مثلما تخطر لها. تزداد أنفاس ابنها ثقلاً، وتتنبه إلى نبرة الخطر بصوته. تتأثر من فورها ويصيبها الفزع، بيدَ أنّها الراشدة بينهما وعليها التحلي بالهدوء.

- حسنٌ، يا مايكل. عُد الآن. مهما يكن المكان الذي ذهبتُ إليه، ستظهر في أي لحظةٍ، لا سيما والسماء تمطر. وإن لم يحدث، سنبحث عنها. سأتواصل مع أبيك.

ثم تقطع الاتصال مترجّلةً من السيارة.

تُرك الباب الأمامي غير مقفلٍ، فتدخل متعجّلةً. تخلع حذاءها عالي الكعب لدى الباب وتحثُّ خطاها مناديةً ابنتها؛ ربما عادت إذ يقتفي أخوها أثرها. تهوّل صاعدةً ونازلةً الدرج، وتدور في أرجاء المنزل، يُحتملُ أنّها تختبئ أو تُعدُّ خدعةً لمفاجأتهم. تفتش تحت الأُسرة وخلف الملابس في الخزائن، وفي كل زاوية تلوح ببالها. آفيري ليست موجودةً. تصرخ باسمها مراراً، دون ردٍّ. تلتقي مايكل في البهو، وهي متجهةٌ نحو المطبخ، وقد دخل لتوه من الباب الأمامي، مبتلاً بالمطر، مرتجفاً مثلما يبدو، حتى وجهه ممتقعٌ رغم بديهية السبب أنه من أثر الركض.

تخبره: «سأتصل بأبيك على الفور. ثم سأبلغ الشرطة».

الفصل الثالث

يصل ويليام في السادسة إلا الثلث، عقب محادثة هاتفية مع إيرين. تناهى إليه الأسى في صوتها، رغم وضوح أنها حاولت إخفاء قلقها أمام مايكل. قالت له: اختفت آفيري. سأبلغ الشرطة. يرى دورية شرطة متوقفة أمام منزله. يحسُّ بمعدته تضطرب لمرآها.

يركن سيارته في المرأب ويستنشق بعمق، يحسُّ به تمالك نفسه. يتحتم عليه مواجهة الموقف بثباتٍ كيفما يُنتظر منه، كونه ربَّ الأسرة وطبيبًا. لا بدَّ أن يستجمع رباطة جأشه؛ لن ينهار بتلك السهولة. يتردد في ذهنه صوت زوجته المتوتر. اختفت آفيري. سأبلغ الشرطة.

لدى دخوله، يجد زوجته وابنه جالسَيْن في غرفة المعيشة، في الجهة الأمامية من المنزل، وبصحبتهم شرطيان في زيهما الرسمي. الشرطة السيدة رُتبتُها أقدم، والشرطي الرجل -شابُّ يافع، بالكاد تخطى المراهقة حسبما يبدو- منهمكٌ في تدوين الملاحظات.

ترفع إيرين رأسها ناظرةً إليه، بوجهٍ شاحبٍ يصدمه. ما الذي يجري؟ بلغت صدمته من الشدة إلى حدِّ توقُّفِ أنفاسه. لم تقم زوجته ولم تقترب منه لتعانقه، ولم يذهب إليها.

تنهض الشرطة قائلةً: «هل أنت السيد وولر؟».

يجاهد مجيبًا: «الدكتور وولر».

تومئ برأسها.

- أنا الضابطة «هوليس» وهذا الضابط «روساليس». أبلغت زوجتك عن فقدان ابنتكما منذ دقائق، ووصلنا لتونا. نحتاج إلى الإحاطة بالتفاصيل حتى نباشر البحث عنها. كما سيصل فريق التحقيق بعد قليل.

يومي مرتميًا على المقعد الوثير إزاءها. يتأمل المطر المنهمر على نحو مباغت، على النوافذ الزجاجية لقاعة الطعام، المُفضية إلى الفناء الخلفي. يا له من يوم غريب!

تسأل هوليس: «هل لديكما صورٌ حديثةٌ لابنتكما؟».

تردُّ إيرين: «جميعها على هاتفي».

تمدُّ يدها إلى الهاتف، وتمرر إصبعها متصفحةً. تُري الشرطة الصور بيدٍ مرتجفةً.

تطلب هوليس: «أسمحين لي؟».

تنقر الشرطة على معظم الصور وترسلها إلى رقم هاتفها.

تقول متمعنةً النظر فيها: «شقراء، وعيناها زرقاوان. ما طولها؟ وما وزنها؟».

تردُّ إيرين: «طولها ١٢٨ سم ووزنها ٢٧ كجم».

- ماذا ارتدت صباح اليوم؟

كأنه غائب الوعي، في حين يبدو على إيرين التذكر للحظات.

- بنطال جينز كُحلي اللون -جديدًا نوعًا ما- وحذاء رياضيًا ورديًا، مع قميص أبيض على مقدمته وروُد، بالإضافة إلى سترة جينز وحقيبة ظهر زرقاء غامقة.

- هل في جسمها أي علامات، أو ندوب؟

تهزُّ إيرين رأسها ثم تنظر إلى ويليام، فيهرز رأسه أيضًا.

تلتفت إلى إيرين سائلةً: «ذكرت أنه لم يرَ أحدكم آفيري منذ مغادرتها صف الكورال. في أي وقتٍ اكتشفتم ذلك؟».

فَقَدَ النطق، كما لو أُصِيب بالشلل. ترك الفرصة تفلت هباءً.
تنظر إيرين إلى مايكل، فيقول في انفعالٍ: «لا أدري. طُرِدْتُ من الصف.
لا أعرف متى تحديدًا».

يضيف: «يبدأ تدريب الكورال بعد دوام المدرسة، في الثالثة والنصف،
وينتهي في الرابعة والنصف».

ترمق الشرطة زميلها الضابط اليافع.

- نحتاج إلى أخذ إفادة معلم الموسيقى.

يُردف مايكل: «السيدة بيرك هي معلمة الصف».

تومئ له الشرطة.

- إذا، فقد خرجت من المدرسة، ولا يُعرَف إلى أين ذهبَتْ. أواثقون من
أنها لم تُعد قط؟

تهزُّ إيرين رأسها، مجيبةً: «لم نجد حقيبة ظهرها بالمنزل. كما لا تملك
نسخةً من المفتاح، لأنه لا يُسمَح لها مطلقًا بالعودة وحدها سيرًا».

يبتلع ريقه دون أن ينبس ببنت شفة. يداهمه دوارٌ كأنه فوق قمةٍ شاهقةٍ
ويميل بجذعه، ماديًا بصره إلى الأسفل. يعلم بعودة آفيري إلى المنزل اليوم
بعد الدوام المدرسي، ودخلت باستخدام المفتاح المُخبأ تحت ممسحة الأقدام.
تبادل معها الكلام، بل وضربها. يا له من وحشٍ كاذبٍ! مع كل لحظةٍ تمرُّ عليه
يزداد هوانًا، يتخوف من أنه على شفا التقيؤ. مُحالٌ أن يفعل. يزدرد المرارة
في جوفه، يطهرُ حلَقَه، ويُلمِّح: «ربما هربت».

تلتفت نحوه زوجته.

- ولمَ قد تهرب؟

يُبعد بصره عنها.

- ربما انزعجت من عقابها بالطرد من تدريب الكورال؛ تعرفين إلى أي
درجةٍ قد تنزعج.

لحظتها يتمنَّى لو بوسعه سحب ما تفوه به.

مكتبة

t.me/soramnqraa

تتساءل الضابطة بلطفٍ: «إلى أي درجة قد تنزعج؟ ما طبيعتها؟».

تتنهد إيرين بعمقٍ موضحةً: «طبيعتها معقدة. هي طفلةٌ رائعةٌ في عمر التاسعة، متقدة الذهن، موهوبةٌ بحقٍّ، بيدَ أنَّها صعبة المراس. تعاني صعوبات تعلم، تشتتُ انتباهٍ وفراط حركة، بالإضافة إلى اضطراباتٍ سلوكيةٍ أخرى».

تنقل الضابطة نظرها بينهما.

- ما الذي تقصدينه بالضبط؟

يترك ويليام لزوجته المجال بالنيابة عنهما.

- رغم أنها طفلةٌ ذكيةٌ، تواجه صعوباتٍ في الدراسة، وتغضب من أهون الأمور. سلوكها عفويٌّ، وفي غالب الأحيان تتصرف دون تفكير. كما أنها عنيدةٌ، تتحدى أي سلطةٍ عليها. تفعل دائمًا ما ترغب في فعله، ونحن نبذل أقصى جهدنا معها.

لم يبدُ أي حرجٍ على زوجته إذ تخبر الشرطة بذلك، لكن حين يُفقد طفلٌ، تتوجه أصابع الشك إلى والديه. سيفكر الشرطيان في الحال أنَّهما سببًا لها أدنى ما. ليتها ما وضحت لهما شيئًا.

لكن هوليس تكتفي بالإيماء، وتوجّه انتباهها نحوه.

- مفهوم. هل سبق لها الهروب من المنزل؟

يمكنه الإحساس بوجهه يتضرع تدريجيًا، قائلاً: «لا».

ترمقه الشرطة مليًا، وتساءل: «هل أموركم بخير؟ هل تواجهكم أي مشكلاتٍ يجب أن نحتاط لها؟».

تلتقي عيناه عيني الضابطة، مجيبًا: «قطعًا لا. كل أمورنا بخير».

لا تقول إيرين شيئًا، ومايكل يحدّق إلى قدميه.

تتوجّه إلى زوجته بالكلام، وهي تنهض: «حسنٌ جدًا. أشكرك على الصور. من بعد إذنك، نودُ إلقاء نظرةٍ في أرجاء المنزل، لربما ابنتك مختبئةٌ في زاويةٍ ما. قد يُدهشك كم واجهتنا أمورٌ مماثلةٌ، إذ يختبئ الأطفال حتى يغلبهم النعاس».

تؤكد إيرين بصبرٍ نافذٍ: «فتَّشنا المنزل كله بالفعل».

بيد أنه يعلم ما يدور بذهن الضابطَيْن. يرتابان بالطبع، وهذا دورهما. من الممكن أن يعثرا على دليلٍ ما.

يحثهما بصوتٍ مبجوحٍ: «لا مانع البتة، تفضَّلا. لكنَّ أسرعاً إذا سمحتما. إذ عليكما البحث عن ابنتنا».

ينهش القلق إيرين والبحث يُجرى عن آفيري على قدمٍ وساقٍ، تطوف صورتها، أوصافها، وملابسها بين أوساط الشرطة والإعلام. سيارات النجدة تطوف البلدة، والضباط يطرقون أبواب الجيران، يأخذون إفادات ساكني المنطقة ما بين «مدرسة إليزيمير الابتدائية» ومنزلها، طلوعاً ونزولاً بشارع كونوت، حيث تقطن أسرتهما. لعل أحد الجيران لمح طرفها. لديها حدسٌ أنه أصابها خطبٌ رهيبٌ؛ لم تكن ابنتها لتغيب عن تناول العشاء بالمنزل، لو بإمكانها العودة.

يأتي ذكرها محلياً في نشرة الأخبار المسائية في تمام السابعة.

نبأ عاجلٌ... طفلةٌ في التاسعة يختفي أثرها في طريق عودتها إلى المنزل بمفردها من مدرستها ببلدة ستانهوب، في نيويورك.

تظهر صورتها على الشاشة. الأمر كله لا يُصدَّق، كما لو تعيش أحداث كابوسٍ مروعٍ، تقشعرُّ له الأبدان.

يُنظَّم بحثٌ ميدانيٌّ على جناح السرعة، تحت قيادة الشرطة وبلاستعانة بمتطوعين، على الرغم من غزارة المطر المنهمر. إنه أكتوبر وسيخيم الظلام قريباً، كما يزداد الهواء برودةً. العامل الحاسم هو الوقت. إنَّما إيرين محبوسةٌ في منزلها كالبعوضة في المصباح، عاجزةٌ عن الحراك، عاجزةٌ عن الخروج للبحث عن ابنتها، مجبرةٌ على المكوث في الداخل، تتحدَّث إلى المحقِّقين، وتجيب عن أسئلتهما. ويليام بالداخل معها، يقعد بجوارها على الأريكة في غرفة المعيشة، وبين الحين والآخر ينهض متوجساً ليُطلَّ من النافذة الواسعة، كأنَّما سيلمح آفيري قادمةً بدرب المنزل، مُتغافلةً كل أولئك الذين يبحثون

عنها في طريق العودة. طار عقله. لم يُؤدّن لمايكل بالانضمام لفرق البحث، يُقعدانه بالمطبخ تحت حراسة إحدى الشرطيات، حتى يتسنّى لهما التحدّث إلى والدَيه على انفراد.

وصل المحققان مع انصراف الشرطيّين الأوّلين لتعقب النبا من معلمة الموسيقى، بعدما انتهى التفتيش إلى لا شيء. المحقق «بلدسو» قوقازيُّ الملامح، في منتصف الأربعين، عاديُّ الطلعة، يرتدي حُلّة رماديةً يوميةً. بالكاد يمكن تمييزه من بين حشدٍ. تأمل إيرين أن نكائه أفضل من مظهره. تُعدّ ستانهوب بلدةً محدودةً نسبيًّا، فما مقدار الخبرة التي لدى الشرطة في معالجة مسألة كتلك؟ لا تذكر أنه فقد طفلُ هنا من قبل. أما زميلته المحققة «جالي»، امرأةٌ سمراء تصغره بنحو عشرة أعوام، قصّة شعرها شديدة القصر، ترتدي بذلةً أنيقةً. تبسّطت إيرين معها في الحديث، ربما لأنها امرأةٌ، أو لأنه تشعُّ من عينيها حيويّةٌ، وتعبيرها يفيض تعاطفًا أكثر من زميلها.

يطنُّ هاتف المحقق فوق منضدة القهوة، فتفزع. يتجلط الدم بقلبها، خشية سماع خبر سيئٍ. يتحادث لفترةٍ وجيزةٍ ثم يقطع المكالمة. يعيد الهاتف لموضعه، وينحني للأمام في مقعده بعدما قرّبه من المنضدة.

يوضح بلدسو: «إنه اتصالٌ من الضابطة هوليس. أُخِذَت إفادة المعلمة بيرك، وذكرْتُ أن آفيري أساءت السلوك مع بدء صف الكورال. لذا وبّختها بشدةٍ، إلا إنها اضطرتّ -وفقًا لقولها- إلى طرد الطفلة في الثالثة وخمس وأربعين دقيقةً تقريبًا».

تتساءل إيرين في حدّة: «هل يجوز لها التصرف هكذا؟ أي معلمةٍ تصرّف طفلةً في الصف الثالث إلى المنزل وحدها؟!».

يتبين لها، للوهلة الأولى، شخصٌ قد تلقى اللوم عليه.

يقول المحقق: «لنضع هذه المسألة جانبًا في الوقت الحالي. ما نعرفه أنها خرجت من المدرسة قرابة الرابعة إلا الربع».

تعلّق المحققة: «أو لم تخرج قط».

تلتفت إيرين نحوها، إذ صرّحت بأمرٍ بديهيٍّ بالضرورة. افترض المحقق أنه اعترض آفيري حادثٌ ما في طريق عودتها من المدرسة، بل هذا ما افترضه الجميع.

يعضُّ بلدسو شفّتيه ناظرًا إلى جالي، ربما مغتاظًا لأنها فتحت فمها، أو ضجرًا من ضيق أفقه. يأخذ نفسًا عميقًا ويزفره بقوة، ثم يومئ معترفًا: «يتوجب علينا تفتيش المدرسة».

يلتقط هاتفه من على المنضدة ويدلف إلى قاعة الطعام، طلبًا لبعض الخصوصية، إنّما بوسعهم جميعًا سماعه وهو يعطي التعليمات بخصوص المدرسة، أن تُفتش تفتيشًا شاملًا.

تطبق جفنيها، تتفكر في كل الأماكن التي قد تختبئ فيها فتاةٌ صغيرةٌ في مدرسةٍ شاسعة الأرجاء: مستودعات التخزين، خزائن الطلاب، القبو، السطح. ربما استدرّجت إلى إحدى حجرات الدراسة الخالية خلال اليوم، خفيةً عن الأعين، فوقع لها مكروهٌ بالداخل. عند هذا الهاجس، يدوخ رأسها، فتتشبث بطرف الأريكة حتى زوال الشعور. حالما تحسنت حالتها، تفتح عينيها وتميل إلى المحققة جالي، تتصورها أكثر نباهةً من زميلها بلدسو.

تطلب منها: «عديني أنك ستعثرين عليها».

تقول جالي: «سأبذل قصارى جهدي، أعدك».

الفصل الرابع

تتسمر نورا بلانشارد أمام نشرة الأخبار، الصدمة طغت على مخاوفها الواهية. يتحلقون جميعاً حول شاشة التلفاز بغرفة المعيشة: هي، آل، راين، وفايث. ابنة ويليام اختفت، أمرٌ مفزعٌ بعيدُ التصديق.

تعود بذهنها إلى بعد ظهيرة اليوم، حين أنهت علاقتها مع ويليام، وينتابها الندم على سوء التوقيت. كم سيشعر بالتيه. تحاول تصوّر الحالة التي يمر بها. قلبها منقطرٌ عليه، تتمنى لو بيدها مواساته. لن تواسيه زوجته، لم تبقَ ذرةُ حبٍّ بينهما -مثلما أخبرها- بيدٌ أن ألمها يفوق ما به حتمًا، هي الأم بغض النظر عن أي شيء. لا تحتل نورا مجرد تصور القلق الذي -لا ريب- يعتري زوجة ويليام. تكبر فايث ابنته بعامين فقط، وتسبقها بعامين في الدراسة. ماذا لو اختفت فايث؟ ابنة نورا في الحادية عشرة، رياضية البنية، تُقصر شعرها ويُساء الظن أنها فتى. لكن لن يطول هذا الحال.

لا يسعها رؤية ويليام كي تواسيه وتدعمه؛ علاقتها سرية. كما ستوضع عائلته تحت المراقبة، ولن تستطيع الوصول إليه. الطريقة الممكنة الوحيدة للتواصل معه، هي عبر الهاتف، وهنا يأتي سرها الدنيء، هاتفها الآخر، تستخدمه من وقتٍ لآخر حتى تتصل به، ولديه هاتفٌ مثله، مخصصٌ لها.

يخطر ببالها في بغتة مروعة، أنه إذا لم يُعثر على آفيري عاجلاً، قد تكتشف الشرطة هاتفه، المجهول لدى زوجته تمامًا، ويكاد قلبها يتوقف نبضه.

سُيُفْتَضَح سرهما. سيضطر إلى إطلاع الشرطة على سبب حاجته إلى الهاتف. سيبوح بالحقيقة لا محالة.

تشعر بالدماء تنحسر عن وجهها.

تقترب منها ابنتها لترتب على كتفها، قائلة: «اطمئني. سيجدونها».

تفرع لملمس يدها، تبعد عينيها عن التلفاز لتتنظر إلى أسرتها. يتأملونها ثلاثتهم في قلقٍ، تنتبه إلى بكائها، فتكفكف دموعها بأصابعها.

تقول مفتعلة الابتسام: «متأسفة، تعرفون كيف أتأثر بسهولة. مسكينة تلك الأسرة!».

يهزُّ آل رأسه معلقاً: «لا أعتقد أنه وقع لها خطبٌ في طريق العودة من المدرسة. تعود فايت مشياً من المدرسة كل يومٍ أيضاً، إذ نعيش في الشارع نفسه. هذه منطقةٌ سكنيةٌ آمنة، سيُعثر عليها حتماً».

تدور بذهنها محدقةً إليه، وكيف سيتفوه بما ينافي خصاله! زوجها محدود الخيال، رأسه مدفونٌ في الرمال، الأمور عنده مستتبّة على الدوام، حتى لو أنّها على النقيض، حتى لو رآها بأم عينيه.

تُصرُّ فايت: «ستظهر يا أمي. اختفت عن عمدٍ غالباً، يعرف الكل طبيعتها». تسألها: «ماذا تعنين؟».

لم يكلمها ويليّام عن ابنته قط؛ حينما يلتقيان قلماً يتطرقان إلى الحديث عن العائلة.

- كثيراً ما تُعاقب، لا تفعل إلا ما يترأى لها. حتى المعلمون يرسلونها إلى إدارة المدرسة باستمرارٍ لأنهم لا يحتملون تصرفاتها.

على نحوٍ مفاجئٍ يفصح ابنها راين: «رجال الشرطة بحاجةٍ إلى متطوعين. سأنضم إلى حملة البحث عنها».

تقول نورا: «مبادرةٌ رائعة».

تُسَرُّ لرغبة ابنها في المساعدة، على الرغم من رجائها أن يمكث الليلة معهم، بما أن مناوبته المسائية في المركز قد أُلغيت. كما لا يتناول العشاء

بالمنزل عادةً. ينهض الفتى الطويل، قوي البنية، وسيم الوجه، ذو الأعوام الثمانية عشر. لديه العديد من الإمكانيات الكامنة، ومع هذا تسبَّب لها في روع بالغ العام الماضي.

يقول آل ما يدهشها: «سأذهب معك».

لعلَّ استخفافه الزائد بأحوال البلدة تأثَّرَ رغماً عنه.

تسأل فايث: «هل يمكنني المجيء؟».

تهزُّ نورا رأسها.

- لا، عمرِكَ لا يناسب. ستبقين برفقتي.

يشرع كلاهما في انتعال حذاء المشي الطويل، وارتداء معطفٍ، ورداءٍ واقٍ من المطر، ثم يتخطَّان لإيجاد المصابيح الكشَّافة، في حين تتجه وابنتها إلى المطبخ للبتِّ في تنظيف الأطباق. تحجم عنها لدى رؤيتهما منصرفين، وبعد قليلٍ تصرِّف ابنتها كي تُنهيَ فروضها الدراسية. تبتغي الانفراد بأفكارها. تتخيل زوجها وابنها في الظلمة الحالكة بالخارج، والمطر الغزير، يفتشان الغابة ما بين البلدة والنهر، بحثاً عن ابنة ويليام. ترجو أن تفلح حملة البحث في العثور عليها في أقرب وقتٍ، بسلامةٍ وعافية، بل يتوجب ذلك.

الوقت يمضي بسرعةٍ خاطفةٍ. تدرك المحققة جالي أنه في حالة فقدان طفلٍ، كل دقيقةٍ ضياعها ثمينٌ. يُجري فريقٌ في هذه الآونة تفتيشاً شاملاً بأرجاء المدرسة. لم يُفصَّ طَرُقُ منازل كل ساكني البلدة إلى جدوى بعد؛ لم يرَ أيهم آفيري تعود إلى المنزل سيراً، على ما يبدو. مما لا يشير بالضرورة إلى عدم خروجها من المدرسة، إذ ربما لم تلفت نظر أحدٍ منهم فحسب. سيتحتم عليهم بدء التحقيق مع كل المعلمين والعاملين في المدرسة الذين حضروا خلال النهار، ما لم يُعثَر عليها في وقتٍ قريبٍ. يُفحص بالفعل سجل جميع مرتكبي الاعتداء الجسدي في المنطقة، ويساند الشرطة فريقٌ تطوعيٌّ من المفتشين ينتشرون في الأراضي الخالية غير الممهدة شمالي منزل آل وولر، وكذا الغابة الممتدة بالخلف، حتى مجرى النهر. يستخدمون

المصاييح الكشّافة، إنّما الظلمة التامّة ستحل في الثامنة، وستضعف الرؤية. إذا تعذّر إيجاد الطفلة، سيُعاد البحث كله من جديد في الصباح، كما سيُبَحَث عند ضفتي النهر، وفي أعماقه إن تطلّب الحال. ستُذاع مناشدةٌ عبر التلفاز وسيُوفّر خطٌّ للاتصال. لن يُترك بابٌ دون طرُق. لا يُستبعد أن آفيري قفزت إلى حافلةٍ ما، ويُعثر عليها في «مانهاتن»، حدث ما هو أعجب منه، غير أن جالي لا تستسيغ حالة هذه الطفلة. تتموج معدتها في عدم ارتياح. على الرغم من حبّها لعملها، لما له من أهمية وضرورة، فإنه مضمّن بطبيعته.

تولّت قضية اختفاء طفلٍ في الماضي، في مدينة «شيكاغو»، قبل أن تُنقل إلى ستانهورب. لا تعتقد أن بلدسو تحرّى في قضيةٍ مماثلة، بهذه المنطقة. يتخذ منها موقفًا دفاعيًا، وهي امرأةٌ وتصغره بالعمر. على الأقل، يستمع إلى اقتراحاتها، لا يسعى إلى إخراستها. معاملته مقبولة، لقد خُبرت من يفوقونه سوءًا.

تتأمل الوالدين الجالسَين أمامها. أجابا عن كل التساؤلات التي وُجّهت إليهما المتعلقة بابنتهما آفيري: عاداتها، أصدقاءها، أصدقاء العائلة، أماكن يُحتمل زهابها إليها. أشارا إلى أنّها تحبُّ اللعب في الغابة، وأنه يوجد بيتُ شجرة، كثيرًا ما تذهب إليه. بحث أخوها عنها هناك، رغم ذلك، أرسل فريقٌ لتفتيش الموقع بدقة.

تحدّث والداها بوضوح عن مُعضلتها السلوكية، بوصفها طفلةً يصعب التعامل معها، كما تميل للعند الشديد. على سبيل المثال، لا تخضع لأي علاجٍ دوائيّ من أجل حالتها -فرط الحركة وتشتّت الانتباه- لأنّها ببساطةٍ ترفض تناوله. صارا على شفا الانهيار في ترقب خبرٍ عنها. الأم في حالة ذهولٍ، لكنّها متجلّدة، تتحامل على نفسها ما وسعها الجهد حتى تتماسك، إنّما الأب مثيّرٌ للاهتمام. وراءه أمرٌ خفيٌّ، أمرٌ مريبٌ. لا تُحبذ التفكير به على ذلك النحو، بيد أنّها تفعل. ليست حديثة العهد بحالات الاختفاء، يتراءى لها أنه يُخفي سرًا. ربما زهابه وإيابه من النافذة وإليها، ليرى إذا ما ظهرت ابنته، مجرد استعراضٍ متعمّدٍ لتتأتى منه ثمرةٌ ما، في حين لا تتصرف الأم مثله؛ الهلع بادٍ عليها.

تدلف الشرطة، المسؤولة عن حراسة الابن في المطبخ، إلى غرفة المعيشة، قائلة: «يساعدني مايكل في تسخين إبريق القهوة. هل أصبُ لكم؟». يهزُ الوالدان رأسيهما نفياً في تناغم.

تقول جالي في عرفانٍ، فإن الليلة طويلة: «نعم، من فضلك».

يقول بلدسو: «نعم، لطفٌ كبيرٌ منك، أشكرُك».

ثم يلتفُ إلى الوالدين سائلاً: «هل يُكنُّ أحدهم ضغيئةً ضدكما؟ هل يخطر ببالكما أي أحدٍ يضرر رغبةً في أذية ابنتكما؟».

يحدّقان إليه في استغرابٍ. تنفي إيرين: «بالطبع لا».

يجيب ويليام: «لا. إننا أناسٌ عاديون. لا يوجد سببٌ قد يدفع أي أحدٍ إلى أذية ابنتنا».

يعمُ صمتٌ مزعجٌ، فجميع الحاضرين على درايةٍ بسببٍ أو آخر قد يدفع شخصاً بالغاً إلى خطف فتاةٍ صغيرةٍ.

يستفسر منه بلدسو: «أذكرتَ أنك طبيبٌ؟».

- نعم، أنا طبيبٌ عامٌ مُرخصٌ لي بالمزاولة في مشفى ستانفورد العام. كما أمارس المهنة في عياداتٍ بوسط المدينة.

- ماذا عنك يا سيدة وولر؟

- أعمل سكرتيرةً قانونيةً لدى «لَفيت أند لَفيت»، شركة حمامةٍ بالبلدة.

يوميء ببطءٍ.

- ألدكِ معضلةً مع أحدٍ؟

تسكت لتتفكر.

- لا، إنني مجرد سكرتيرةٍ. كما لا تتولى شركتنا أي قضايا مريبة. وإن حدث، فالمحامون هم المسؤولون، لا دخل لي.

- ألدكِ معضلةً مع أحدٍ، يا ويليام؟ هل تُوفِّي مريضٌ لك مؤخراً، طفلاً بالأحرى؟

ينفض ويليام رأسه نفياً.

- لو لديّ معضلة مع أحدٍ لتذكرت، لكنّ لا. الأمور كلها مألوفة، بعض الحالات بائسة والأخرى أمراضٌ عادية. لا يحمل أي أحدٍ ضغينةً ضدي، على حدّ علمي.

يصرُّ بلدسو: «هل رُفَعَت شكاوى مهنيةٌ ضدك من قبل؟».

يردُّ الطبيب وولر بحزم: «مطلقاً».

تشمُّ جالي رائحة القهوة من جهة المطبخ، فتنهض.

- سأحضر القهوة.

تخطو تاركةً غرفة المعيشة، إلى يمينها الباب الأمامي وفي آخر البهو، على يسارها، يقع المطبخ. في ردهة الباب، يوجد صفٌّ مزدوجٌ من خطاطيف المعاطف على الجدار. الإضاءة ضعيفة، إلا أن بوسعها رؤية مختلف المعاطف والسترات معلقةً على الصفيين. فتُشّ المنزل من قبل أول شرطيّين وصلا إلى الموقع، لكنّ تدرك جالي أمراً أُغفل عنه. تلمح سترة جينز بمقاس طفلٍ معلقةً على خطافٍ من بينهم. تقترب مدققةً النظر، مقاسها لا يناسب مايكل. لا بدّ وأنها السترة التي ارتدتها أفيري صباح اليوم. ماذا تفعل السترة هنا؟ تنادي من الردهة: «بلدسو! هلاًّ أتيت إلى هنا للحظة!».

الفصل الخامس

تحسُّ جالي بنبضات قلبها تتسارع إذ يتقدم نحوها بلدسو في الردهة. تجد زر إضاءةٍ فتحركه، لينتشر نوره في المكان. تأتي الشرطية من المطبخ لترى ما يحدث.

تقول جالي بإيماءٍ من ذقنها: «انظر! هذه سترة جينز مقاس طفلة». يقف بلدسو بجانبها ويأخذ نفسًا عميقًا، متممًا: «سحقًا!». كذلك أتى الوالدان إلى الردهة، تتساءل الأم: «ما الأمر؟». يسأل بلدسو: «هل هذه السترة الجينز تخص ابنتكِ؟». تتأملها في حيرةٍ باديةٍ عليها.

- نعم.

- ذكرتِ أنها ارتدتها حين ذهبتُ إلى المدرسة في الصباح.

- هذا ما حسبته، ربما لم تفعل. لست واثقةً.

تستفسر جالي: «كيف يسير يومك بالعادة صبيحة كل يومٍ؟ مَنْ يجهزها للمدرسة، ويودّعها عند الباب قبل ذهابها؟».

توضح إيرين: «كلانا نفعل. الصباح عندنا فوضويٌّ بعض الشيء. يذهب مايكل وأفيري معًا إلى المدرسة. رأيتهما مغادرين اليوم، ومتأكدةٌ من ارتدائها هذه السترة».

يتمتع وجهها تحت وطأة الضوء الساطع فوق الرؤوس.

تنظر جالي إلى الأب، مقطب الوجه، شاحبه.

- هل تتذكر ملابسها صبيحة اليوم، يا دكتور وولر؟

- لا أذكر. رأيتهما في طريق الخروج، وودعتهما، إنما...

يلتفت مخاطباً زوجته، نافضاً رأسه: «لا أظنها ارتدتها هذا الصباح».

ثم يتابع: «إنما لا أجزم. أخشى أنني لست قوي الملاحظة».

يتحاشى عيني جالي، وتتساءل عن السبب.

تلقي نظرةً باتجاه المطبخ، وترى الابن متسمراً خلف الشرطة، يرقبهم

في صمتٍ.

- تعال يا مايكل.

يخطو ببطءٍ إلى الردهة، وهو يرمق والديه والمحققين في توترٍ.

تسأله جالي بلطفٍ، مشيرةً إلى السترة المعلقة على الخُطّاف: «هل ارتدت

آفيري هذه السترة صبيحة اليوم عندما ذهبت إلى المدرسة برفقتك؟».

تبدو عليه الحيرة والحذر، بينما تترقب إجابته.

يقول: «لا أدري. لست واثقاً».

يدور بذهنها أنه استمع إلى والديه وهما يختلفان حول السترة، ألهذا

يخشى أن يعطي إجابةً مضبوطةً؟ ما الذي تواريه هذه العائلة عن الأعين؟

تخاطب إيرين ابنها: «فكّر، يا مايكل، حاول التذكر. إنه أمرٌ شديد الأهمية.

هل ارتدت السترة الجينز، أم سترةً أخرى؟».

يبتلع الصبي ريقه قائلاً: «ارتدت السترة الجينز في الصباح».

تلقي جالي نظرةً إلى بلدسو تحمل فهماً متبادلاً بينهما.

ثم تقول: «مؤكدٌ عادت آفيري خلال ساعات النهار إلى هنا».

يعيد بلدسو انتباهه إلى الوالدين، مستفسراً: «ذكرتما أن الابن والابنة لا

يتناولان الغداء بالمنزل. هل لدى الابنة مفتاحٌ خاصٌ بها؟».

تردُّ إيرين: «لا».

يخترق الفتى الصمتَ المطبقَ، ويجهر بصوتٍ نافرٍ مرتعدٍ: «لديها علمٌ بالمفتاح المخبأ تحت ممسحة الأقدام بالباب الأمامي. استخدمته مرةً من قبل».

يشعر ويليام بالعرق يرشح تحت إبطيه، وكفيه مُعَرَّقَتَيْن. يحدِّق إلى ابنه، تيقنٌ جميعهم في الحين من عودة آفيري إلى المنزل بعد دوام المدرسة. انبغى عليه الإفصاح عن ذلك مبكرًا، ما إن جاءت الفرصة. توجَّب عليه إخبارهم بمجيئه في وقتٍ سابقٍ من اليوم، وعن رؤيته إياها. لكنَّه لم ينطق بحرفٍ عندما أتته لحظةٌ مناسبةٌ، لأنه ارتعد. ارتعد مما قد يجول ببال المحققين، ومن الخلاصات التي قد تقفز إلى إدراكهما. كذب على الشرطة. انتابته حالةٌ من الصدمة، لم يُحسن التفكير، بل شلَّ تفكيره كليًا. ما العمل إذا لمحّه أحد الجيران، عائدًا أو ذاهبًا؟ يقاوم رغبةً ملحَّةً ليمسح كفيه في بنطاله. لزم عليه إخبارهما، إنَّما فات الأوان.

تقول جالي: «أشكرك يا مايكل».

تستوضح إيرين من مايكل بصوتٍ ملتاعٍ: «هل سبق لها العودة من دونك؟».

ينظر مايكل إلى الأرض بوجهٍ مبهورٍ، وشفةٍ سفليةٍ ترتعش.

- فعلتُ ذلك مرةً. أردتُ أن أطيل البقاء في المدرسة مع أصدقائي، لهذا.. أخبرتها عن مكان المفتاح.

يشرع في البكاء، مُردِّفًا: «أقسم إنَّني لم أفعلها سوى مرَّةٍ واحدة».

ينصعق بأمرٍ جديدٍ لدى مرأى دموع ابنه. يستوعب أنَّهما سيتشاركان هذا الحمل لبقية العمر. لو لم يجبر أخته على العودة بمفردها في تلك المرة، لما علمتُ شيئًا عن المفتاح، لما عادتُ وحدها اليوم، ولا جرى ما جرى. الصبي في الثانية عشرة! يصيبه الإعياء، وبينما لا يقدر على الإتيان بحركةٍ، إذ تنحني

زوجته لتحتوي ابنها المذهول بين ذراعيها، تخفف من روعه، تطمئنه أن الأمور ستؤول إلى كل خير، ولا عتاب عليه.

يختلس نظرةً إلى المحققين، الاستغراق بالتفكير بادٍ على جالي. تلتقي عيناها عينيه، فيغض بصره على الفور. يستشعر أنه مُراقَب. يقترب من ابنه واضعاً يده على كتفه، يقول وعيناها اغرورقتا بغتة: «لا تخف، يا بطل».

الوضع لا يُطاق، كيف سيمكنهم تحمُّله؟ الذنب ذنبه، ما انبغى له المجيء إلى المنزل خلال النهار بأي حالٍ.

تنسحب الشرطة عائدةً إلى المطبخ، وتبدأ في التنقيب عن أقذاح للقهوة، مما يكسر حدة التوتر، ويدلف جميعهم إلى الداخل، ما عدا المحقق، إذ توارى عن الأنظار في غرفة المعيشة، والهاتف بيده ليُجري مكالماتٍ هاتفيةً عاجلةً. تتبعه المحققة، ورغم توقه إلى سماع حديثهما، لا يمكنه ترك المطبخ.

سريعاً ما تعود جالي وهو يصبُّ الأقذاح من أجل المحققين والشرطة. يجهر بالقول مولياً ظهره للآخرين: «إذا ما أتت إلى المنزل بعد المدرسة، فمن الممكن أنها خرجت ثانية».

يظهر المحقق عند عتبة المطبخ مصرّحاً: «عُثِرَ على حقيبتها في خزانتها الخاصة بالمدرسة».

بصوتٍ متهدجٍ تقول إيرين: «تنسى إحضار الحقيبة معها أحياناً».

يرجع المحقق أدراجه إلى غرفة المعيشة، والهاتف على أذنه.

تقول جالي: «يُحتمَل أنها أتت في موعد الغداء ثم عادت إلى المدرسة بعد الظهيرة، تاركةً سترتها. لدينا فريقٌ شرطيٌّ يتحرى من قضائها النهار كله بالمدرسة. علينا التأكد من أنها لم تُعد إلى المنزل إلا بعد صرفها من صفِّ الكورال».

يزدرد ويليام ريقه. ترتجف يداه واضعاً قدحي قهوة المحققين على المنضدة. ليته أحسن التصرف مع الوضع، يودُّ لو يطلعهما على مجيئه إلى هنا ولقائه بأفيري بعد دوام المدرسة، ومن ثم غادر. يا إلهي، ماذا لو رآه أحدٌ حقاً؟ تخونه أعصابه. لم يفطن قبل اللحظة، كم هو جبانٌ. يلقي نظرةً إلى

زوجته، وذراعيها الملتفتين حول ابنه. تبدو خائفة القوى، ومايكل مشدوهاً. سيخضع ثلاثتهم للاستجواب من قبل هذين المحققين في وقتٍ لاحقٍ، سيحدث بلا ريب. يتساءل عما ستقوله زوجته وابنه في شأنه.

تحمل جالي القهوة إلى زميلها الجالس بغرفة المعيشة، ريثما ينهي المكالمة التي بين يديه. تُناولُه القدرح، وتتأني حتى يفهم قصدها دون إثارة تُذكر لنفوره. تأخذ رشفةً من قرحها، وتقول بصوتٍ خفيضٍ، كي لا يصل إلى سمع الوالدين بالمطبخ: «بالتفكير في الأمر، يُحتمل أنها لم تكن بمفردها».

يوجّه لها نظرةً حادةً: «أتخالين أحدهم رافقها في المنزل؟ ما حُجَّتِك؟». - لست متأكدةً. أحاول المحافظة على ذهني مفتوحاً لمختلف الاحتمالات. لكن هذه السترة...

- ماذا عنها؟

- معلّقةٌ على خطافٍ بالصف العلوي.

يستمر في النظر إليها، وإن تصعد حُمرَةً إلى عنقه مدرّكاً المغزى الذي ترمي إليه.

يقول: «يصعب على طفلٍ طوله بالكاد يتعدى المتر، الوصول لذلك الخطاف».

تومئ جالي.

- كما توجد خطاطيف فارغة بالصف الأدنى. لم تعلق آفيري السترة بنفسها. رافقها شخصٌ ما هنا.

الفصل السادس

يُحْكِم رايين بلانشارد المعطف حول رقبتة، تحت رداء المطر، ويسحب غطاء الرأس على وجهه أكثر. أظلم الليل، المطر ينهمر دونما توقفٍ، والحرارة تنخفض. تبلل كلياً وتتعذر عليه الرؤية. يلقي نظرةً على ساعته، إنها الثامنة وست دقائق. ينتشر المتطوعون في خطٍّ متعرج، على مسافة مترين بين كلٍّ منهم، تحركاتٌ بطيئةٌ تحدُّها المصابيح الكشَّافة موجهةً للأرض. بدؤوا التحرك من أطراف الغابة، خلف المساكن بشارع كونوت، ويشقون الطريق نحو ضفة النهر.

يتقدم رايين خطواتٍ بمحاذاة الآخرين، وعيناه تفحصان الأرض المتعرجة أمامه، ماسحاً المنطقة بكشَّافه المضيء يميناً ويسرةً. تبعث أجواء الغابة على الكآبة. في طريقهم، يدفعون أوراق السرخس المبللة وفروع العليق، منعطفين مع الأشجار. تنهادى إلى سمعه فروعٌ تتكسر، وخطوات أقدام الباحثين على جانبيه، يشم رائحة الأرض الخصبة الندية. ينبثق طائرٌ من أعلى شجرة، فيجفل. لو أنه بالمركز في هذا التوقيت، لكان بمنتصف مناوبته، مشرقاً على الإنهاك، متطلّعاً إلى يوم إجازته في الغد. بيدَ أنها أُلغيت، لخفض ساعات العمل، ووصل به الحال إلى هنا مغرّقاً بالمطر، مساهماً في حملة البحث عن طفلة مفقودة. قيل لهم إنها، من الجائز، تعمّقت بالغابة وضلّت الطريق أو سقطت وجُرحت، أما ما يدور بأذهان الجميع، هو أنها اختطفت في طريق

العودة من المدرسة، وجاؤوا إلى الغابة للتنقيب عن جثتها. مع ذلك، يصيح قادة الفرق من وقتٍ لآخر باسمها طوال الليل.

لا يرغب في شغل باله بأمر آفيري وولر. يحاول تشتيت نفسه متفكرًا بمستقبله. سيرحل دون شك العام القادم عن هذا المكان، سيذهب إلى الدراسة بالجامعة. يتضاعف توقه للرحيل عن ستانهوب يومًا بعد يومٍ.

يتحرك معه أبوه الخبير ضخّم الجسم، إلى جانبه الأيمن، ويصبره الحال. يتساءل عمّا يدور بذهن أبيه وهو يدقق النظر حوله ماسحًا بكشافه مرارًا، مركزًا على مهمته. التجهم بادٍ عليه أكثر من حاله في المنزل، بالإضافة إلى تشبُّهه بقناعاتٍ دون تفكيرٍ. الكل هنا متجهّم. الوضع بالخارج تحت المطر البارد كارثيٌّ، ليس كمثّل أن يُتابع على التلفاز.

لم يُعدّ وأبوه مقربين من بعضهما كما السابق. تضاعل قربهما مع الأيام، لم يُعدّ بينهما ما يتشاركانه بعد تعلّم ركوب الدراجة، والتخييم، ولعب كرة السلة. لا يُمضيان أي وقتٍ برفقة بعضهما. بينما يوجّه مصباحه نحو الأرض الرطبة، يدرك أن انشغالهما بالبحث عن آفيري هو أول ما يجمعهما منذ عهدٍ بعيدٍ. أمه قلب عائلته، يعي الكل في المنزل ذلك، أما أبوه، فيعيش على الهامش، موجودٌ وغير موجودٍ. أبوه، في معزلٍ عنهم، بيدّ أن راين مبتعدٌ عن أمه في الآونة الأخيرة أيضًا. تصدّعت علاقته بوالديه، يعلم أن تصرفاته هي السبب. لم ينشأ الابن الذي ظنّا أنّهما ربياه صغيرًا.

تقعد نورا أمام التلفاز في غرفة المعيشة، تترقب في قلقٍ والليل يرخي سُدوله. لا أخبار جديدة عبر الإنترنت ولا عبر النشرات، وكل ساعة تمضي ذعرها يتفاقم. تتحرق بشدةٍ إلى العثور على آفيري بخيرٍ وسلامةٍ. تتصور زوجها وابنها وهما يجوبان أنحاء الغابة تحت المطر البارد. يا ترى سيُعثَر عليها؟ هل سيستمر البحث بالخارج طوال الليل؟ من المحتمل أن الطفلة محتجزةٌ في مكانٍ ما، أو ماتت منذ مدةٍ. يضرب رأسها الدوار، ويستبدُّ بها القلق على ويليام، ليتها ما أخبرته أن ما بينهما انتهى. من أين أنتها تلك الصلابة، وانسلخت منها في الحال؟

لا تجرؤ على مراسلته. تفكر بشأن هاتفها الآخر، السري، المخبأ بحرص خلف فتحة التهوية بغرفة النوم التي تتشاركها مع آل. لا ينبغي لها التواصل معه، ليس في الوقت الراهن. أفراد الشرطة في منزله، لا جرم سيجدون هاتفه. سينقلب الوضع من مسألة فقد ابنته إلى أخرى ستشملها. يجب عليها أن تستجمع شتات نفسها وتفكر كيف ستتعرف. سيكتشف أمرهما! يزداد التوجس بذهنها قسوةً.

تُقدِّم على فعل ما لا تفعله إلا نادرًا. تجثو على ركبتيها وتدعو، من أجل عائلتها، من أجل عائلته. تتعجب مما حدث لآفيري كأنه عقابٌ من الربِّ جزاء ما فعلته مع ويليام. ذنب الطفلة في رقبتها.

الانتظار لا يُطاق، والتوتر داخل المنزل يكاد ينطق. تروح إيرين وولر وتجيء بلا هوادهٍ بين غرفة المعيشة والمطبخ، يقشعر بدنها كلما التقط أيُّ من المحققين هاتفه. إنَّما حتى اللحظة، لا جديد، كما لو انشقت الأرض وابتلعته. انتهى تفتيش المدرسة تفتيشًا عميقًا، ولم يُعثَر عليها. كما أبلغ الفريق المُرسَل إلى بيت الشجرة أن لا دليل ملموس على وجود آفيري، أو أي أثر لتصرفاتٍ مشينةٍ، لذا لا يُمكن اعتباره مسرحَ جريمةٍ.

لم يزل مايكل مذهولًا. بذلتُ قصارى جهدها لتهدئته، لتهدون عليه ألمه، رغم ضيقها الشديد منه لتركه أخته تعود من المدرسة بمفردها ذات مرة، وكذا أخبرها عن المفتاح. كاد قلبها ينقطع نبضه حين أطلعهم على ما فعل. لم يسعها سوى طمأنته أنه ليس مخطئًا. لا يمكنها لوَّمه، أنَّى له معرفة ما قد يحدث؟ لكن وضعه صعبٌ. قد تُنقَّص إنسانيتها، إن لم ينشغل فكرها بما لم يحدث: ماذا لو لم يفعل ابنها ما فعله؟ لوجد أخته في انتظاره على المقعد عند صف الكورال. عساها معهم بهذه اللحظة، بدلًا من هذين المحققين. إنَّما لا يجدر بها التفكير على هذا النحو. تتمنى أن يدعم ويليام ابنه ولو ظاهريًا، رغم الصدمة البادية عليه.

تقعد على الأريكة، ترقب زوجها من كثبٍ، مُحمِّلًا إلى الظلام خارج نافذة الغرفة، منهار الأعصاب. فيما وراء ما يساورهما من هلعٍ عنيفٍ وموجعٍ بسبب آفيري -أين هي؟ ماذا جرى لها؟- يضطرم دُعرٌ آخر: ماذا سيحدث إن لم تظهر في وقتٍ قريبٍ؟ إلى ماذا سيؤول حالهم حينئذٍ؟ سينصبُّ تركيز المحققين عليهما، سيُزيحان كل طبقات الحماية التي أقاما عليها هذه العائلة، سيكشفان عن وجههما الحقيقي. لن ينجو ويليام بالأخص.

ينهي بلدسو مكالمهً أخرى، يرمق جالي في إشارة ذات مغزى، ويطلب من ويليام أن يأتي ويقعد مكانه. يتخبَّط قلبها، لديه خبرٌ ليبلغهما إياه. يمثل ويليام ويرتمي على الأريكة في إنهاكٍ واضح. حالته مزريّة. تبدو مثله حتمًا، تشعر كأنما هَرمَتْ منذ اتصال ابنها معها هاتفياً في عملها، بعد ظهيرة اليوم. يقول المحقق بهدوء: «صرنا نعدُّ منزلكما مسرح جريمةٍ محتملاً». تحدّق إليه في محاولةٍ لاستيعاب ما يرمى إليه. تتساءل ناظرةً إلى جالي: «ما الذي يعنيه؟».

يوضح: «بين أيدينا تقريرٌ يفيد بقضاء آفيري النهار بأكمله في المدرسة، وفقاً لأقوال الشهود. عُوقِبَتْ في ساعة الغداء وشُوهِدَتْ بِفصلها خلال اليوم الدراسي كله. لا يُعقَل أنها عادت إلى المنزل وتركت سترتها خلال أي ساعةٍ باليوم، إلا بعد دوام المدرسة، أي بعدما تركت صف الكورال في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، وعادت في الرابعة وخمس دقائق تقريباً».

يقول ويليام بصبرٍ نافذٍ: «نعلم ذلك. عادت إلى المنزل، واستخدمت المفتاح المخبأً تحت ممسحة الأقدام، دخلت ثم خرجت ثانيةً ونسيت سترتها. بعدئذٍ اختطفها شخصٌ ما».

تملّكه الارتباك على نحوٍ لافتٍ للنظر.

يقول بلدسو: «هدّئ من روعك، يا دكتور وولر».

تحدّق إلى زوجها في خوفٍ.

يتابع المحقق على حذرٍ: «الأمر هو.. نعتقد أن آفيري لم تُكن وحدها اليوم بعد عودتها من المدرسة».

تتساءل إيرين وقد غثت نفسها: «عمّ تحدثتان؟».

تجيبها جالي: «نُرجّح أن أحدهم رافقها هنا في المنزل، اليوم بعد الدوام المدرسي».

تضيف: «لهذا سنضطر إلى اعتبار منزلكم مسرح جريمة، وسنستدعي فريقاً من التحليل الجنائي لمسح المنزل بوجهٍ شاملٍ في أسرع وقتٍ ممكنٍ. نحتاج إلى تعاونكما».

بُهِتَت إيرين. تسأل: «لماذا؟».

سكنت حركة زوجها، الجالس جوارها، تماماً.

يُجيب المحقق: «لأن سترة آفيري علّقها شخصٌ غيرها على الخطّاف العلوي؛ ما أمكنها الوصول إليها وحدها».

تندفع الدماء إلى رأسها، فيصيبها الدوار. إنهما محقان، كيف غفلت عن ذلك؟ السترة معلقة على خطّافٍ بالصف الأعلى. تستخدم ابنتها دوماً خطاطيف الصف الأدنى، حيث تطالها يدها.

تسأل: «لكن، مَنْ بوسعه الدخول إلى المنزل؟».

شارفت على الجنون، مُحالٌ أن ما تشهده حقيقيٌّ. تحدّق إلى المحقّقين ثم تلتفت نحو زوجها، الذي اصفرَّ وجهه.

تلمّح جالي: «لا تُعدّ ممسحة الأقدام أنسب مكان لإخفاء مفتاح. إذا أراد شخصٌ ما التسلل، أول ما قد يطرأ بباله هو ذاك المكان. من الجائز، ترصد شخصٌ ما آفيري، رآها تعود وحدها وتستخدم ذلك المفتاح لتدخل منزلاً، من المفترض أنه خالٍ».

تستطرد: «ما زال المفتاح تحت الممسحة. سيودّ الفريق الجنائي فحصه». يزداد توتر زوجها إلى حد طقطقة أصابعه، يكاد ينتفض من هول الدُّعر، على ما يبدو.

تهمس إيرين وهي تقاوم شعورها بالغثيان، مدركة مدى سهولة أن يُختطف طفلٌ: «رباه! رباه!».

إذا خيّل إليك أنك بذلت أقصى جهدك لتحفظ أطفالك، فاعلم أنه ليس كافياً. العالم موحشٌ، يملؤه الشر. وقد مسَّ أسرتها، حتى شقَّ عليها التنفس.

يفترض المحقق: «أو.. دعتُ شخصًا ما للداخل».

يسأل ويليام، والاضطراب لم يبرحه: «مثل مَنْ؟».

تردُّ جالي: «شخصٌ غريبٌ، أو صديقٌ للعائلة. والد زميلٍ بالدراسة، أو أي أحدٍ آخر».

يعتريها الارتجاف أكثر من ذي قبل. ألم يكفِها تصور بشاعة اختطاف ابنتها في طريق العودة من المدرسة. بات الأمر.. يفوق الاحتمال.

تضغط جالي: «هل يُستبعد؟ لا أثر لأي دخولٍ عنوةً».

تبتلع إيرين ريقها، تجاهد حتى تركز.

- لا أدري، إنَّما إذا رُنَّ الجرس قد تفتح الباب على الفور. لن تأخذ وقتًا حتى تستوعب وجودها وحدها في المنزل. لا شيء يخيفها.

وإذ تنخرط في البكاء لأن ابنتها بهذه اللحظة خائفةً بلا ريب.

يقول المحقق: «مع الأسف، ليست لديكما كاميرا في شرفة المدخل».

تحسُّ بزوجها يلف ذراعيه حولها، وهي تنتحب.

تسأل جالي: «هل أبدى أي أحدٍ اهتمامًا ما بابنتكما: شخص يحوم حول المنزل في الفترة الأخيرة، أو عرض عليكما إتمام مهامٍ غريبة، أو ما شابه؟».

تكتم نحيبها محاولةً التفكير، بيدَ أنَّ ذهنها متذبذبٌ، عاجزٌ عن العمل. تنفض رأسها مغلوبةً على أمرها. تنظر إلى زوجها طلبًا للعون، لكنَّ يتراءى لها غارقًا في الهم مثلها.

تسأل جالي: «هل تحضر ابنتكما أي دروسٍ خاصة، في البيانو، أو في أي هوايةٍ أخرى؟ هل تواظب على أي أنشطةٍ لا مدرسية؟».

تردُّ إيرين: «لا، تحضر صفَّ الكورال فقط. لم ترق لها أي أنشطةٍ أخرى».

يقول بلدسو: «يتعين علينا إعادة التحقيق كله من جديد، مع الأصدقاء، أفراد العائلة، الجيران، الأقارب، وأي أحدٍ يعرفكم، حتى لو بصورةٍ سطحية. يُرجَّح أن ابنتكما اختُطِفت، وحين يُختطف طفلٌ، فإن المختطفَ في غالب الأحيان، شخصٌ مألوفٌ للعائلة. قد تأخذكما الدهشة عندما تعرفانه».

الفصل السابع

يستأذن ويليام ليذهب إلى الحمام. رغم وجود حمامٍ صغيرٍ للزينة بالطابق الأرضي، يفضل الصعود للأعلى. يستشعر أعين المحققين مسلطةً على ظهره منصرفاً. يتخذ طريقه عبر ردهة الطابق العلوي، يوصد باب الحمام بالقفل خلفه. من فوره ينحني إلى المرحاض ليفرغ ما بجوفه. يلبث على حاله، مغرقاً في عرقه، متمنياً الموت. تتراءى ابنته آفيري الصغيرة بخياله، ليس كما رآها آخر مرة، بل مبتسمةً وسعيدةً، فيبكي بصمتٍ. بعد هنيهة، يجاهد ليستقيم على قدميه، يطرد الماء في المرحاض، يُسِيل الماء البارد على وجهه ويغسل يديه. لا يطيق النظر في المرأة؛ يمقت نفسه.

يَحْسُن به تقرير ما سيفعله.

السترة اللعينة!

أوقعتها آفيري على الأرض وعلّقها في خضم ترتيب المكان على نحوٍ تلقائيٍّ، ومحاولته معرفة سبب عودتها إلى المنزل بمفردها. نسي أمرها كلياً حتى وجدتتها المحققة. أُمست الشرطة متيقنةً من وجود شخصٍ ما معها وقتئذٍ، وأضاع كل الفرص للبوح بأنه ذلك الشخص. أما الآن، إذا أخبر المحققين بوجوده حينئذٍ، قابلها وعلّق سترتها، وحاول إقناعهما بسلامتها عندما تركها وخرج، لن يصدقاه. لذا يتحتم عليه الاستمرار في الادعاء أنه لم يأت قط. إنمّا، أي مكانٍ سيتحجج أنه ذهب إليه؟ برح بالخارج لفترةٍ طويلةٍ

بعد ظهيرة اليوم، قابل نورا ثم جاء إلى هنا، ولا يمكنه الاعتراف بفعله أيّ من الأمرين. لم يذهب إلى عياداته وكذا المشفى، كما لا يوجد لديه أحدٌ يثبت وجوده برفقته. يا لورطته!

سيفتش أفراد الشرطة المنزل، لن يجدوا بصمات أصابع مبهمة أو ما شابه، لأنه لم يتسلل غريبٌ إلى الداخل. ستتوجه الأنظار وقتئذٍ نحوه وإيرين، أليس هذا ما يفعلونه دائماً؟ يوجهون أصابع الاتهام إلى الوالدين إذا لم يتبين غيرهما. كما لا يملك حجة غيابٍ.

لحظتها تطراً له معضلةٌ أخرى، شيءٌ سيعثرون عليه، هاتفه الخليوي مسبق الدفع. تنقطع أنفاسه هنيهة. ستُجرُّ نورا للتحقيق معهم، سيُكتشف سرهما، أسوأ مخاوفها ستتحقق. يا إلهي! أنهت نورا علاقتهما، اليوم بالذات من بين كل الأيام، كأنها حَدّست بتلك العاصفة الغاشمة قبل هبوبها. يتساءل عما سيتبادر إلى ذهنها لو أُذيع خبرٌ أن والد الطفلة المفقودة، هو المشتبه به الأول.

لا جرم أن المحققين يستغيبانه. يعتدل ويأخذ نفساً عميقاً. لم يلمحه أحدٌ -ولا حتى سيارته- داخلًا أو خارجًا من المرأب. تداهمه موجةٌ مريبةٌ من الخوف، ينبغي عليه احتواؤها. أمامه فرصةٌ سانحةٌ يدركها لتوه؛ لم يذكر أي أحدٍ حتى اللحظة أنه رآه، بتاتاً، استجوب أفراد الشرطة الجيران، عبر الشارع كله. هذه مخاطرةٌ محسوبةٌ العواقب، إنما لا مفر من خوضها. على أسوأ الفروض، يمكنه الإنكار، والطعن في ادعائهم.

يقع منزل عائلته في مطلع شارع كونوت، يمتد من جهة الشمال إلى الجنوب، بمحاذاة النهر، وينتهي إلى زقاقٍ مسدودٍ. الطريق الوحيد المتصل به هو طريق جادة «جرينلي»، ومنه إلى وسط المدينة شرقاً. تتراعى إلى الشمال من المنزل، أرضٌ غير ممهدةٍ بها بضع شجيراتٍ، تتلاقى مع أطراف الغابة التي تحوطها نزولاً حتى ضفة النهر. أنشئت المنازل على مسافاتٍ متباعدةٍ من بعضها، وعلى حدِّ علمه، لا أحد من الجيران لديه كاميرات مراقبة. ستانفورد خاليةٌ من الجريمة، بلدةٌ محدودةٌ، تتمتع بأمانٍ تامٍّ. بيدَ أنها لم تُعدّ كذلك.

ما زالت جالي في مسكن آل وولر حيث تخيم ليلةٌ عصيبةٌ ولم تثمر الجهود بما يفيد عن مكان آفيري. نُقل أفراد الأسرة إلى فندق «إكسيلسير» بوسط المدينة، للمبيت هذه الليلة، ورافقتهم الشرطة. عاد بلدسو إلى قسم الشرطة ليجز مركز العمليات، منه سيتولَّى التحقيق، وسيواصل متابعة فرق البحث والضباط بالمنطقة، وأفراد القسم الذين يفحصون سجل مرتكبي جرائم الاعتداء الجسدي.

تراقب الاختصاصيين المنهمكين في عملهم الدقيق، يبحثون عن بصمات أصابع، دماءٍ نُظِّفَتْ حديثاً، أليافٍ، شعيراتٍ، أو أي أثرٍ. بطبيعة الحال، نضح موقع الجريمة بدليلٍ مؤكَّدٍ، لكن عسى أن يحالفهم الحظ في اكتشاف المزيد. ترى أن الأجواء مرتبةٌ بدقةٍ تتعارض مع عودة فتاةٍ صغيرةٍ من المدرسة. ألم تتناول وجبةً خفيفةً؟ ربما لم يتسنَّ لها وقتٌ كافٍ، وربما الشخص الذي رافقها رتبَّ المكان ليوحى بأنَّها لم تُعدْ قط، وتغافل ببساطةٍ عن السترة الجينز. لا يفكر البعض بعقلانيةٍ عند ارتكاب جنائيةٍ. لا يسعها إحجام ذهنها عن العلاقة بين تعليق السترات ومهام ولي الأمر.

تصعد جالي إلى غرفة نوم آفيري، وهي ترتدي زوجي قفازٍ معقمٍ، وتضيء الكشاف المثبت على رأسها لتأخذ جولةً مطوّلةً. الغرفة مطليةٌ بدرجةٍ مائلةٍ للأبيض، السرير مرتبٌ بعنايةٍ ومفروشٌ بلحافٍ مزخرفٍ بألوانٍ ورديةٍ وصفراء. توجد منضدةٌ بيضاء إلى جانب السرير الأبيض، مكتبٌ أبيض صغيرٌ وكُرسيٌّ متناسبٌ معه، وصورٌ معلقةٌ على الجدران، لمسةٌ من اختيار الأم بلا ريب. يصعب الإحساس بما قد يعبرُ عن آفيري بالنظر إلى غرفتها.

تضرب الظلمة والمطر نافذة غرفة النوم، في حين تضيء الإضاءة الهادئة على الغرفة إحساساً بالدفع والسكينة. تباغتها وخزةٌ من القلق على الطفلة المفقودة؛ الليل في أواخره ولم تزل بالخارج في مكانٍ ما، بدلاً من المبيت في مسكنها متدثرةً بسريرها. تستطلع جالي الغرفة وتفتح أدراج منضدة السرير، تقلّب بحذرٍ بين محتوياتها: أقلام، أوراق، غلاف لوح شوكولاتة، مرطبات للشفاه، وتحت كل هذه الأشياء، مفكرة يومية. إنَّها من النوعية التي يُنَبَّت بها قفلٌ ذهبيٌّ دقيقٌ معلقٌ به مفتاحٌ، في شريطٍ أحمر. تخرجه كي

تتصفح له بعض الوقت. ثم تلقي نظرة أسفل السرير، وتحت حشيتة. تفتش خلف الصور، وراء المكتب وأدراج التخزين، ترفع البساط صغير الحجم عن الأرضية. تنقب عن أي دليل قد يهديها إلى فهم ما حدث للفتاة الصغيرة؛ حتى الأطفال في عمر التاسعة لديهم أسرار.

تقعد على السرير وتفتح المفكرة. الصفحات القليلة الأولى بها مدونات مقتضبة، ضعيفة الأسلوب، عن المدرسة ومعاناتها فيها. ليس لها أي أصدقاء. تذكر أنه لا أحد يحبها، عدا فتاة واحدة، اسمها جينا، وتعيش في المنزل المقابل، لكن لا يمكنها الثقة بها على الدوام. للحظة تسمح جالي لنفسها بأن يخالجها الأسف على حال تلك الطفلة الوحيدة. تنتهي المدونات بغتة، كما لو راح شغل الاحتفاظ بمفكرة يومية أدراج الرياح. لذا تنفض الصفحات لربما علق شيء بين طياتها السميكة، غير أنه لم يسقط شيء. لا أسرار بجوفها.

تسمع نورا خطوات آل راين، يدخلان من الباب الأمامي، تسمعهما يعلقان معطفيهما، يخلعان نعليهما. تطيل الالتقاء هنيهة على جانب من الأريكة في الإضاءة الخافتة لغرفة المعيشة، متخوفة مما سيطلعانها عليه. تتأمل ساعة يدها، لتجد الوقت تجاوز الواحدة بعد منتصف الليل. تعتدل جالسة وتنير المصباح.

يدلف زوجها إلى غرفة المعيشة، وترفع بصرها نحوه تتأمله، علها تلمح أنباء سارة على وجهه. غير أنه لو عُثر عليها، لهرعا إلى الغرفة لزف الخبر. تسأل إذ يدخل راين الغرفة خلف أبيه ويقف إلى جواره: «هل أفضى البحث إلى شيء؟». يهز آل رأسه.

- لا أثر لها. سيكلف المتطوعون للبدء من جديد في الصباح. تقول: «أنتما مبتلان. تتجمدان ولا شك من البرد». يوميئ كلاهما في تبرم، مرتجفين وشفاهما مزرقّة. تسأل: «هل ستعاودان المشاركة في الصباح؟».

يلقي آل نظرةً إلى ابنه.

- سأطلب إجازةً من العمل. سيقدرّون الموقف.

يوميّ راين.

- سأعاود البحث في الصباح أيضًا.

يقول زوجها: «كلانا بحاجة إلى حمامٍ دافئٍ. اسبقني يا راين».

- لا، اسبقني أنت، يا أبي.

يوميّ آل ويستدير صاعدًا الدرج، قائلاً لابنه: «سأفرغ بسرعة».

لبضع لحظاتٍ، يمكث راين برفقتها. كأنّما لديه ما يؤدُّ قوله، أو يبتغي مواساةً. إنه في الثامنة عشرة، ما زال فتىً صغيرًا. ما يجري يربكه قطعًا؛ لديه أختٌ عمرها قريبٌ من عمر الطفلة المفقودة، ترتاد المدرسة ذاتها، وتسير في الطريق ذاته إلى المنزل كل يومٍ. تخطو نورا تجاهه، لكنّه يستدير مبتعدًا.

يُرِدِف: «طابت ليلتك، يا أمي».

تراقبه وهو يصعد الدرج مجهّدًا.

الفصل الثامن

في ساعة مبكرة من الصباح التالي، تستفيق إيرين من نومٍ وجيزٍ مضطربٍ، تُذهل من وجودها في حجرةٍ غريبةٍ بفندقٍ. حينئذٍ تتذكر، ويعاودها الهم ليثقل كاهلها. تربكها احتمالية أن يستمر الحال على ما هو عليه، تستيقظ كل يومٍ مجبرةً على تقبُّل هذا الوضع الجديد، هذا الواقع المرير. لا تجد ويليام بجانبها في السرير. تتكئ على مرفقها وتراه جالسًا على مقعدٍ بالحجرة، يتأملها. يقول في نبرةٍ خافتةٍ جوفاء: «لم أُرِدْ إيقاظك».

ثم ينهض بإجهاذٍ، مُردِّفًا: «سأخذ حمامًا».

تراقبه حتى يدخل الحمام متناقل الخطى، ويرتمي رأسها على الوسادة. لم يأت إليهم أحدٌ بخبر العثور على آفيري، حية تُرَزَّق. تلتقط هاتفها من على المنضدة الصغيرة بجوار السرير، الوقت شارف على السادسة صباحًا -ابنتها مفقودةٌ منذ نحو أربع عشرة ساعة- عندها تباشر التصفُّح. غَثَّيت لما تقرأه. تشير التقارير الإخبارية إلى منزلهم بوصفه مسرحًا للجريمة، تدعمها صورٌ للمنزل بالشريط الأصفر للمواقع الجنائية، يحيط بشرفة المدخل. يا للهلاك! لا ذُكر البتة عن السترة، عن تعليقها في مكانٍ لم تَطْلُهُ يدُ صاحبتهَا، من قبل شخصٍ مجهولٍ. أخبرهما المحققان الليلة الفائتة أن هذه المعلومة مخفيةٌ، حفاظًا على سير التحقيق، وطلبًا منهما ألا يُطْلعا أي أحدٍ عليها. كما أكدا أن الأوصاف الأولى المنشورة عن الطفلة لم تتغير: ارتداؤها السترة الجينز. غالبًا

ما يدعم إخفاء المستجدات عن العامة عمل الشرطة. تُحْمَلُ في صور منزلهم المحاط بالشرائط الصفراء، ويتراءى لها أَنَّهما صرَّحا لوسائل الإعلام أن الوالدين على رأس المشتبه بهم. ثقَّتها بالمحقِّقين تنزعزع، وخوفٌ بالأفق ينمو. تسأل زوجها، رافعةً هاتفها لدى خروجه من الحمام: «هل رأيت هذه الصور؟».

يردُّ، ملقياً نظرةً خاطفةً نحو الهاتف: «نعم».
تقول مرتجفةً ساخطةً: «كيف يَجْرؤون؟!».

ينهمك في ارتداء ملابسه. يزفر بقوةً ناظرًا إليها، ويقول بجديَّة: «أرى أن نتحسَّرَ للأسوأ».

- لكنَّ، هل وصل الحال إلى وضع شرائط الجرائم الصفراء حول المنزل؟
يوحي المنظر كما لو تحسب الشرطة أننا أذيناها!
- على الأرجح هذا ما يحسبونه.

تهزُّ رأسها مرارًا.

- لا! لا يجوز لهم حتى تصويره. إنَّ ساورهم الشك تجاهنا، سيوقفون البحث عنها. لا يجب عليهم إيقاف البحث عنها أبدًا!

يُحكِم قبضته على ذراعيها، ويحدِّق إلى عينيها قائلاً: «لن ندع الشرطة توقف البحث عنها!».

لحظتها، تسمع طرقَةً مترددةً على الباب.

- هل استيقظتم؟

إنه صوت الشرطة، باتت معهم الليلة كلها بالفندق، على كرسيٍّ أمام حجرتهم، ومع ذلك، تعمَّقت بالنوم على عكسهم.

يصيح ويليام: «نعم، سنخرج في غضون دقائق».

تذهب إيرين إلى مايكل، النائِم في حجرةٍ أخرى ملحقةً بحجرتهما. تهزه ليصحو، تجذبه إليها لتحضنه.

- هيا استفق. البس ثيابك، يا مايكل، يجب أن نتحرك.

تعود إلى حجرتها وتسرع في ارتداء ملابسها. وبينما تفتح الباب على الرواق، وخلفها ويليام، إذ تلمح المحققين، بلدسو وجالي، يخرجان من المصعد متوجهين نحوهم. على وجهيهما التجهّم، ولحظتها يضربها الفزع والهلع مما سيلقيانه على مسامعهم. كلاهما بدّل ملابسه، وإذ يتقدمان، يتبين أنّهما بالكاد غفت أعينهما.

يتخطّاهما ويليام إلى الرواق، يراهما، فيسرع بالقول: «هل من جديد؟». يهزّ المحقق رأسه نفياً.

- لا، مع الأسف.

يحدّق إلى كلّ منهما ثم يلتفت ناظرًا إلى مايكل، لدى ظهوره بجانبهما في مدخل الحجرة.

- نودّ طرح المزيد من الأسئلة عليكم.

يتبادل زوجها نظرة خاطفة معها، ثم يلتفت ثانيةً للمحققين. يستوضح في جزع: «لقد أجبنا عن كل أسئلتكما مسبقاً».

يضيف بلدسو مطمئنًا: «إنّنا نبذل كل طاقتنا الممكنة لإيجاد آفيري. نرجو أن ترافقونا إلى قسم الشرطة، من بعد إذنكم».

تنفّوه إيرين ومعدتها قد تشنّجت: «ماذا تقول؟».

لا يجيبها، يرتد على عقبيه حتى يتبعوا جالي باتجاه المصعد. بيد أنّ إيرين لا تتحرك.

تسأل: «لماذا صرّحتما لوسائل الإعلام أن منزلنا مسرح جريمة؟».

يردّ بلدسو: «لم نصرّح لهم بشيء. استنبطوا وقائع من وجهة نظرهم».

يُحضّر ويليام قطعة كعكٍ وقهوة سريعة من المطعم شبه الخالي بالفندق، ويحثّ إيرين على فعل المثل، يأخذ مايكل قطعة كعكٍ وعلبة عصير، رغم أنه لا أحد منهم لديه شهية للأكل، وبقي الكعك في أغلفته الورقية. أذنّ للشرطية التي سهرت على حراسة حجرتهم، بالانصراف. لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى وجد

ويليام نفسه وزوجته وابنه في قسم الشرطة بوسط المدينة. لم يدخل قسم الشرطة من قبل، بل لم تطأ قدماه قسم شرطة بحياته، لأي حاجة على الإطلاق. هذه المنشأة يلزمها إعادة طلاءٍ، ورائحتها مزيجٌ من العرق والقهوة الفاسدة. يقود المحققان عائلته عبر بهو الاستقبال، ومن رواقٍ إلى آخر أصغر به ردهة انتظارٍ، وإذ يُقال له ولزوجته إنهما سيدخلان حجرتي استجوابٍ منفصلتين، وسينتظرهما ابنهما حيث ستُجرى معه مقابلةٌ فيما بعد، في حضور أحدهما. يتسلل إليه الخوف، ويبدأ قلبه في الخفق. يلمح خوفًا مماثلًا بعيني زوجته، والقلق والارتباك في عيني ابنه. لا ذنب لزوجته. لا يمكنهما أذية ابنتهما أبدًا، سيعي المحققون ذلك بلا شك. يُلقى نظرةٌ إلى الوراثة نحو ابنه ويتأمل وجهه المضطرب إذ يشاهد والديه يتركانه.

حجرة الاستجواب ضيقة ومضمتة، بها طاولة معدنيةٌ حولها أربعة كراسي. يقعد على أحدها بجانبٍ من الطاولة، أما بلدسو وجالي فيتخذان الكرسيين المقابلين له. يتساءل ويليام إذا ما يطلب حضور محامٍ، لكن يُساوره القلق مما قد يُوحى به طلبه.

يقول بلدسو: «لن نطيل الجلسة. حضورك طوعيٌ بالكامل، من أجل استيعاب كل الحثيات. يمكنك الرحيل متى شئت».

لا يعرف ويليام إذا ما يمكنه الثقة به.

- مفهوم، سأفعل ما بوسعي للمساعدة. ما أريده هو عثور الشرطة على آفيري. يومئ المحقق. يُرجع ظهره إلى الوراثة، مرتخيًا في جلسته.

- ولذا نودُّ أخذ بعض الإفادات. على سبيل المثال، هل يمكنك أن تُطلعنا على مكانك بعد ظهيرة أمس، قبل مجيئك إلى المنزل في الخامسة وأربعين دقيقة قبيل المساء؟ اتضح أنك لم تذهب إلى عياداتك الطبية ولا إلى المشفى، بدءًا من الساعة الثانية.

تحققًا مسبقًا. يحاول الحفاظ على صوته مترنًا: «نعم، هذا صحيح».

يسأله المحقق: «إذًا، إلى أين ذهبت؟».

فكر في ذلك، لبث الليل بطوله متفكرًا. توقع أن يسألاه عن مكانه. يتمنى لو بإمكانه إطلاعهما على علاقته الغرامية، ولا يُدلي باسم نورا. ليته يستطيع!

لكنّه لا يرغب في ذلك؛ لا يريد أن تعلم إيرين، ليس في الوقت الحالي، ولا بهذه الطريقة. بيدّ أنه يتساءل عمّا إذا عُثِرَ على هاتفه الآخر. يخفيه في سيارته، من طراز «إنفينيتي G37 سيدان»، التي تبيت في مرأب المنزل. لا بدّ وأن الشرطة نقّبتها الليلة الماضية، في أثناء التفتيش الكامل. أحد أسباب تحمسه لشراء هذه السيارة منذ فترةٍ قريبة، هي خزانةٌ داخليةٌ في مسند الذراع بالمقعد الخلفي. هل لدى الشرطة علمٌ بها؟ عسى البحث يغفل عنها! الحجرة حارةٌ للغاية والعرق يرشح منه. نظراتهما مسلّطةٌ عليه في ترقبٍ إجابته. يقول: «احتجت إلى راحة من العمل، لم تُحَجَزْ لديّ مواعيد من المرضى، ولم أطق متابعة المعاملات الروتينية».

- إلى أين ذهبت؟

- تجولتُ بالسيارة. قدتُ شمالاً على طول النهر، وتوقفت لبعض الوقت عند منطقةٍ بها منظرٌ طبيعيٌّ. أردت التفكير برويّة.

- فيمَ أردت التفكير؟

بنّاس! يردُّ: «لا شيء محدد، الحياة بوجهٍ عامّ».

يستفسر بلدسو: «كيف حال زواجك؟».

- بحالٍ جيد.

- وإذا ما سألنا زوجتك، هل ستُدلي بالقول عينه؟

لا يدري ويليام بما قد تتفوه زوجته.

- اعذرنِي، ما دخل علاقتي الزوجية باختفاء ابنتي؟

يتجاهله بلدسو، ناظرًا إلى الملف الذي فتحه على الطاولة.

- ابنتك صعبة المراس، تعاني نقصًا في الانتباه وحركةً مفرطةً، وكذا اضطراباتٍ سلوكيّة.

يرفع بصره مضيئًا: «هذه مسألةٌ لا تحتل الهزل».

يستعر غضب ويليام: «يصعب التعامل مع شخصيتها حقًا. تحدّثنا عن وضعها بكل صراحةٍ، لكن هذا لا يعني أنّنا لا نحبها، على العكس تمامًا».

يضيف في إصرارٍ: «لا نتمنى سوى عودتها».

يتابع المحقق: «خلال تلك النزهة بالسيارة، هل توقفت بمكانٍ آخر، لتحضر قهوةً، تبتاع شيئاً، تتزود بالوقود؟ هَلَّا أمددتنا ببعض التفاصيل لنستدل على المكان الذي ذهبت إليه؟».

يتبادر إلى ذهنه شيءٌ للتو، يمكن للنزل البرهنة على وجوده هناك. لم يستخدم اسمه، ودوماً ما يدفع نقدًا، إنَّما المرأة الجالسة في مكتب الاستقبال، لا ريب تميِّز ملامحه. ستتعرَّفه ما إن تُنشر صورته في الصفحة الأولى، اليوم على الأكثر. تغمره دفقةٌ حادةٌ من الأدرينالين مندفعةٌ إلى عروقه. يدرك أمرًا آخر، لا يمكن لعاملي النزل التَّيَقُّن من موعد مغادرته؛ من هول صدمته، نسي تسليم المفتاح لهم في طريق خروجه. بعدئذٍ ألقاه في النهر. بوسعه القول إنه انصرف لمَّا أتته مكالمَةُ من زوجته. اعتاد ونورا على ترك سيارتهما في الباحة الخلفية، كي لا تُلاحظها الأعين من مكتب الاستقبال. لا يدري العاملون على الأغلب في أي وقتٍ انصرف، ونورا لن تبوح بشيء. يبتلع ريقه، إنه يتأرجح على حافة مصيره.

- لا، لا يمكنني.

- هكذا إذًا، لن يدلنا أحدٌ على مكانك في الفترة الحرجة ما بين الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، حينما خرجت ابنتك من المدرسة، ووصلوك إلى المنزل في الخامسة والأربعين. تبين لنا الوضع.

عندئذٍ يميل للأمام، سائلًا: «هل جئت إلى المنزل بالأمس، وقت عودة ابنتك، يا دكتور وولر؟».

يشحد كامل قوته الداخلية ويجابه عيني المحقق بثباتٍ.

- لا. لم أعد قط حتى هاتفتني إيرين، في الخامسة والثلاث تقريبًا، ووصلتُ في السادسة إلا الثلاث. وجدتُ الشرطة قد سبقتنني لدى وصولي.

يوميئ بلدسو ناهضًا: «حسنٌ، هذا جُلُّ ما نحتاج إليه في الوقت الراهن. نشكرك على حضورك. إذا سمحت، نستأذك البقاء هنا ريثما نفرغ من التحدُّث إلى زوجتك».

الفصل التاسع

تمكث إيرين بحجرة الاستجواب متوترة الأعصاب، في انتظار بلدسو وجالي. لا تدري كم ستلبث هنا. تكاد تُجن على ابنتها المفقودة، وكل ما يجري ليس إلا إهدارًا للوقت. تخشى مما يحسبه المحققان، يعترىها القلق على ابنها الذي ينتظر وحيدًا بالردهة. إنه مجرد صبي في الثانية عشرة، سيتأذى مما يحدث، سيُصاب جميعهم بالأذى.

بعد لأيٍ، يُفَتَح الباب ويدلف منه بلدسو، تتبعه جالي. لا تدري إيرين إذا ما ستوليها ثقتها مجددًا.

يقعدان إزاءها، وإذ يقول بلدسو مبتسمًا في وجهها: «هيا لنبدأ. هذه الجلسة طوعيةً بالكامل، ويمكنك الرحيل متى شئت».

دُهِشَتْ لقوله؛ لا تُشعرها الأجواء بذلك نهائيًا. تتصور ما قد يفعلانه إذا نهضت ورحلت من فورها. يمسك المحقق ملفًا بيده، ويضعه على الطاولة، يشغلها ما بداخله. تتمنى معرفة ما أدلى به زوجها في استجوابه.

يباشر المحقق: «قلتِ إنكِ تلقيتِ اتصالًا من ابنكِ في مكتبكِ بالأمس، في الرابعة وخمسين وخمسين دقيقة».

إذا فالشرطة ترتاب بهما. تحسُّ بهلع يتصاعد داخلها. هل يبذلان جهدهما في سبيل العثور على آفيري، أم لإلصاق الاختفاء بوالديها؟
- نعم، هذا ما حدث.

- هل رافقك أحدٌ في تلك الأثناء بالمكتب؟

تومئ بالإيجاب.

- نعم، يمكن للعديد من الناس الشهادة لصالحني أنني قضيت فترة ما بعد الظهيرة كلها هناك، حتى انصرفتُ في الخامسة تقريباً.

عساه إجراءً روتينياً، خطوةً عليهما اتخاذها، ومن بعدها سيستأنفان البحث عن ابنتها.

يقول بلدسو: «هذا جيد».

يسكت هنيئاً، ثم يواصل: «لا يقدر زوجك على الإدلاء بحيثيات وجوده وقت اختفاء آفيري».

تنذهل إيرين. افترضتُ أنه بعمله وقتئذٍ. إلى أين ذهب؟

تتساءل بصوتٍ واهنٍ: «كيف ذلك؟!».

يركز بلدسو ناظريه عليها.

- حسب قوله، خرج في جولةٍ بالسيارة، من الساعة الثانية تقريباً حتى اتصلت به في الخامسة وعشرين دقيقة. ولا يوجد مَنْ يؤكد مكان وجوده.

لم تتوقع ذلك قط، تعجز حتى عن مداراة صدمتها. تحسُّ بخدرٍ غريبٍ يزحف داخلها.

يسألها المحقق: «ألديك أي فكرةٍ عن مكانه في تلك الفترة؟».

تنفض رأسها.

- ما دام قال إنه خرج في جولةٍ بالسيارة، فقد فعل.

على الرغم من هواجسها التي تدور بلا هوادةٍ، ومعدتها التي تشنجت.

يلق بلدسو: «لكنّها نزهةٌ طويلةٌ بالسيارة».

تقول: «لديه اهتمامٌ كبيرٌ بسيارته الجديدة».

يسألها: «كيف تصفين علاقتكِ بزوجكِ؟».

- جيدة.

يطيل التحديق إليها، مما يضايقها، كأنما يدفعها للبوح بشيءٍ. لن تتشارك معها أي تفاصيل تخص حياتها الزوجية. لا شأن لهما.

- أقصد، نواجه أيامًا سعيدةً وأخرى عصبيةً، مثلنا مثل أي زوجين، إنَّما علاقتنا مستقرة.

- وكيف العلاقة بين زوجكِ وأبنائكِ؟

تصرُّ على موقفها.

- إنه أبٌ مثاليٌّ.

- هل فقد أعصابه أمامهما قبلاً؟

تلتفت ناظرةً إلى جالي. لمَ لا يسمح لها بطرح أي سؤالٍ؟ بلدسو عنيفٌ ومزعجٌ. تجيبه بحذرٍ؛ لا يُريحها مسار الأسئلة: «يفقد أعصابه أحياناً، ويحدث لي مثله. أي وليٍّ أمرٍ يفقد أعصابه. أليدك أبناء أيها المحقق؟».

ينتابها الذعر من فورها. ماذا قال ويليام؟ بمَ اعترف؟ لماذا لم يتحسَّبا لهذا الموقف وتناقشا حوله قبل المجيء إلى هنا، حينما أُتيح لهما المجال بحجرة الفندق؟ ومايكل سيستجوبانه أيضاً. يا له من وضعٍ مروّعٍ لحصار صبيٍّ، أسيكذب على الشرطة لحماية والديه؟! تشعر بالحجرة تدور من حولها.

- أفاد زوجكِ أنه لم يعد إلى المنزل بعد ظهيرة أمس.

تعلق: «لم يفعل طبعاً».

- إن فعل، سنعرف.

تصرُّ، والهلع يشوب صوتها: «لم يفعل، حضر شخصٌ آخر إلى المنزل. أتى شخصٌ ما حتماً وسمحتُ له بالدخول، ثم اختطفها. عليكم العثور على أفيري!».

توجَّه نظرتها المذعورة إلى جالي، فتلاقي عينيها في تعاطفٍ.

يقضم مايكل أظافره منتظراً وحده بالردهة. قاوم هذه العادة منذ فترةٍ قريبة، غير أنَّها عاودته بشراسةٍ الليلة الماضية. لا يأبه؛ عالمه ينهار. آخر لحظةٍ سعيدةٍ عاشها بحياته كلها قد تنحصر في ثناء المدرب عليه بتمرين كرة السلة يوم أمس.

مرتعبٌ على أخته. يعلم أنَّها غصَّةٌ بالحلُق وتُدفعهم إلى الحنق أحياناً، إذ تفتعل المشكلات ليحتدم الجدل بين والديه. لطالما فعلتْ منذ أبعد زمنٍ يتذكره. ترسَّخت بذكرته أول مرة يُوسَّعُها أبوه ضرباً. انتابتها حالة هياجٍ في عمر السادسة، لأنَّها لم تجد الكوب الذي تفضُّله عند تناول العشاء. نهضت أمه عن المائدة لتجلبه من غسالة الأطباق، وتغسله لها، حتى تسكن ثورتها. انفعَل أبوه، ارجعي إلى مقعدكِ، يا إيرين. كُفِّي عن الفرع لتلبية أَيْما تطلبه. **إنكِ تدلِّينها!** التفتت ناحيته آفيري صارخةً، **أنا أكرهكِ!** ودفعت المائدة بقوةٍ شديدةٍ حتى انسكب كل ما عليها. لطمها على وجهها، وساد الهدوء. لكنَّه هدوءٌ لم يدُم، إذ انخرط والداه في جدالٍ عنيفٍ. بكى مايكل، أما آفيري، على الرغم مما أصابها، بدا عليها الاستمتاع بالفوضى التي سببتها.

بيدَ أنه لا يتحمل تصورها وحدها بمكان ما. مضت عليها ليلةً بطولها، لا بد أنَّها مذعورةٌ، وربما أُصيبت. يلمُّ به جزعٌ لا يستطيع نفضه عنه. لماذا لم يُعثرَ عليها بعد؟

هذه غلطته. لو لم يُرسلها إلى المنزل بمفردها في ذلك اليوم، لو لم يُطلعها على مكان المفتاح، لو وجدها في انتظاره البارحة، لذهباً إلى المدرسة معاً اليوم، وأمضياً نهاراً عادياً. إنَّما على النقيض، عائلته في صدمةٍ، وهو جالسٌ بمخفر الشرطة، إذ يستجوب المحققان والديه. سيُستدعى بعدهما يصاب بالغثيان على ذكره. ماذا يريدان معرفته أكثر مما باح به؟ أخبرهما بما حدث. قال إنه نادماً. يتمنى لو يعود إلى ذلك الوقت ولا يكرر ما فعل. لكن لا يمكنه، وأخته الصغرى صارت مفقودةً.

يصل إلى سمعه بابٌ يُفتَح في آخر الرواق، وبعديئٍ تظهر المحققة أمام ناظره. انتهاء من استجواب أمه، وحبان دوره. يتسرب إليه رعبٌ مُثبِّطٌ مثلما تحيَّن عليه إلقاء خطابٍ العام المنصرم بحفلٍ مدرسيٍّ، إنَّما هذا الوضع أسوأ بكثيرٍ.

تقول له جالي، بصوتٍ حنونٍ مبتسمةً له: «بتنا مستعدِّين لتكلم معك، يا مايكل. تعالَ معي، لننضم إلى والدتك».

يتبعها داخلاً إلى حجرةٍ صغيرةٍ ويرى أمه جالسةً إلى طاولةٍ أمام المحقق بلدسو. تقف فيهرع إليها. تحيطه بذراعها وتطبع قبلةً على رأسه. فيما بعد،

سيطلب منها ألا تفعل ذلك مجددًا، لم يُعد ولدًا صغيرًا، غير أنه بحاجة إلى كل ما تمنحه من طمأنينة الآن.

يطلب منه المحقق: «اتخذ مقعدك. لن يطول الأمر، يا بني. استرخِ».

يقعد بجانب أمه، ويومئ بصمتٍ. لا يرغب في إغضاب أحدهم.

يسأله: «عندما عدت إلى المنزل البارحة، بعد تمرين كرة السلة، هل رأيت والدك؟».

جفل الصبي. يحسُّ بأمه تبيّست حركتها إلى جواره، كما لو تُشفق من إجابته. يلتفت إليها، ليجد نظرها موجَّهًا للأمام نحو المحققين.

يقول بلدسو، ملطفًا الموقف: «لا لوم عليك، إذا ما أردت تغيير أقوالك.

لا نريد غير الحقيقة. هل بإمكانك ذلك؟ هل بوسعك إطلاعنا على حقيقة ما جرى، يا مايكل؟».

أمه جامدة متجهمةً بجانبه، ولا تنطق بكلمة. يزدرد ريقه في اضطرابٍ، ويخرج صوته حادًا أجشًا: «لا، لم أره. لم تسألني هذا؟».

- هل تدري إذا ما جاء إلى المنزل قبل وصولك؟

ينفض رأسه نافياً في حيرةٍ من أمره. يشتبهان بأبيه، يحسبان أنه فعل شيئاً بأخته. عالمه ينحرف عن مساره. يُرِف: «لا. لم أره، أقسم لكما. لم أجد أحدًا قط. كان المنزل خاليًا تمامًا».

يقول المحقق: «حسنٌ».

وبعد هنيهةٍ يضيف سؤالاً: «هل حرَّكت أي شيءٍ من مكانه في المنزل، يا مايكل؟ رتبت أشياء بالأحرى؟».

- ماذا تعني؟

يرمق أمه ثانيةً، تبدو مرتعبةً ومتألِّمةً. يعيد انتباهه إلى المحقق ويقول، بنبرةٍ تميل للحدة: «لماذا توجَّه إليَّ هذه التساؤلات؟ لم أفعل شيئاً!».

- اطمئن، يا مايكل، لك كل الحق، إنَّما من واجبنا التساؤل، فهمت؟

يُرجع بلدسو ظهره إلى الورا متابعًا: «أستنبط من هذا أنك لم تعلق السترة الجينز التي تخص آفيري، صحيح؟».

- بلى، لم أفعل.

- يقول الحقيقة. لم يعلق تلك السترة، لم يرتب أي أشياء، ولم يرَ أباه. أطلعهما على الحقيقة، ولا يبدو عليهما التصديق.
- يسأله المحقق: «كيف تصف والدك، يا مايكل؟».
- يقلق الصبي، يحسبان أباه السبب باختفائها. مخطئان! لم يكن أبوه في المنزل، هذه هي الحقيقة كما أخبرهما.
- عندئذٍ يجيب: «إنه رائع. هو أب رائع».
- هل انفلتت أعصابه عليك من قبل؟
- يهزُّ رأسه ببطء.
- لا.
- يتقرب المحقق ليبوح له بالمزيد. لا يؤدُّ النطق بأي شيءٍ أكثر مما قال، يتمنى أن تتوقف هذه الأسئلة.
- هل انفلتت أعصابه على أختك من قبل؟
- لا يقوى على النظر إلى أمه، لا يمكنه التحمل، لا يدري بما يجيب. يشعر بالوقت يمر، حتى أوحى صمته بالإجابة التي ينتظران، وفات الأوان.
- ماذا يفعل حينما تنفلت أعصابه على أختك؟
- يبتلع ريقه، مجيباً: «يصرخ في وجهها غالباً».
- يوميئ بلدسو ببطء.
- هل ضربها يوماً؟
- ليس بالضبط.
- قولك لا يفيد النفي ولا الإيجاب، يا بني.
- في بعض الأحيان، يلطمها على الوجه لتهدئتها.
- يكرر بلدسو: «لتهدئتها!».
- يقول مايكل، دفاعاً عن أبيه: «استحقت ذلك».
- تتحرك أعين المحققين منصبةً على أمه.

الفصل العاشر

تخرج جالي من حجرة الاستجواب في إثر بلدسو، إيرين ومايكل، والصمت يشملهم. انتهى المطلوب حتى الآن. ما كُشف عنه خلال تلك اللقاءات القصيرة يثير القلق. الأب لا يملك حجة غياپ، حاد الطباع، يترك أعصابه تنفلت على ابنته مضطربة السلوك، مشهودٌ عليه لطمها عدّة مرات. مما نتج عنه خلافٌ بين الوالدين، وإتلافٌ لعلاقتهما الزوجية، وهو ما اضطرت الأم إلى الاعتراف به، على مضض.

أثبت زميلها أنه مستجوبٌ أفضل مما ظنّت، انبهرت بأدائه. يمكنها الجزم بأنه يحسب ويليام وولر الحق الأذى بابنته. احتمالٌ معقولٌ، ومع هذا، تتوجس من بلدسو وبنائه لفرضيته وفق رؤيةٍ محدودةٍ، دون أخذ احتمالاتٍ أخرى بالاعتبار. شهدت الأمر عينه يحدث، لمحققين آخرين عرفتهم. يسترعي الأمر انتباهها حتى لا تتكرر تجربتهم هنا.

تنزل نورا إلى المطبخ لتجد زوجها وابنها يتناولان الفطور ويحتسيان القهوة. هي أول من يستيقظ عادةً وينزل إلى الطابق الأرضي، لكنّها أطالت النوم هذا الصباح. شهدت أغلب الليلة الفائتة، تحاول النوم حتى جاءها في أحلك ساعة قبيل الفجر.

تصبُّ لنفسها قدحًا من القهوة من إبريق الزجاجي.

تقول: «صباح الخير».

يردُّ كلاهما في مهمةٍ متحشجةٍ.

يفتح آل حاسوبه النقال بجانبه على مائدة المطبخ، في حين يتصفح راين هاتفه. لا تسمح بالتكنولوجيا وقت الطعام، إنما الحال اليوم مختلفٌ. تودُّ تصفح هاتفها مثلها لكنها لا تستطيع، وإلا بانت لهفتها، كما يعلمان امتناعها التام عن استخدام الهاتف قبل تناول الفطور. لا تدري كيف تتصرف، ومدى الاهتمام المناسب إظهاره.

تأخذ رشفةً من قهوتها، وتسال سريعا وهي تقعد إلى جوار زوجها، إذ اقترب موعد استيقاظ فايث: «ما آخر الأخبار؟».

يرفع بصره نحوها.

- لم يُعثر على الطفلة.

ينقبض قلبها. يُردف: «اعتبرت الشرطة منزل وولر مسرح جريمة».

- ماذا؟!

- انظري بنفسك.

يقرب منها الحاسوب. يؤلمها منظر الشريط الأصفر الملتف حول شرفة منزل ويليام، وما يحمله من دلالة. لا تفاصيل أخرى، إلا أنَّ الشرطة لم تعد تظن ابنة ويليام اختُطفت في طريق عودتها من المدرسة. ترتجُّ الهواجس بعنفٍ في ذهنها. هل انسلَّ شخصٌ ما إلى منزلهم واختطفها؟ أمرٌ لا يُعقل. لم تشهد بلدتهم حادثة كهذه من قبل.

تقول في بلاهة: «لا أفهم».

- الوضع في غاية الوضوح. تحسب الشرطة أن حادثة وقعت للطفلة في المنزل. أغلب الظن، يُعتقد أن والدها هو الفاعل.

تحذق إليه في عدم تصديق، قائلة: «محض هراء!».

- محض هراء؟!

النظرة التي يوليها إياها تعجز عن تفسيرها.

من فوره ينظر راين ناحيتهما، فتتحرك نورا من مكانها لتضع الخبز في المحمصة. ما تفعله مجرد إلهاء، لا تعرف كيف ستهضم ما تحضره في غياب شهيتها.

ينهض آل وراين، ويستعدان لمعاودة التنقيب عن الطفلة، مكفهري الوجه، مرهقين، بلا حماسٍ مماثلٍ للبارحة. تنتظر بفارغ الصبر لحظة مغادرتهما. ما إن يخرجوا من الباب، تتصفح حاسوب زوجها بحثًا عن أي أخبارٍ أخرى، لا جديد. تتفكر فيما ذكره آل، تتساءل إذا ما تعتبر الشرطة ويليام مشتبهًا به. ألا يُشتبه بالوالدين دائمًا عند وقوع أي حدثٍ لأبنائهم؟ تجتاحها رجفة من الخوف. إنه طبيبٌ، ذو قدرٍ رفيعٍ على مستوى بلدة ستانهوب، معروفٌ ومحبوبٌ. من المستبعد أن تراه الشرطة قادرًا على إيذاء ابنته.

لا يمكنها نفخ شعورها بالذنب، إنهما يُعاقبان على ما اقترفاه. لا جرم سيعثر أفراد الشرطة على هاتف ويليام السري، مما يرعبها. سيفعلون حتمًا، أم أنهم وجدوه بالفعل، ما دام المنزلُ عُدَّ مسرح جريمة. لذلك آثارٌ مدمرة، ستنال نصيبها من الخراب. ستتحطم وعائلتها. لحظتها يكتنفها الخجل؛ ذهنها مشغولٌ بتأثير ما يجري على حياتها، في حين أن فتاةً صغيرةً فُقدت وربما ماتت.

تأهب بيدين مرتجفتين من أجل مناوبتها التطوعية في المشفى، ريثما ترتدي فايت ملابسها للذهاب إلى المدرسة، سيتأزم الوضع بها حتمًا. ستتكاثر الدموع بالمدرسة اليوم، قد يتوفر دعمٌ إضافيٌّ لزملاء آفيري الأصغر سنًا، لمساعدتهم على تجاوز الأزمة.

بالعادة، تذهب فايت إلى المدرسة بمفردها سيرًا على الأقدام، إنما اليوم، سترافقها السير. تتمنى أن تمسك يد ابنتها كما اعتادت في صغرها، لكن تكبت رغبتها. تمرّان من أمام منزل عائلة وولر في بداية الشارع، حيث الحضور للشرطة كثيفٌ، شريط المواقع الجنائية ملثفٌ، والستائر مُسدلة. يسرح ذهنها إلى ويليام وزوجته بالداخل، تتفكر بحياتهما التي انهارت أمام ناظريهما. هل يا ترى تخطُرُ على باله؟

قبيل التاسعة صبيحة الأربعاء، وحالما فرغ جالي وبلدسو من استجواب آل وولر، يصحب شرطيُّ أفراد الأسرة إلى الفندق لجلب متعلقاتهم، إذ أوشك الاختصاصيون الجنائيون على إتمام عملهم في المنزل، وبإمكانهم العودة. لديهم بصماتُ أصابع جاهزةٌ للفحص، بيدَ أنَّهم لم يجدوا ما يثير الاهتمام، لا دليل على تعرض الطفلة للأذى، لا أثر لدماءٍ نُظِّفَتْ بتعجلٍ. كما نُقِلَت سيارة الأب إلى المختبر الجنائي، وترُكَّت سيارة الأم مكانها. تأكَّد لهما وجودها بعملها حتى أتاها نبأ اختفاء آفيري. يَحسُن بهما التمسك بالأمل في العثور عليها بأقرب وقتٍ، على قيد الحياة، رغم تناقص الفرص المحتملة مع كل ساعةٍ تنقضي. أمرٌ محببٌ والبحث عنها لم يُفِضْ إلى شيءٍ، حتى فُرق كلاب الاستطلاع عادت خاليةً الوفاض.

يقول بلدسو: «يتوجب علينا النظر في احتمالية أنَّها قُتِلَت داخل المنزل - مختنقةً باليد أو بالتكليم- وأفضل طريقةٍ للتخلص من جثتها دون مجازفة الجاني بلفت الأنظار له في وضح النهار، هي باستخدام المرأب، يخفيها في صندوق السيارة وباب المرأب موصد. يُقفل المرأب ويُفَتَح أوتوماتيكياً، إذا فالوحيدان المُرَجَّح أنَّهما قد يفعلانها، هما الوالدان، وبين أيدينا حجة غياب الأم». تومئ جالي ببطءٍ. احتماليةٌ معقولةٌ جدًّا، الأب قتلها وتخلَّص منها بتلك الطريقة. تقول: «لو أنَّها أُخِذَت في صندوق سيارةٍ وأُلْقِيَت في الغابة، لوجد فريقنا أي أثرٍ».

كذا لم يتوصَّل الضباط المخوَّلون بالتحري في المنطقة، إلى أحدٍ شاهدَ سيارة وولر تدخل أو تخرج من المرأب. لم يلمح الجيران شيئاً بعد ظهيرة البارحة. لم تُرَ آفيري في طريق عودتها من المدرسة، أو قُرب المنزل -وحدها أو برفقة شخصٍ- نهائياً. لا كاميرات مراقبة في مداخل المنازل، لا كاميرات بتقاطعات الشوارع التي تؤدي إلى منزل آل وولر. لم يُلْمَح أي شخصٍ يحوم حول المنزل أو المنازل المحيطة، ولا حتى مركبة غريبة عن البلدة. لم يثمر خط البلاغات الذي أنشئ البارحة بعد. لو أُخِذَت الطفلة في سيارةٍ، فيُحتمَل

أنّها بأيّ مكانٍ في هذه اللحظة. نُشِرت أوصافها في الولاية كلها، وعلى مستوى البلاد. الكل يتربّح ظهور آفيري وولر.

نسّقًا بالاتفاق مع الوالدين توجيهَ مناشدةٍ، عبر الإذاعة التلفزيونية. سيستدعيانها ثانيةً إلى قسم الشرطة من أجلها ظهيرة اليوم. لعلها تؤتي ثمارها. هذا ما نرجوه، ما دام لا دليل توصّلًا إليه بعد، عدا الشك بوالد الطفلة المفقودة.

يستشعر ويليام التوتر المتفاقم بينه وبين زوجته وابنه. اتضحت معالمه في ظل الصمت بسيارة دورية الشرطة في طريق عودتهم إلى الفندق. لدى وصولهم، يطلّب من مايكل أن يجمع أشياءه من حجرته؛ يودُّ التحدّث إلى إيرين دون وجوده بالجوار.

ما إن يدخلها الحجرة، يلتفت نحوها خافضًا صوته، كي لا يصل إلى ابنه في حجرته الملاصقة لهما، يتساءل: «بِمَ بُحِتَ لهما؟».

توجّه إليه نظرةً مرتعبةً، غاضبةً، وتطلق في وجهه سؤالًا آخر.

- إلى أين ذهبت بعد ظهيرة أمس؟ لماذا تركت عملك؟

لا يدري بما يجيبها. إلى متى سيدور في حلقةٍ مفرغةٍ من الكذب؟ سيكتشف أفراد الشرطة هاتفه في أي لحظةٍ، دون شكٍّ، أم تراهم وجدوه. كما قد يتقدم أحدٌ من النزل للشهادة. بيدَ أنّه جبانٌ، أو متفائلٌ أحمق، يجهل أيّهما أدق.

- أرهقت بشدةٍ، لم أستطع متابعة العمل، لذا أخذت نزهةً بالسيارة.

تتعجب: «نزهةٌ لثلاث ساعات؟! يا إلهي! يظن المحققان أنك آذيت ابنتنا آفيري!». «آفيري!».

يقول، متذكرًا كيف أوقعتُ صفعته آفيري أرضًا، عندئذٍ يلجم ذهنه عن التذكّر: «لم أفعل!».

تحدّق إليه، تعبيريها قاسٍ لا تبالى به.

- عَلِمَا أَن أعصابك تنفلت، وتلطم آفيري على وجهها أحياناً.

- أَخْبَرْتَهُمَا بِذَلِكَ؟

تشير غيظه منها، يشعر بالخيانة. تنفلت أعصابه حقاً، وهو أمرٌ لا يدعو للفخر. يخجل مما يعتريه. لطم ابنته على وجهها مراتٍ عديدةً، لكنَّه أمرٌ هينٌ بالمقارنة مع ما فعله به أبوه. على النقيض من أبيه، يستبد به الندم في الحال والشعور بالذنب. وعلى النقيض من أمه، لم تبذل وسعاً للحيلولة، تعانده إيرين بإصرارٍ كل مرةٍ، وتصبُّ جام غضبها عليه وتستثني طفلتهما المتمردة، منفلة الزمام.

ثم بطريقةٍ ما يتغير وجه المشكلة؛ لا يصبحان طرفاً أمام آفيري، نتيجة تصرفٍ سواء أخطأت فيه أم لم تخطئ، إنّما طرفين في مقابل بعضهما، هو وإيرين، ولا علاقة لتصرفات آفيري حينئذٍ بالمسألة، بل تصرفاته. تخلق زوجته بطريقةٍ ما الأعداء لابنتهما دائماً، ولا تلتمس له العذر مطلقاً. دوماً ما تشير عليه باستعلاءٍ ضجرٍ أن يُحسِّن الأمور كشخصٍ راشدٍ. آفيري هي التي فرّقت بينهما، كلاهما يدرك ذلك. ما يلاقيانه من ضغطٍ متواصلٍ في التعامل معها، أدى إلى خلافهما وباعد بينهما المسافات. رسَّخ بينهما البغض، وترك جروحاً لا تندمل بحياتهما الزوجية. تحطّما. إيرين منفتحةٌ وصبورةٌ، أما هو فتقليديٌّ ويطير طائرُه من الغضب. قلَّما يتفقان على أسلوبٍ معقولٍ لمعاملة ابنتهما، يتجادلان في شأنها طيلة الوقت، كيف يداويان تقلباتها ويواجهان تدمُّرها. يتوجس كلاهما من ملاحظة الناس لحالهم إنّ أطلعت آفيري أي أحدٍ بالمدرسة على ما يحدث لها، ومشفقين من تأثير كل تلك الأجواء على مايكل. والآن، صارت الشرطة على درايةٍ بسرهم الفظيع.

تحقق عليه بدورها.

- بالطبع لم أخبرهما بشيءٍ! لست بلهاء. أدرك كيف قد يُنظر إلينا.

تأخذ نفساً عميقاً وتضيف بنبرةٍ تشوبها الكآبة: «ضغطا على مايكل. اضطر إلى البوح لهما بالحقيقة. ولم أستطع تكذيبه».

يتلقى الصدمة كأنَّها لكمّةٌ في معدته.

- الملعون!

تهمس زوجته: «لا تلقِ باللائمة على ابننا. أنتِ المَلموم».

الفصل الحادي عشر

يعبر ويليام مدخل منزله ترافقه زوجته وابنه، مخترقاً موجاً عارماً من الصحفيين، متجاوزاً الشريط الجنائي الأصفر. يدور ببالة في غضبٍ، متى سُنَزَع الشريط؟

ينقبض خوفاً إذ يدلف؛ قضى الفريق الجنائي الليل بطوله هنا. لم يعثروا على هاتفه بعد، وإلا واجهه المحققان به. لكن سيارته محتجزةٌ لديهم، وستُفحص بدقةً متناهيةً. ماذا سيفعل عندما يكتشفونه؟ قد يُجبر على الاعتراف بعلاقته الغرامية. يتخوف من تأثيره على إيرين في هذه الآونة، خاصةً، إذ ستخرج الأمور عن السيطرة. لا يودُّ أن تُجرَّ نورا إلى التحقيق مثلهم، لن يأتي على ذكر اسمها. استخدمتا هاتفيهما في أضيق الحدود، ولم يخاطب أحدهما الآخر باسمه في المراسلات قط. توجَّب عليه التخلص من ذلك الهاتف اللعين.

يدخلون المنزل ويجدون المحققة جالي في المطبخ. يتحاشى ويليام النظر في عينيها، بعدما علمت أي وضعٍ مهلهلٍ تعيشه هذه العائلة، بعدما اتضح لها أي نوعٍ من الآباء هو.

تقول: «انتهى الفريق لتوه من العمل. بإمكاننا نزع الشريط في الحال. إنَّما تبقى مسألةٌ علينا مناقشتها».

يرتعد قلبه. يلقي نظرةً إلى زوجته، موقناً أن هلاكهما وشيكٌ.

توضح: «الموضوع بخصوص المناشدة المُتلفزة. ليست بالأمر اليسير، ونفضلُ أن تستعدوا لها».

حضرت جالي عدّة جلساتٍ مماثلةٍ في السابق، إذ يتوتر الآباء دائماً وينعكس على تصرفهم. تلاحظ أن إيرين وجهها ممتقعٌ وأكثرَ بؤساً من البارحة. على الرغم من طبيعتها الرزينة، فإن الضغط العصبي يُنهكها إلى جانب تصرفات زوجها التي يصعب حسابها. أما ويليام، فالارتباك بادٍ عليه وذهنه شاردٌ.

حدّد موعد المؤتمر الصحفيّ في تمام الثانية عشرة ظهيرة اليوم، بإحدى القاعات في قسم الشرطة، وجُهِزت بالعديد من المقاعد للصحافيين، الذين يفيضون إلى ردهة القاعة منتظرين على بابها. سيتناوب الوالدان المضطربان على الإدلاء بتصريحٍ مُعدٍّ سلفاً، ضبطاً صياغته بمساعدتها، وسيقف مايكل بجانبها صامتاً. ستُذاع المناشدة على التلفاز، سيرافقها على الشاشة صورٌ للطفلة المفقودة، وسيدور رقم الخط المخصص للبلاغات في الشريط السفلي. كأنّه مشهدٌ مسرحيٌّ، غرضه جذب اهتمام ودعم الجمهور. حلولٌ تلجأ إليها الشرطة لإعطاء دفعةٍ للأوضاع الراكدة، ومراقبة ما سينتج عنها، كما تُطمئن الوالدين أنّهما يساهمان بنفسيهما.

بيد أنّها خطوةٌ ستعود عليهما بالسلبيات كذلك. ستتضارب آراء العامة، ولن يتردد الناس في مشاركة آرائهم. تصنع وسائل التواصل الاجتماعي من كل شيء حدثاً رهيباً. تعي جالي كيف يتعامل الأقارب مع الضغط والألم بطرقٍ متباينة. بعض الآباء ينهارون في البكاء، والبعض لا يذرفون دمعاً من هول الصدمة. أما أولئك المشاهدون فقد يفسرون الجمود بروداً، وفتوراً في المشاعر. تتساءل، وهل باليد حيلةٌ؟ ستتنصرف نسبةٌ لا يُستهان بها من الجمهور، إلى الظنّ بالوالدين تلقائياً أنّهما السبب وراء اختفاء ابنتهما الصغيرة، وسيستدلّون من تصرف الوالدين ما يوافق ظنونهم. يتبادر إلى ذهنها الاستجواب مع الدكتور وولر، وزوجته وابنه، صباح اليوم، وتتفكر، لن يأخذهم التخمين إلى أبعد من ذلك.

ما يعلمه فريق التحقيق أضعاف ما يصل إلى العامة: عادت آفيري إلى منزلها بعد ظهيرة يوم اختفائها ورافقها شخصٌ مجهولٌ، لا يملك الأب حجة غيابٍ ويضرب ابنته أحياناً، تفكّكت حياته الزوجية نتيجة أفعاله، وفوق ذلك كله، تأكّد أن الطفلة لم ترتدِ سترتها الجينز وقت الاختفاء، خلاف ما اعتقد في بادئ الأمر. لكن هذه التفاصيل لن تُنشر في الوقت الراهن.

يتقدم بلدسو معرّفاً عن نفسه أمام مكبر الصوت، ويقول: «أشكركم على الحضور. بعد ظهيرة يوم أمس، خرجت آفيري وولر، ذات التسعة أعوام، من مدرسة إليزмир الابتدائية نحو الثالثة وخميس وأربعين دقيقة، وسارت بمفردها حتى المنزل. لم تُر منذ خروجها من المدرسة. طولها يزيد عن المتر بقليل ووزنها ٢٧ كجم تقريباً، شعرها أشقر وعيناها زرقاوان. ترتدي، حسب آخر مرة شُهِدَتْ فيها: بنطال جينز كُحليّاً، قميصاً أبيض على مقدمته ورودٌ، وعلى ظهرها حقيبة زرقاء غامقة. إذا رأيتم آفيري أو لمحتم ما يُثير الشبهات: شخص، حركة، مركبة، على مقربةٍ من المنطقة التي اختفت بها آفيري، أو لديكم أي معلومة ذات صلة، من فضلكم اتصلوا بالرقم المبين على الشاشة. والآن، سيلقي والداها كلمةً عليكم. برجاء تقدير حالتها، وغير مسموح بتوجيه أي أسئلةٍ لهما».

يترك بلدسو مكبر الصوت متراجعاً إلى الوراء ويشير بكفه مبسوطاً نحو إيرين وويليام ليتخذا مكانه، وجالي ترابعهما بتركيزٍ شديد.

تحدّث إيرين أولاً. طلّتها كئيبةٌ إنّما شامخة، وصوتها هادئٌ قد لا يُسمَع من دون مكبر الصوت، تحدّق إلى الورقة التي ترتجف بين يديها.

- ابنتنا آفيري مفقودة. هي فتاةٌ صغيرةٌ جميلةٌ ذكيةٌ، بانتظارها عمرٌ مديدٌ. نحبا ونتحرّق لعودتها لنا، رجاءً ساعدونا حتى نجدها.

ترفع بصرها فتجابهها أضواء الكاميرات، مما يجعلها تجفل.

يتخذ ويليام موقعه أمام مكبر الصوت ليقراً: «إذا بإمكانك سماعنا يا آفيري، تأكّدي أنّنا نحبك ونتمنى عودتك لنا».

يتردد متلعثماً عند البدء، ثم يتمالك نفسه.

- لو كنتَ تسمعنا وتحتجز ابنتنا، نتوسل إليك، أعدْها إلينا. اتركها في مكانٍ آمِنٍ، هذا كل ما نرجوه منك. ليستِ إلا فتاةً صغيرةً، بوسعكَ إطلاق سراحها. وعدٌ منا إذا تركتها لحال سبيلها، لن يصيبك أي ضررٍ.

تهرع نورا قبيل الظهيرة عبر الردهة -مرتديّةً ملابسها العادية، لكنّ تعلقَ برقبتها الشارة الخاصة بمتطوعي المشفى- باتجاه غرفة الاستراحة، وحذاؤها يُحدث صريرًا على بلاط الأرضية. ستُذاع مناشدةٌ من أجل آفيري؛ تناقل الجميع الخبر في المشفى، وعرفتُ أن التلفاز بغرفة الاستراحة سيُفتَح في موعد البثِّ. تتوق إلى رؤية ويليام، ولو من خلال شاشة التلفاز، لم تره منذ انفصالهما في النزل، وتغيّرتْ أمورٌ عديدةٌ من بعدها. تبتغي أن تتأمل وجهه وتحاول فهم ما ينتابه. تدخل الغرفة، حيث التلفاز معلقٌ قرب السقف في الزاوية، وتجدها مكتظةً بأطقم العاملين والأطباء؛ كلٌّ من استطاع الإفلات بوقت راحةٍ جاء إلى هنا.

يعتري الجميع القلقُ على الدكتور وولر وابنته المفقودة. تقعد على آخر الكراسي الشاغرة إلى جانب «ماريون كوك»، إحدى الممرضات التي تعاونهن بانتظام، وللمصادفة تسكن بالقرب منها بشارع كونوت. تلقي ماريون نحوها نظرةً خاطفةً وتعيد انتباهها بسرعةٍ إلى الشاشة. ترى الكأبة مطلةً من وجه الدكتورة «فيزنا»، وكذا اثنتين من الممرضات. تتساءل عمّا يظهره وجهها. تجول بنظرها في الغرفة، جميع الحضور زملاء الدكتور وولر؛ جميعهم يحبونه ويوقرونه. مشهودٌ له بالنباهة والعطف والعمل الجاد، عمل معظمهم برفقته لسنواتٍ. الكل مغمومٌ اليوم في المشفى.

تخطر ببالها مسألة الهاتف. إذا كُشف أمره، سيعلم كلٌّ من بهذه الغرفة عن علاقتهما الغرامية. بغتةً يدوخ رأسها.

أطبق الصمت مع بدء البثِّ. عقب كلماتٍ من المحقق، تتكلم والدة آفيري. تُحْمَلُ في وجه إيرين، بالكاد تميزها. تذكر أنّها امرأةٌ شديدة الجاذبية، قابلتها في عدة مناسباتٍ بالمشفى، إلا أنّ هذه المرأة مختلفةٌ تمامًا. يأتي

دور ويليام بعدها. لا تحتل رؤية الألم والذعر على وجهه، وهو يقرأ من الورقة التي يحملها أمام مكبر الصوت. ثم يخاطب الشخص الذي اختطف ابنته، متوسلاً إياه إعادتها سالمةً. يدور ببالها وهي تشاهده، أنه من غير الممكن أن تكذب مشاعره الصادقة ولو للحظة، لا أحد يمكنه الشك به. تتأمل الدكتورة فيزنا وهي تكتم فمها بيدها، والآخرين من حولها حالتهم متباينة، ما بين التجلد والأسى كأن جنازة. وإذا تسرع بنفض ذلك الهاجس من ذهنها. لا يمكنها تصور ابنة ويليام مفقودة، أو ميتة. تكبح رغبتها في البكاء، وتشعر باحتياج للمندبل في جيب بنطالها.

أحد المتماسكين من بين الحضور، هي ماريون الجالسة جوارها، غير أنها أول من ينزع إلى النهوض ويغادر بمجرد انتهاء البث. تدري نورا بمشاعر ماريون تجاه الدكتور وولر، لذا تظن أنها بحاجة إلى البقاء وحدها.

الفصل الثاني عشر

يجري البحث حثيثاً، دون أثرٍ يُذكر للطفلة. تعي جالي أنه سباقٌ مع الوقت؛ مع كل ساعةٍ تنقضي، تتضاءل فرص إيجادها على قيد الحياة.

فور انتهاء المناشدة المتلفزة، تنهال عليهم البلاغات. يتولّى ضباطُ شرطيون مهمة الرد على المكالمات ومتابعة التفاصيل كلٌّ على حدة، والتغاضي عن المريب منها. على فرض أنها بلدةٌ تمتاز بطبيعتها الاجتماعية المترابطة والاهتمام المتبادل بين أهلها، لا يتحرّج عددٌ مذهلٌ منهم من إبلاغ الشرطة عن شخصٍ يعرفونه غريب الأطوار، أو آخر يروونه منحرفاً. تتحسّرُ جالي بسريرتها أنه لن تختلف عن مثيلاتها من البلدات الصغيرة في كل الأنحاء، فطريقة التفكير أضيق أفقاً مما هي عليه في المدن الكبرى.

تقعد في القاعة الواسعة التي اتُخذتُ مركزاً للعمليات، وبلدسو يزفُ إليها التطورات. تنظر نحوه في ترقبٍ.

يوليها نظرةٌ ذات مغزى، قائلاً: «لن تحزري ما وجدناه في سيارة ويليام وولر».

تقول عابسةً: «الحمض النووي للطفلة في صندوق السيارة؟».

يهزُّ رأسه نفياً.

- ليس بعد، الفحص جارٍ. إنَّما عُثِرَ على هاتفٍ مسبق الدفع، مخفيٍّ داخل مسند الذراع بالمقعد الخلفي.

بينما تحاول الاستيعاب، يدنو منهما شرطيٌّ ويقول: «جاء شخصٌ لمقابلتكما».

تتجمد إيرين في مجلسها على الأريكة بغرفة المعيشة. اشتدت بها الهواجس حيال ابنتها، أين اختفت؟ أهي محتجزةٌ في مكانٍ ما؟ تتوقف أنفاسها للحظاتٍ. يجدر بها الكفُّ عن ذلك التصور، عليها التشبث بالأمل، والتَّيَقُّن من عودتها.

على أي حالٍ، أبطلت الشرطة اعتبار منزلهم مسرح جريمةٍ، ولعل أفراد الأمن يكتفون جهودهم في البحث عن آفيري، بدلاً من الاشتباه بوالديها. لكن تخامرها الشكوك تجاه زوجها. لم مكث خارج عمله فترةً طويلةً بالأمس؟ ما الذي اضطره إلى أخذ جولةٍ بالسيارة في أثناء ساعات عمله؟ ماذا يُخفي عنها؟

يلحُّ عليها ويليام: «لا تتركي نفسك دون طعامٍ. بالكاد تناولتِ لقمةً منذ... الأمس».

لا ترد، تتأمل وجهه بصمتٍ فقط. لم يُطق مايكل القلق المتزايد، صعد إلى غرفة نومه، وفي الغالب يتلَهَّى بألعا به الإلكترونية. كادت تسأل زوجها عما شغله بعد ظهيرة أمس، قبل أن يسبقها إلى القول، بنبرةٍ عطوفةٍ: «سأحضر لك شطيرةً محمصةً، وفنجان شاي».

يعود أدراجه إلى المطبخ. بقيا وحدهما بعد انقضاء ذلك النهار المريع. يا لها من نكبةٍ، من كل النواحي! بدءاً من استجوابٍ مضنٍ بمخفر الشرطة، الرجوع إلى المنزل بعد مبيت ليلةٍ بفندقٍ، التحضير للمناشدة، وانتهاءً بالظهور على التلفاز. شعرت بيديها ترتجفان طيلة المناشدة، ورغم ذلك لا تكف عن مشاهدتها. التلفاز مفتوحٌ بغرفة المعيشة، منخفض الصوت، وتُعاد إذاعة المناشدة على القنوات المحلية على مدار الساعة. ليست سوى محاولةٍ! الكل يحاول!

يجلب زوجها شطيرة الزبدة وفنجان الشاي، ويضعهما على المنضدة إزاءها. تجعلها الرائحة تدرك فجأة مقدار جوعها؛ ويليام محقٌ، لم تأكل لقمةً منذ غداء الأمس. لم تجد شهيةً لتناول الكعكة بالصباح.

يُطرق الباب وكلاهما لا يحرك ساكنًا.

يتشنج جوفها، سائلةً: «تراه مَنْ؟».

لا طاقة لها الساعة باستقبال أحدٍ، حتى الأصدقاء المقربين. تودُّ أن يصرف ويليام أيًّا يَكُن بالباب، تتمنى الاختباء حتى ينتهي كل ما يجري.

يقول زوجها، مقترَّبًا من نافذة الغرفة، ليختلس النظر من وراء الستائر نحو الباب الأمامي: «لا أدري مَنْ قد يأتينا».

يُردف محتدمًا: «تبًّا! إنَّهما المحققان الملعونان!».

يهتاج من فوره، ويتحفز. هالتها ردةُ فعله.

تقول: «ربما لديهما خبرٌ لإبلاغنا إياه. لعلَّهما عثرا على ابنتنا».

يصدمها المزيج المشؤوم من الأمل والخوف، مما يدفعها للدوار.

يتحرك زوجها نحو الباب ويسمح لهما بالدخول، لا تجد في نفسها قدرةً على النهوض، حتى الشطيرة وفنجان الشاي على المنضدة، لم يُمسَّا.

يدلف بلدسو وجالي إلى غرفة المعيشة، حيث مكثا معهما ساعاتٍ طوالًا آنفًا. يتخذان المقعدين ذاتهما، ثم ينضم ويليام إليهم عائدًا لمجلسه السابق نفسه إلى جوارها.

تسأل إيرين، بصوتٍ مهترئٍ: «هل وجدتماها؟».

تهزُّ جالي رأسها، ويجيب المحقق: «مع الأسف، ليس بعد».

يركِّز ناظريه على زوجها، ويصمت هنيهةً مطوِّلة.

ينتابها الذعر. ما الذي يجري؟

يقول المحقق، مستمرًّا بالتحديق إلى ويليام: «رغم ذلك، حصلنا على إفادةٍ. شهد شخصٌ ما على رؤيته شيئًا، أخيرًا».

يمسك للحظة، ثم يضيف: «رأى أحد جيرانك سيارتك، يا دكتور وولر، تدخل مرأب منزلك نحو الرابعة بالأمس». تلتفت إيرين إلى زوجها مرتعبةً.

يرجع ويليام إلى قسم الشرطة، إلى حجرة الاستجواب ذاتها، حيث أمضى صباح اليوم.

سأل المحقق، قبل تحركهم من المنزل: «هل لديّ خيار آخر؟».

قال له: «في الواقع، لا. اتلي عليه حقوقه، يا جالي».

لم تتزحزح زوجته عن الأريكة قيد أنملة، وهما يصحبانه معهما. لم تقف بصفه قبلاً، ولن تأبه له مستقبلاً. بظنه لن تهتم به بعد جره للمخفر ثانية. انتهت حياتهما، سكرهه زوجته وابنه أيضاً.

أفصح للمحققين عن عدم حاجته إلى محام، لأنه لم يرتكب أي جرم قط. لا يرى من الصواب أخذه إلى مخفر الشرطة، إنما وضعه سيئ بما فيه الكفاية، إن تساءل سيزيد الطين بلّة.

يوضحان له أن الاستجواب مسجلٌ بالفيديو، ومن ثم يباشران.

يقول المحقق: «لدينا شاهدٌ رأى سيارتك في أثناء دخولها إلى مرأب منزلك قرابة الساعة الرابعة يوم أمس».

من البدء، سينكر هذه الشهادة. يودُّ لو ينكر حقيقة كل ما يحدث له. يهزُّ رأسه نفياً.

- لا، غير صحيح.

- لكن شخصاً ما يشهد بأنه رآك. أحد جيرانك رآك، وانشغل بأموره طوال الليل، فلم يستطع المجيء إلى قسم الشرطة لإبلاغنا إلا في الصباح. يتحتم عليك إيضاح ذلك لنا.

يغطي ويليام وجهه بكلتا يديه، ويشرع في النشيج. ينشجُ مثل رجلٍ مُحطَّم، بل قد تحطَّم حقاً، لن ينجو مما وقع فيه. لكن يفطن، وهو ينتحب

والمحققان يراقبانه، إلى غريزة النجاة المدفونة في أعماقه، فيستجمع شتات نفسه ويمسح عينيه بكفيه. تدفع جالي علبة المناديل نحوه. يترقبان ما سينطق به، وعيناه محدّقتان إلى الطاولة. أيحسب هذان الوغدان المتعجرفان أنّهما توصّلا لحل المسألة! لن ينهار بهذه السهولة.

يقول: «لم أتسبب لها بأي أذى. لا أعلم عن مكانها شيئاً». يحدّقان إليه ببساطة، مترقبين.

يضطر إلى الاعتراف، مدرّكاً مصيره الحالك؛ لن يصدقه مهما حاول.

- جئتُ إلى المنزل. قررت العودة في ساعة مبكرة لأبدل ملابسِي. اعتقدتُ أن أجدّه خالياً؛ يتأخر الأبناء يوم الثلاثاء، مايكل لديه تمرين كرة السلة، وأفيري لديها تدريبٌ مع الكورال. حسبتُ أنّهما لن يعودا قبل الخامسة إلا الربع.

يستحثّه بلدسو، عندما أمسك عن السرد: «أكمل».

يقول: «لا يتسنّى لي وقتٌ أقضيه بمفردي على الإطلاق. يوجد أناسٌ حولي على الدوام، كما أعمل بمهنةٍ نشطةٍ، أجدول في المشفى طيلة النهار بلا راحةٍ، وحين أعود إلى المنزل أجد الكل قد عاد، وددتُ أن أهنئ بتمضية بعض الوقت بمفردي. لا أصير وحدي إلا في سيارتي».

كم يبدو أبله! تومئ جالي باهتمامٍ، أما بلدسو فلم يتأثر البتة، ولا رفّت له عينٌ.

يطلّ التعاطف من ملامح جالي، فيتوجه بكلامه إليها: «غير أنّي ما إن دخلتُ المطبخ، وجدت أفيري، وعلّقتُ سترتها إذ تركتها ملقاةً على أرضية المطبخ».

لا يستطيع المتابعة.

يقول بلدسو: «حسنٌ، وماذا بعد؟».

يزدرد ويليام ريقه.

- سألتها عمّا تفعله في المنزل بمفردها، وأخبرتني أنّها عُوقِبَتْ وطُرِدَتْ من صفِّ الكورال. قلتُ لها إنه وجب عليها انتظار أخيها، فأجابتنني بأسلوبٍ فظٍّ. فقدتُ أعصابي.. ولطمتها.

عندئذٍ يسكت. لم تكن مجرد لطمَةٍ، غير أنه لا ينوي إخبارهما ذلك. لن ييروح لهما بكل شيء.

يسأله بلدسو: «وبعدها؟».

- بعدها اعتذرتُ! تأسفتُ لها، وندمتُ أمامها عمّا فعلت. قلتُ لها إنني أحبها، واستوجب عليّ التصرف بطريقةٍ أفضل. لكنّها، لم ترد بكلمةٍ ولم تنظر إليّ.

يواجه المحقق ناظرًا في عينيه مباشرةً، مختتمًا: «ثم تركتها وغادرت».

يجزم أنه لا يصدق. يضيف سريعًا: «لهذا تولّد لديّ يقينٌ أنّها هربت، من تلقاء نفسها في بادئ الأمر. تصوّر معي، أمست غاضبةً مني لأنني لطمتها، فخرجت بعدما غادرتُ، ثم اختطفها شخصٌ ما، وعليكما إيجادها...».

تقاطعها جالي: «لماذا لم تبلغنا سلفًا عن مجيئك إلى المنزل، وأنتك من علّق سترة الطفلة؟ لو قرّرت علينا الوقت الكثير».

- أدركتُ كيف قد أبدو لكما، سينصرف ذهنكما إلى أنني آذيتها، غير أنه من المؤكد، لم أفعل.

يصرُّ بلدسو قائلاً ببطءٍ شديدٍ: «لا شيء مؤكد في نظري».

يلتفت ويليام ناظرًا نحوه، مذعورًا.

يميل المحقق تجاهه متكئًا على الطاولة، ويستطرد: «جئتُ إلى المنزل، وقع جدالٌ بينك وبينها، فلطمتها، ولم تُر منذ ذلك الحين، كما لم يلمحها أحدٌ تغادر المنزل. أظنها غادرت في صندوق سيارتك».

يشعر بوجهه يمتقع وينفض رأسه نافيًا.

- كلاً، كلاً! هذا كلامٌ فارغٌ! لم يحدث ذلك قط.

يتراجع بلدسو في كرسيه، قائلاً: «ألا ترى أن الأب الذي يتمنى عودة ابنته بأي ثمن، قد يطلعنا على وقت وجوده في المنزل، وتعليقه لسترتها؟ ما يصح على أب بريء، يرجو رؤية ابنته حية، أن يكذب على الشرطة». يضيف: «أو يكذب على زوجته».

يترنح وجه المحقق أمام ناظره، ويضيق صدره. يميل إليه بجذعه أكثر، مُردِّفاً: «سيارتك بحوزتنا في المعمل الجنائي، تُفحص شبراً شبراً. سيتبين لنا عما قريب إذا ما وضعت ابنتك في صندوق سيارتك، إلا أننا عثرنا على دليل آخر بها». ينهار ويليام في كرسيه، كما لو يتخلّص من كل المكبوت داخله. وينطق: «لا علاقة له باختفاء ابنتي».

يردُّ بلدسو: «إنه هاتفٌ لا يمكن تعقبه، مخفيٌ بعناية فائقة! تخفي العديد من الأسرار، يا دكتور وولر». يصرّح: «انغمستُ في علاقة غرامية».

- مع مَنْ؟

- لا يسعني إخبارك.

يتربص المحققان أن يبوح لهما، يُحْمَلقان إليه. لمّا طال الانتظار، يقول بلدسو: «ابتعت سيارتك المعنية طراز إنفينيتي G37 سيدان، منذ وقت قريب، أليس كذلك؟».

يومي ويليام برأسه.

- لم نتوقع العثور على هاتفٍ خلويٍّ مسبق الدفع. من الطبيعي أن يُغفل عنه خلال التفتيش الأولي للسيارة في المرأب. وُجد بها مخزنٌ سريٌّ في مسند ذراع المقعد الخلفي، ورغم أنه من فعل الشركة المصنّعة، فهو أمرٌ غير معروفٍ لدى الكثير من الناس. إنّما يمكن البحث عنه عبر محرك جوجل. من الواضح أنك على درايةٍ مسبقةٍ به. ألم يقع اختيارك على هذه السيارة تحديداً بسبب ذلك، يا دكتور وولر؟

ينكر ويليام: «لم أعلم مسبقًا. اكتشفتها بمحض الصدفة».

يكذب. يعلم بالطبع. إنه أحد الأسباب التي جعلته يبتاعها، في مستهل علاقته مع نورا. يتذكر مدى تحمُّسه في أول يومٍ قادها على الطريق.

- ما نحن بصده مجرد حلقةٍ مفرغةٍ من الأكاذيب، يا دكتور وولر.

يحتج: «لم أُوذِ ابنتي. ارتبطتُ سرًّا بامرأةٍ أخرى، واضطرتت إلى الاحتفاظ بذلك الهاتف. قضيت وقتًا برفقتها نهار أمس، قبل عودتي إلى المنزل. كنتُ في نُزُلٍ معها، ولم أٌجول بالسيارة، كما ذكرتُ من قبل. لهذا كذبت، لم أرغب أن تعلم زوجتي».

يسأله بلدسو: «أي نُزُل؟».

- نُزُلٌ يُدعى بالنسائم، على طريق تسعة الرئيسي.

- في أي ساعةٍ تركت النزل؟

- الرابعة إلا الربع تقريبًا. جئتُ إلى المنزل، رأيتُ ابنتي لمدةٍ وجيزةٍ، ثم خرجت ثانيةً. غادرتُ وهي على ما يرام.

- متى غادرت بالضبط؟

- لست واثقًا، أعتقد في الرابعة والثلاث.

- وإلى أين ذهبت؟

يبتلع ريقه، مجيبًا: «أخذتُ نزهةً بالسيارة حقًا».

يُريدُ المحقق: «هل سيتوافق سجل مكالماتك مع أقوالك؟».

لقد أغلق هاتفه عند لقاء نورا في النزل. هذه عادته دومًا، كي لا يقاطعهما شيءٌ. يُبقي جهاز النداء فقط على مقربةٍ منه، في حال طلبه المشفى على نحوٍ طارئٍ. حتى هاتفه المؤقت يغلقه، حالما يبعث رسالةً إلى نورا برقم غرفة النزل، ويستقبل ردّها. لا يعيد فتح هاتفه إلا بعد الخامسة بقليل. يدرك حجم ورطته. ما بيده أي حيلةٍ.

يبتلع ريقه ثانيةً: «أغلقتُ هاتفي».

تسود هنيهةً طويلةً صامتةً، حتى يقول بلدسو: «أحقًا فعلت؟».

الفصل الثالث عشر

في الثالثة، تعود نورا إلى منزلها بعد انتهاء مناوبتها في المشفى. تصفّحت الأخبار عبر هاتفها على مدار اليوم قدر المستطاع. والآن، تفتح حاسوبها النقال وتجد لقطاتٍ مصوّرةً لويليام، مُنقادًا خارج منزله بصحبة المحققين، محاطًا بالمراسلين، إذ أخذ إلى قسم الشرطة من أجل استجوابه منذ قليل. أمرٌ يبعث على القلق. إذ يخضع للاستجواب في قسم الشرطة للمرة الثانية اليوم. ما السبب؟ لمَ الاشتباه بويليام دون غيره؟ مضت قرابة أربع وعشرين ساعة على اختفاء آفيري، ولم يُعثَر لها على أثر. يظهر جلياً أن الشرطة تعتقد ويليام له يدٌ باختفائها، مما لا يمكنها تصديقه. لا تتصور قدر ما يعانیه، مرتعداً على ابنته المختفية، مشتبهاً فيه، وربما يصير متهمًا.

عاد زوجها وابنها عقبه بقليل، يلفهما البرد والجوع بعد ساعاتٍ شاقّةٍ من البحث. يستريحان قرب طاولة الطعام بالمطبخ، ريثما تعدّ لهما بعض الشطائر يتصبران بها حتى موعد العشاء. تحضّر الطعام كأنّها في حلم يقظة. بينما يلزم راين الهدوء، يصف لها آل كيف نكزتُ فِرْقُ البحث الأرض بالعصي، ينقبون عن أي بقعةٍ رُدِمَتْ حديثاً بقلب الغابة -أي دليلٍ على قبرٍ غير عميقٍ- الإحباط تفسّي بينهم وما توصلوا إلى شيء.

يقول: «لا بدّ أنّها جثّة هامدة الآن. لا يخفى عليك، هذا ما يفكر فيه الجميع. يخالون الأب فعلها.. وهو طيب».

تجابهه: «ما الذي تقوله؟ ماذا تقصد؟».

ينظر إليها والاستغراب يعلو وجهه، ويقول: «أما علمت الخبر المنتشر في جميع الوسائط الإخبارية؟ أخذته الشرطة لاستجوابه مجددًا. في تصوري، سيعتقلونه عمًا قريب، ذلك السفاح المختل!».

بعيني زوجها المحدقة إليها ومضة غريبة، لمحة من شعورٍ ما، توحى بأمرٍ بغيضٍ مقلقٍ. وراء تعبير وجهه أمرٌ مكنونٌ، ما كُنْهه؟ وإذ ينخطف قلبها. هل يعرف؟ أيدري ما بينها وويليام؟ هل يتلذذ بتعذيبها؟ ربما ليس مغفلًا حسبما اعتقدت. هل راقبها؟ هل رآهما معًا في النزل؟ تحسُّ بالتوتر يطبق بغتةً على الأجواء. أيعلم أن ويليام عشيقها؟ ألهذا نبرته لازعةٌ؟

شارفت على الجنون بالارتياب، يتسلل إليها منذ زمنٍ حتى باتت محاصرةً به. إنها مسألة وقتٍ حتى تطرق الشرطة باب منزلها، لدى اكتشاف علاقتها مع ويليام، وسيُفتضح أمرهما.

لا تطيق إطالة النظر إليه، توجه انتباهها إلى ابنها. راين ذهنه غائبٌ عنها، لم تُعد تعرف ولدها، بعدما كانا مقرَّبين. تتأمل ملامحه، منحنيًا على منضدة المطبخ، يتناول شطيرته. تتوق لمعرفة ما يجول بخاطره.

تلبث إيرين محلها، وزوجها بمخفر الشرطة للمرة الثانية. لا تقوى على تناول الطعام، يغذيها الحقن، ويمدُّها بطاقةٍ سُحِبَت منها منذ اختفاء ابنتها. شُوهَدَ ويليام هنا، يدخل بسيارته المرأب نحو الرابعة يوم أمس، تأكَّدت الشرطة من وجود آفيري معه في المنزل. تخشى اقترابها من اكتشاف حقيقة ما حدث لابنتها.

كما لو انقسمت إلى امرأتين، فكرتين متضاربتين في آنٍ واحدٍ، داخل عقلها. تستنكر إحداها ما يجري، والأخرى تميل للتصديق. رأت كيف يمكن لغضب زوجها أن يستعر على ابنته، وكيف ينقضُّ عليها ضربًا. تتفهم شعوره، لأن آفيري تدفعها للانفعال في بعض الأحيان أيضًا.

تذكر أنه في حفل عيد ميلاد إحدى زميلات آفيري، حينما كانت بعمر السادسة. رافقتها والقلق يساورها حول ما يمكن حدوثه، بسبب تصرفاتها العنيدة، لا سيما في وجود صغارٍ بعمرها. لا تتعامل بأسلوبٍ حسنٍ، لا تستوعب كيفية الانسجام مع الأطفال الآخرين. اتجهت إلى افتعال المشكلات من فورها، تدفع فتاةً بعنفٍ في لعبة الكراسي الموسيقية، وتُرمى عليها الاتهامات بالغش في اللعب. تحرّجت إيرين، وازداد الوضع سوءًا. يعلق بذهنها حتى اللحظة، الإحراج الذي اعترافها من الضحكات المتوارية للنساء الأخريات، وقول إحدى الأمهات، تمرُّ إحداهنَّ بيومٍ عصيبٍ! حينما شرعت الفتاة صاحبة عيد الميلاد في فتح الهدايا، وآفيري تشدُّها من يدها. ارتأتُ أنه الوقت المناسب للانصراف، لكن ابنتها رفضت. أصابتها نوبة غضبٍ وأخذت تضرب أمها. اعتذرت إيرين لجميع الحضور وحافظت على هدوئها حتى خرجت من منزل زميلة ابنتها. تقلّصت عضلاتها من زجّها إلى السيارة، وحالما ربطت حزام الأمان حولها، انعطفت عند زاوية في الطريق، وتوقفت على جانبه، تبكي بحرقّة بلا انقطاع، من الغيظ والهرج والحق.

تتأذى من سلوك ابنتها. أنهكت، تحطمت ثققتها بقدرتها كأُمّ. الفرق بينها وبين زوجها، هو انفلات غضبه على ابنتهما، أما هي فتكتمه. ماذا لو تطاولت يده عليها، ولم تكن معهما ل تمنعه آنذاك؟ تتصور ما حدث، ترى المشهد يتحرك أمامها: يضرب زوجها آفيري، يهزُّها بقسوةٍ حتى انكسر عنقها، أو دفعها بقوةٍ وارتطم رأسها، مجرد حادثةٍ لم يتعمدها. حاول إسعافها، وانتابه الفزع. ربما قصد إخفاء ما حدث، كذب عليها، وكذب على الشرطة. فيمَ كذب على مدار سنوات زواجهما أيضًا؟ ترتعب بشدةٍ من تصور آفيري ماتت، وزوجها قتلها في لحظة عشوائية. لا تدري كيف سيتسنّى لها وابنها مايكل المضي قدمًا.

مضى على زواجهما ما يقارب الخمسة عشر عامًا. لا تستوعب أن بإمكانه فعل ذلك. مستحيل! اختلق المحققان تلك الشهادة غالبًا، في محاولةٍ للإيقاع به بطريقةٍ ما.

تراقب من خلف ستائر النافذة بغرفة المعيشة، لا تريد لأحد من الصحفيين بالخارج أن يلمحها. بينما يمضي الوقت، تتيقن من أن حالة من اثنتين ستقع. إما سيرجع زوجها ومعه تفسيرٌ معقولٌ، فقد يقرُّ له المحققان أنَّهما افتعلا وجود شاهدٍ لاستدراجه، وإما سيحضران لإبلاغها أنه اعترف بذنبه، وقتئذٍ ستعلم ما حدث لابنتها.

تتوقف سيارة دورية شرطية أمام المنزل، وترى ويليام ينزل منها.

تحدّث جالي إلى الضباط الذين استجوبوا معلمي آفيري بالمدرسة الابتدائية. اتفق جميعهم على نباهتها البالغة، لكن في إطارٍ من اضطراباتٍ سلوكيةٍ وصعوباتٍ في التعامل، تتمرد وتكثر أكاذيبها. معلومها، على يقينٍ، أن العمل التخريبي، من سدِّ المرحاض بحمام الفتيات بالورق مما أدى لفيضان الماء، هي المتسببة فيه، رغم ادعائها رؤية فتاةٍ أخرى تفعلها. بغض النظر عمّا استوضح لدى الضباط عن طبيعة آفيري وتصرفاتها، لم يتوصلوا لشيء. لم يلمح أحدٌ معلميها شخصًا انسلَّ إلى أروقة المدرسة يوم أمسٍ أو في الأيام السابقة. لم يُرَ غريبٌ يحوم حول سور المدرسة، وتبعها حتى منزلها، لم تُرَ مركبةٌ غريبةٌ في الطريق. لا يلقي الجميع بالًا لما جرى للطفلة.

على أي حالٍ، تأكّد وجود الأب في المنزل معها البارحة، وهو من علّق سترتها. إن صدق قوله ولم يؤذِ الطفلة، فقد غادرتُ وحدها ثم تعرضتُ لحادثٍ إجراميٍّ. تعرف أنه من وجهة نظر بلدسو، فقد قتل الدكتور ويليام وولر ابنته ووارى جثتها. تجاهد حتى تُبقيَ ذهنها مفتوحًا لاحتمالٍ آخر، حتى ينتهيَ الفحص الجنائي لسيارته، على أقل تقديرٍ.

عرجت على نزل النساء ووجدت نظام التشغيل لكاميرات المراقبة ينقطع من آنٍ لآخر، وليست لدى العاملين أدنى فكرةٍ عن عشيقة ويليام وولر. لا يتذكر أحدهم رؤيتها بالنزل مطلقًا، لم يروا سواه. تعرّفته موظفة الاستقبال، إذ استخدم اسمًا مستعارًا ودفع نقدًا، جاء في مواعده المعتاد كل ثلاثاء، بيدَ أنَّها لا تعلم متى خرج. ترجّح جالي التحدّث إلى العشيقة المجهولة، علّها

تستنبط ما يدور بخلد الطبيب، وما مرَّ بحالته الذهنية في ذلك اليوم. ربما تعرف العشيقة عنه أكثر مما تعرف زوجته.

تتخذ سبيلها عائدةً إلى الحي السكني لعائلة وولر. قد تستخلص معطيات جديدة من صديقة أفيري الوحيدة، جينا، التي تسكن المنزل المقابل. من المؤكد أنَّها عادت من المدرسة في الوقت الحالي.

تركن سيارتها أمام مسكن آل وولر وتعبّر الشارع إلى منزل آل «سيتين». ترنُ جرس الباب وتنتظر، سارحةً بما يجري في المنزل الآخر خلفها. تتصور ويليام وهو يُطْلِع زوجته على ما باح به في الاستجواب، لا يمكنها تخيُّل تأثيره على شعور إيرين.

تفتح البابَ سيدةً في أواخر الثلاثينيات، بوجهٍ غايةٍ في البشاشة.

- هل أنتِ السيدة سيتين؟

تومئ لها، فتُخرج جالي شارتها وتعرِّف نفسها إليها.

- أحقق في قضية اختفاء أفيري وولر.

يتحول وجه المرأة إلى الجدِّية، وتقرب فتاةً صغيرةً طويلةً الشعر داكنه، تحدِّق إليها ملتصقةً بأמהا.

تبتسم لها جالي بلطفٍ مُردِّفةً: «إِذَا، أَنْتِ جينا».

تكتفي الفتاة بالإيماء.

تزيد السيدة فتحة الباب، قائلةً: «تفضلي بالدخول».

تقودها إلى المطبخ، وتقعّد جينا إلى الطاولة.

- حضر ضباط الشرطة بالأمس وتحدَّثوا إلينا. مع الأسف، لم يلمح أحدنا أي شيء.

- جئتُ لأتكلّم مع جينا، إذا سمحتِ.

تلقي الأم نظرةً احترازيةً نحو ابنتها.

- هل تمانعين، يا جينا؟ هل يمكنكِ التحدُّث إليها عن أفيري؟

تجيب الفتاة، والتوتر بادٍ عليها: «نعم، يمكنني».

- تتخذ جالي المقعد المقابل لها، والدتها تراقبهما عاقدةً ذراعيها، مستندةً إلى منضدة المطبخ.
- تسأل: «هل صحيح أنك صديقة آفيري؟».
- تومى، قائلةً: «إننا بالسنة الدراسية نفسها، والصف نفسه».
- توليها ابتسامةً مشجعةً.
- هل حكّت لك يوماً عن أمورٍ تزعجها؟
- تهزُّ جينا رأسها نافيةً.
- هل أتت ذات مرةٍ على ذكر شخصٍ يضايقها؟
- تهزُّ رأسها ثانيةً.
- تخفض جالي صوتها: «هل أطلعك على أي أسرار؟».
- باتت مترددةً، وإذ تقول: «نعم، لكنّها أسرارٌ، لا يمكنني إخباركِ بها. وعدتها ألا أطلع عليها أحداً».
- ترفع جالي بصرها إلى والدتها جينا، ووجهها المبتئس.
- تقول: «مع ذلك، يمكنكِ إخباري، لأنني محققةٌ بالشرطة. أسعى للعثور على آفيري وإعادتها إلى منزلها آمنّةً. كلنا شديداً قلق عليها».
- تعضُّ جينا شفتها ناظرةً في ارتباكٍ نحو أمها.
- ما دمتِ لن تُعلمي آفيري أنني أخبرتكِ أبداً.
- لن أفعل، أعدكِ.
- لأنها إذا عرفت، قد تقتلني.
- تطمئنّها جالي: «أتفهم الوضع».
- يتخرج وجهها بالحمرة.
- أخبرتني عن رفيقها.
- أليها رفيقٌ؟
- تومى الفتاة مستفيضةً: «يكبرنا في العمر».

تستوضح منها: «كم عمره؟».

ترتجف الطفلة.

- لا أعلم، لم تقل لي مَنْ هو. تستهويها مضايقتي بإخفاء التفاصيل عني.
تضيف، ووجهها يزداد تضرجًا: «لكنْ ذكرتُ لي أمورًا فعلها معها، أمورًا
تخصُّ الكبار».

الفصل الرابع عشر

حالما تناهت إلى مايكل خطوات أبيه في المنزل، يخرج خلسةً من غرفته ليسترق السمع، متواريًا عن النظر بالطابق العلوي. لا يفهم لمَ عاد المحققان لأخذه؛ التزم غرفته وسماعات الرأس تغطي أذنيه، لم يدرِ بمجيئهما، حتى أخبرته أمه إلى أين أخذ أبوه. أهذه غلطته أيضًا، لأنه أفصح عن اعتياد أبيه لطمَ أخته الصغرى؟ الذنب كله ذنبه! يتمنى الهرب، يتمنى لو أنه أي شخصٍ آخر عدا مايكل وولر. ينتظر بفارغ الصبر، نازعًا السماعات من رأسه، لينصت إلى أبيه العائد إلى المنزل.

يسهل سماع ما يقوله والداه، إذ يتعالى صوتهما. يضطرب لتنهدات أبيه الباكية، لم يسمعه يبكي من قبل. تزداد حيرته إذ يتناهى إلى أذنيه اعتراف أبيه ما بين النشيج، أنه عاد في أثناء نهار أمس ورأى آفيري هنا. الأمر الذي اكتشفته الشرطة، وعلى ما يبدو تعتقد أنه السبب في اختفائها.

يكاد يُغشى عليه، وأمه تسأل بنبرةٍ هي أقسى ما سمعته أذنه على الإطلاق: «هل فعلتها؟».

يستنكر أبوه: «عمّ تتفوهين! هل فقدتِ عقلك؟ قطعًا، لم أفعل! كيف يخطر ببالك الشكُّ بي؟ رأيتهَا ثم غادرتُ. تجادلنا، صفعتها، ولا شيءٍ آخر. خالجنِي الندمُ، ورحلتُ. تركتها على ما يرام، أقسم لك».

تصرخ أمه، تصبُّ جام غضبها عليه: «كذبت على الشرطة! كذبت عليّ! كيف يمكنني تصديق أيّ مما تتفوه به؟ الذنب كله ذنبك أنت! تركتها هنا، وحدها، والآن اختفت!..».

تطبق لحظة صمتٍ طويلةً، مريعةً، قبل أن تصيح: «ماذا جاء بك إلى المنزل في ذلك اليوم؟».

يجيب أبوه بتألمٍ: «ينبغي لك معرفة أمرٍ مهم».

يرغب مايكل في العودة أدراجه إلى غرفته، ودفن رأسه في وسادته. لا يطيق سماع المزيد، غير أنه لم يتحرك، يتسمّر مكانه. أبوه في حالةٍ مزريةٍ للغاية.

- دخلتُ في علاقةٍ غراميةٍ، والشرطة علمت.

يرتعد جسد مايكل كله، وهنيهةً طويلةً أخرى تخيم عليهم.

تسأله بنبرةٍ مفعميةٍ بالبُغض، مسموعةٍ بالكاد: «مَن هي؟».

- لا يسعني البوح لك، غير أنها علاقةٌ منتهيةٌ. رافقتها أمس، وهي التي أنهت علاقتنا. لهذا رجعتُ إلى المنزل.

تناهت إليه لطمَةٌ مدويةٌ، لا يمكن أن تعنيَ إلا تلقّي أبيه صفعةً على الوجه من أمه.

تصيح فيه: «اخرج! اخرج من هنا ولا تُعد للأبد!..».

يهرول مايكل على عقبه إلى غرفته، ويحشر السماعات في رأسه، مخرسًا صياحهما.

ينظر إليها المحقق بلدسو في اندهاش.

- ألا تخالينها اختلقت تلك القصة؟

تستوضحه جالي: «أيهما تقصد؟ جينا أم آفيري؟».

- كلتاهما.

تقول متنهدةً بعمق: «أرى أن جينا أخبرتني الحقيقة، إنَّما بشأن الطفلة الأخرى، لا أدري صدقًا. لدى آفيري باعٌ طويلٌ في رواية الأكاذيب، وفق ما وصل لنا. مع ذلك، إفادتها تحتل الصحة».

تأخذ نفسًا وتزفره بقوةٍ متابعةً: «فكر معي، فتاةٌ صغيرةٌ عمرها تسع سنواتٍ، غير مسموحٍ لها بالمشي حتى المدرسة وحدها، خوفًا عليها من السيارات في الطريق. من الواضح أنه لا يُوثَّق بالتزامها إشارات المرور وانتظار الوقت المناسب للعبور، مع أنه يُسمَح لها باللعب خارج المنزل، في الشارع أمامه وفي الغابة خلفه. كذا تذهب إلى بيت شجرةٍ، تلعب فيه دون رقابةٍ. من الجائز استغل شخصٌ ما مكوثها لفتراتٍ بمفردها، فتقرَّب منها، كما أنَّ أصدقاءها قلائل مما جعل استدراجها سهلًا».

تصمت للحظةٍ، تتخيل فتاةً صغيرةً وحيدةً، تدوِّن مذكراتها، لتختتم قولها: «إنه طرف خيطٍ يستوجب علينا تتبعه».

ينفض بلدسو رأسه، رافضًا.

- أولويتنا في الوقت الراهن هي ويليام، والمكان الذي أخذها إليه. طالت محاولتنا في تتبع مسار تحركاته بالأمس، حتى تبيَّن وجوده في المنزل. أفاد أنه غادر في الرابعة وعشرين دقيقة تقريبًا. بحلول فتح هاتفه بعد الخامسة بقليلٍ، (يشير إلى خريطةٍ للمنطقة على الحائط) وُجِدَ هنا بطريق تسعة، وعندما تلقَّى اتصال زوجته، (يتحرك بإصبعه جنوبًا) وصل إلى هنا، على مسافة عشرين دقيقة شمال بلدة ستانهوب، بالقرب من نُزُل النساء، وتأكَّد لدينا وقت وصوله في الخامسة وأربعين دقيقة، مما يعني أنه عاد رأسًا عقب مهاتفة زوجته. لو قتلها، لما تسنَّى له وقتٌ كافٍ للتخلص من الجثة، ساعة من الزمن على أقصى تقدير. سننقل البحث إلى البقعة التي يُحتمل أنه تركها فيها، في ضوء ما بحوزتنا من معطياتٍ. مما سيضيق من نطاق العمل.

يحدِّق إلى جالي، مضيفًا: «تحرَّك فريق البحث بالفعل، لكنَّ أفضل أن نتفقد المكان بنفسك هناك».

يحلُّ الليل، وظلمته تحمل كآبةً، في نظر جالي. مضى على اختفاء آفيري أكثر من أربع وعشرين ساعة. انتهى تنقيب الغابة والأراضي القريبة والحي السكني المحيط بمنزل آل وولر. والآن، تُركِّز الجهودُ على المناطق الموازية لطريق تسعة، حيث يُفترض أن ويليام وولر وِطَّئها ما بين مغادرته المنزل في الرابعة وعشرين دقيقة تقريباً، واستقباله لمكالمة زوجته في الخامسة وعشرين دقيقة.

تنضم إلى فريق البحث المنتشر أفرادُه على طول الطريق السريع. يوجد على كلا جانبيه مزيجٌ متناثرٌ من إنشاءاتٍ تجارية، مساحاتٍ غير مستغلَّة، حاويات قمامة، ومساكن للإيواء، معظمها بناياتٌ خشبيةٌ على أرضٍ فضاء، ويجري النهر على مقربةٍ من الطريق إلى الغرب. ربما ألقاها في النهر أو على ضفته، أو في الغابة. المجهود يتضاعف.

بينما تشارك بالتنقيب، يطرأ في نفسها رجاءٌ ببراءة الأب، وإلا انعدمت أمامهم فرص العثور على جثتها. تأملُ بشدَّةِ العثور عليها حيةً، علَّها هربت إلى مكانٍ ما وستظهر لهم فجأةً، أو يصلون إليها قبل فوات الأوان. بيدَ أنَّها ملَمَّةٌ بالإحصاءات البشعة، إذ خمسة وسبعون بالمئة من الأطفال المعرضين للختف والقتل، يُفتَك بهم في غضون الثلاث ساعات الأولى من اختفائهم، وثمانية وثمانون بالمئة يلقون مصرعهم خلال أربع وعشرين ساعة. الظروف كلها ضدهم.

أعلمتُ «أليس سيتن» زوجَها عن مجيء محققةٍ شرطيةٍ إلى منزلهم. اتصلتُ به في عمله حالما رحلت المحققةُ، ودلفت جينا إلى غرفتها. لا يريحه الأمر مطلقاً، وهو ما اتفقا عليه ضمناً.

رجع زوجها «بيتير» من عمله، وبينما جينا وأخوها في غرفتيهما، يتناقشان بهمسٍ حول الموضوع في غرفة المعيشة. تعيد عليه ما قالت جينا عن آفيري ورفيقها الأكبر سنّاً.

ينفض زوجها رأسه في استهجانٍ، ويقول: «أمرٌ مقرفٌ!».

توافقه؛ يخالجهـا الاشـمئـزازُ نفسـهـ.

يُردِف: «لا تعجبني صداقتهما».

عندئذٍ يعتريهما الانزعاجُ؛ آفيري مفقودةٌ، على الأغلب جثةٌ هامةٌ، والصداقة بين الفتاتين ليست بالأمر الذي يستدعي قلقهما في هذه الأحوال.

يتدارك قوله: «ما أعنيه هو التأثير السيئ للفتاة على جينا، ما دمتِ أطلعتهـا على أمورٍ كذلك».

تومئ أليس. تعرف طبيعة الرجال، وكيف يفترسون النساء والفتيات. أما زوجها فرجلٌ حسن الخلق بلا شكٍّ، وغيره من الرجال كثير. لكنَّ العالم فاض بالنوع الوضع منهم، وتخشى بحقُّ أن أحدهم استمال آفيري. أمرٌ فظيخٌ! مجرد التفكير باحتمالية حدوثه، رهيب.

تقول: «لا يُستبعد أن شخصًا تودد إليها، من البديهي أن تحسب المحققة ذلك. ماذا لو كان هو نفسه خاطفها، ويحبسها الآن في مكانٍ ما؟».

ينظر إليها، والتقزز مرتسمٌ على وجهه.

تستطرد: «الأمر كله يُرعبني، ويدفعني للخوف على جينا، ماذا لو أنه شخصٌ يسكن بالقربِ منَّا؟».

يحيطها بوتر بذراعه، وتتردد بالقول: «ربما هو الفتى الساكن في آخر الشارع».

يسأل زوجها: «أي فتى؟».

الفصل الخامس عشر

لن يذهب راين إلى عمله هذه الليلة أيضًا. بعدما قضى معظم يومه متطوعًا في فرق البحث عن أفيري، سيتوارى بغرفته لما بقي من اليوم. رحل معظم رفاقه بالبلدة للدراسة الجامعية، وما زال على حاله. يتمنى لو استطاع الرحيل مثلهم هذا العام.

ينشغل باله بما وقع بين والديه في المطبخ، منذ قليل. بدا على أبيه أنه يراوغ أمه على نحو ملحوظ، حينما تكلم عن الدكتور وولر. غريبة الطريقة التي ينظر بها إليها، كأنه يعتمد إيلاهما. لم يفعل بها ذلك؟ يستحوذ الأمر على تفكيره كتحسس ضرر مؤلم، والسبب الوحيد الذي يتبادر إلى ذهنه هو ارتياب أبيه في أمر يجري في الخفاء بين الدكتور وولر وأمّه. شيء يتعدى كونهما زملاء عمل في المشفى. كم تثير هذه الخاطرة إزعاجه، على الرغم من أنها تضع تفسيرًا معقولًا لتصرفات أمّه، منذ اختفاء أفيري وولر.

يتابع آل نشرة أخبار الحادية عشرة في غرفة المعيشة، برفقة زوجته. لا يشاهد أخبار آخر الليل في أغلب الأحيان، لكنه لن يفوّتها هذه الليلة. يسترق النظر بين الحين والآخر إلى نورا المسترخية على جانب الأريكة، وتتجاهله عن عمد. لا تطيق -مثلما يتضح- وجوده بالقرب منها. اندسّ بينهما جفاء

من نوع جديد، استحال فتورهما المعتاد إلى حقدٍ جليٍّ. لم يرق لها ما أشار إليه آنفاً عن والد الطفلة المفقودة. لن تستسيغه بلا ريب، وأنّى لها أن تفعل؟ يعلم قدر ويليام وولر عندها، هذا ما تحسّب منه طوال حياته الزوجية. اندهش حينما حالفه الحظ وقبلت الزواج منه امرأةً حسناء مثلاً. انبغى عليه توخي الحذر، بدلاً من التسليم جدلاً بوجودها إلى جانبه. توجّب عليه مداعبة الضجر لما اعتراها، قبل التفاتها إلى عشيقٍ، قبل تجاوز الحدود. لا عشيق لها سوى ويليام من دون شكٍّ، وابتدأ ما بينهما في الصيف الماضي. لم تعد زوجةً صالحةً، ولا أمّاً مجبّةً منذ التقيا، بينما بقي على إخلاصه لها، لم ينجذب إلى امرأةٍ غيرها قط. بدت أنها وحدها من يعاني أزمة منتصف العمر في حياتهما الزوجية، تحسّرت على ضياع شبابها، وجاذبيتها. لو أن ذلك حاله، لرضي بشراء سيارة رياضية حديثة الطراز. ماذا يعادلها عند المرأة؟ مؤكّد لا تهرع كل الزوجات لعلاقة حميمية، كلما خالجهنّ حزنٌ على شبابهن وجمالهن. يتهكم بغصّة، كم هو محظوظ!

افترض به أخذها في رحلة إلى أوروبا الصيف الماضي، ظلّت شهور الربيع متوجسةً واجمةً، اشتدّت أعصابهم جميعاً في تلك الآونة. تطوعت وقتنّذ للعمل في المشفى وتحسّنت حالتها، حتى صارت تدريجياً أكثر بهاءً وبشاشةً من ذي قبل. يضبطها من وقتٍ إلى آخر تطيل النظر إلى نفسها في المرأة، تقوّم كتفيها، وترفع ذقنها، تميله، تتأمله من كل الجوانب. تواظب على ممارسة الرياضة بانتظامٍ، غير أنها ابتاعت مساحيق تجميلٍ حديثة، وملابس جديدةً لارتدائها في المشفى. ازدادت ابتساماتها، وعلت دندناتها وهي تنظف الأطباء. في بادئ الأمر، هنأ نفسه على عدم تحمّله تكاليف السفر إلى أوروبا هباءً، بالإضافة إلى كُرهه للسفر. يا لحمقه! قلبها معلقٌ برجلٍ غيره، تعشّقت رجلاً تحسبه الشرطة مجرماً وقتل ابنته، مما يثير استمتماعه. يتلذذ برؤيتها تتعذّب. ألا إنه عقابٌ على ما انغمست فيه.

حينما يذهبون إلى الكنسية صبيحة الأحد، يجاورها في المقعد، غير مكترثٍ بالإنصات إلى الوعظ الديني، منشغل الذهن بما يدور في خلدها.

أتفكر بعشيقها؟ ماذا يفعلان في حجرة النزل؟ أتسأل الربَّ المغفرة؟ هل يستبدُّ بها الندم على كل خطاياها؟

يتعجب وهو بقربها في الكنيسة، من شرود مخيلتيهما في التلامس الشهواني الذي يجري بحجرة النزل. من ثمَّ يجول ببصره بين الحضور متسائلًا عن عدد الزوجات اللائي يخدعن أزواجهن، وكم من زوجٍ يخون زوجته، ويحرصون جميعًا على سماع الوعظ بالكنيسة كل أحدٍ. رغم علمه أن الخطيئة حوله بكل مكانٍ، لم ينتبه لتسربها إلى داخل منزله.

في الحقيقة، خشي مواجهة زوجته طوال الأسابيع الماضية، مع أنها المسؤولة عن وضعهما، لأنه يهابها. يتخوف من مجابقتها لعينيهِ وإسكاته بحجة لا غبار عليها. قد تجد أنه يحسُن لها تركه وطلب الطلاق، سيضطران إلى العيش متباعدين وتبادل رعاية الأبناء، ستستمر علاقتها بويليام وولر، ولن تأبَّه له. ستتنعم بحياةٍ سعيدةٍ من دونه. مكتبة سرٍّ من قرأ

ربما يؤول الحال بويليام إلى السجن بتهمة القتل. ألنَّ يُعدَّ حدثًا رائعًا؟ رغم شعوره بالفزع لما جرى للطفلة، يُبهجه أنه ليس مصاب أي أحدٍ في الوجود، بل مصاب ويليام وولر. ستلقى نورا درسًا قاسيًا. الخطيئة جزاؤها الموت. إذا ثبتت جناية القتل على الرجل الذي وقعت في غرامه، يشكُّ أن زوجته قد تسعى لخيانته مرةً أخرى.

ينتقل مذيع النشرة إلى خبر اختفاء آفيري وولر، ويوجَّه آل انتباهه إلى شاشة التلفاز. تُعرَض لقطةٌ مصورةٌ لويليام في أثناء خروجه من قسم الشرطة قبيل المساء، يعترضه جمعٌ من الصحفيين، ويتبدَّى الذعر والإنهاك على وجهه. تتحدَّث مراسلةٌ إعلاميةٌ من أمام قسم الشرطة -وشعرها يحركه الريح- عن شاهدٍ يزعم رؤيته لسيارة الدكتور ويليام وولر، تدخل مرأب منزله قرابة الساعة الرابعة بعد ظهيرة اليوم السابق.

يندهش لهذا التحول المفاجئ. لم يأتِ بالأخبار أيُّ شيءٍ قبلاً عن وجود ويليام في منزله بالأمس، جُلُّ ما قيل سابقًا، هو اختفاء الطفلة في طريق عودتها من المدرسة. ما دام أحد الجيران قد رآه، فسيُتغير مجرى القضية. من

المؤكد أنه أخفى ذلك عن الشرطة، والآن افْتُضِح سره، واعتُبر منزله مسرح جريمة.

يرمق زوجته من كثبٍ، تحدّق إلى التلفاز بوجهٍ منقبضٍ، ممتنعٍ لونه في ضوء الغرفة الواهن. كادت تنزل به شفقةً على حالها. يصعب عليها تخيل أن من نامت معه مجرمٌ، وقد وقعت في حبٍّ وحشٍ.

لا ترف عيناها المعلقتان بالشاشة أمامها. يلفها بردٌ شديدٌ بغتةً، كما لو تسرّب دفءُ الغرفة كله. تستنكر ما تسمعه في شأن ويليام ووجوده في منزله وقت الاختفاء. لم أخفى عن الشرطة منذ البداية، إن صدق ما فعل؟ ماذا يعنيه هذا؟ مُحالٌ أن يؤذي ابنته. لا يفعلها ويليام الذي تعرفه.

تقبض يديها في حجرها، مذعورةٌ بشدةٍ. لا ترغب لزوجها، وهو يجلس ساكنًا في مقعده بالقرب منها، أن يلمح التشوش الذي ألمَّ بها. أمست على يقينٍ شبه تامٍّ بأنه على درايةٍ بعلاقتها مع ويليام، أو يرتاب على أهون تقديرٍ. ستعثر الشرطة على هاتفه، قد تطرق باب منزلها بين لحظةٍ وأخرى، لاستجوابها. سيتبين آل حينئذٍ من كل ما خفي عنه. حتى في أحلك الهواجس التي راودتها عن افتضاح علاقتهما الغرامية، لم تتصور قط أن تنكشف بهذه الطريقة.

إذا جاءت الشرطة، بمَ ستُفصح؟ لن تستطيع الإنكار. لا يسعها سوى البوح بالحقيقة، تشكُّ أن ويليام قد يلحق بابنته الضرر. ستدافع عنه بكل ما أوتيت من قوةٍ، غير أنَّ حياتها، على النحو المألوف لها، ستنتهي. ماذا سيحدث لها؟ ماذا سيحدث لأبنائها؟ ستتحطم أسرتهما، بأكثر طريقةٍ مخزيةٍ وفاضحةٍ، وسيكروهونها على ما ألحقته بهم لما بقي من الزمن.

بعد لأيٍ، تبطل التلفاز ويصعدان إلى غرفتهما، تتمنى في كل مرةٍ أن يخلدا إلى النوم في غرفتين منفصلتين. لليلة الثانية على التوالي، يجافيهما النوم، تُحْمَلَق إلى السقف متسعة العينين، سارحة الذهن في ويليام. إلا أنَّها هذه الليلة تتساءل في سريرتها عن سبب عودته مبكرًا بعد الظهيرة، وسبب إخفائه ذلك.

الفصل السادس عشر

يحلُّ آخر الليل، ومن المفترض بجالي العودة إلى منزلها، تحتاج بشدة إلى نوم عميق، بيد أنَّها استدُعيتُ إلى قسم الشرطة بعد انقضاء عملها بالبحث الميداني. تحاول تدفئة نفسها بقدرٍ من الشوكولاتة الساخنة، وإذ يدنو منها أحد ضباط الاحتياط.

يبلغها متحمساً: «تلقينا اتصالاً على خط البلاغات. تدَّعي المتصلة أنَّها رأت أفيري تركب سيارة أحد الأشخاص من أمام منزلها في أول شارع كونوت، عند منعطف جادة جرينلي، قرابة الرابعة والنصف من بعد ظهيرة أمس».

تبدّد إرهاقها، وتسارع نبضها.

- أهي واثقة من هوية الطفلة؟

- قالت إنَّها تعرَّفتُ عليها، ولم ترَ وجه السائق، لكنَّها تعرف صاحبها. رجلٌ يسكن في الشارع ذاته حيث تقطن عائلة وولر.

باغتمامٍ يُردِّف: «لم تفصح عن هويتها، وأغلقت الخط بوجهي».

تنبس جالي: «يا للسخف!».

تبغض مثل تلك الاتصالات مجهولة المصدر. غالبيتها مقالب، غير أنَّ هذا الاتصال قد يحمل طرف خيط، التأكُّد مطلوبٌ. لماذا تأخَّرت المرأة المتصلة حتى اللحظة لتبلِّغ عمَّا رآته؟ مضى أكثر من يومٍ على اختفاء أفيري. إن

صدقته إفادتها، فهي من دون شك تسكن في هذه المنطقة، حتى تُميز صاحب السيارة، بل وتقطن بالشارع الطويل ذاته.

تلقي نظرةً على ساعتها، تخطى الوقت منتصف الليل. إنما لا بد من مهاتفة بلدسو في منزله.

تسأل الضابط: «ما اسم الرجل؟».

- راين بلانشارد.

تستلقي نورا ساهدة على جنبها، شاردة العينين في الساعة الرقمية فوق منضدة السرير، وغطيط زوجها النائم جوارها بأذنيها. الساعة الواحدة وإحدى عشرة دقيقة صباحًا. لمّا سمعت رنين جرس الباب، انتفضت من الهلع. يرنُ الجرس ثانيةً، فتنهض عن السرير مسرعةً، وتُحَكِّم الرداء حول جذعها. تترك آل على حاله يغطُّ في نومه، وتخرج من الغرفة. مَن غير الشرطة قد يأتيهم بعد انتصاف الليل؟

تنزل الدرج مرتجفةً. تفتح الباب الأمامي وتجد شخصين، رجلًا وامرأةً، بملابس مدنية ينتظران على عتبة منزلها، وإذ يتسلل إلى الداخل صقيع ليلٍ خريفية. يرفع الرجل شارته معرفًا عن نفسه بصفته المحقق بلدسو، رآته على التلفاز، لكن لم يعلق بذهنها اسم زميلته، يُعيق ذعرها الشديد قدرتها على الاستيعاب. تشدُّ الرداء حول عنقها؛ تشعر بالضآلة في ثياب النوم.

يستوضح المحقق: «هل أنتِ السيدة بلانشارد؟».

- نعم.

- نعتذر عن حضورنا بوقتٍ متأخر. أسمحين لنا بالدخول؟

تفسح لهما ليدخلا. ماذا بيدها فعله غير ذلك؟ البرد يسري بجسدها ويزداد توغلًا، فتشدُّ الرداء حولها بإحكامٍ أكبر. ترتعد، وعلى الرغم منها تتحامل على نفسها لتواجههما، والخجل يعتصرها. الخيانة الزوجية خطيئة لا تُغتفر، وسيُقتَضَح أمرها للجميع.

يقول: «نودُّ التحدُّث إلى ابنكِ راين. هل هو موجود؟».

تسأل: «ماذا؟!».

أمرٌ لا معقول، لمَ يريدان التحدُّث إلى راين؟

يكرر المحقق: «نريد أن نتحدَّث إلى ابنكِ. هل هو موجود؟».

- إنه نائمٌ في سريره.

- هلَّا أيقظته، من فضلك؟

تدير لهما ظهرها، متجهَّة صوب الدرج. تفتح باب غرفة ابنها، وذهنها مشتت. ليس مجددًا!! لن تتحمل تورطه في مشكلةٍ تتعلق بالمخدَّرات ثانيةً. تشعل الضوء، لكنَّه لا يتحرك. تقترب من السرير وتهزُّ كتفيه، قائلةً بالبحاح: «جاء محققان من الشرطة، يا راين. يريدان التحدُّث إليك».

يرفع بصره نحوها ناعسًا ويقول في بلاهةٍ: «ماذا؟ لماذا؟».

- لا أدري.

في الردهة، يظهر آل عند باب غرفة نومه، يسأل وهو يفرك عينيه نافضًا النوم منهما: «ما الخطب؟».

تردُّ نورا: «الشرطة هنا، وتسأل عن راين».

تلحظ الاهتمام الفوري على ملامح زوجها. يجلب رداءه وينزل ثلاثتهم الدَّرج. تسلَّط ناظريها على ابنها، في بنطال نومه وقميصه الخفيف، وشعره المشعث وقد تفرَّقت خصلاته على جانبي وجهه، لكن ما تستغربه هو فزعه لدى مرأى المحقِّقين واقفين بانتظارهم في بهو الدَّرج.

تشير عليهم، متوليةً إدارة الموقف تلقائيًا، رغم المرارة التي تجيش بجوفها: «لنتخذ مجلسنا بغرفة المعيشة».

ما يحدث أقرب إلى الحلم. لن تحتل ذلك الوضع في حال تكراره.

يقعد جميعهم متقابلين.

يقول المحقق بلدسو: «هلَّا أخبرتنا من فضلك، أين ذهبتَ بعد ظهرية البارحة، يا راين؟».

يستحيل جزعها المحموم إلى دُعرٍ حقيقيٍّ. ماذا يجري بالضبط؟ تخطف نظرةً إلى زوجها المنذهل، ثم تعيد انتباهها إلى راين الذي يبدو فجأةً ولدًا صغيرًا تملّك منه الارتباكُ.

يجيب: «أحتاج.. أحتاج إلى التذكُّر».

يقول بلدسو، بنبرةٍ بدت كسخريةٍ منه، مما يجعلها تكرهه من فورها: «خذ وقتك».

يقول راين متلعثمًا: «ألغيت مناوبتي البارحة. أعمل عادةً من الواحدة إلى التاسعة، قبل خفض ساعات العمل مؤخرًا».

- إذا، أين كنت؟

- في المنزل هنا. مكثتُ لبعض الوقت.

يلتفتُ نحو نورا.

- رأيتني قبل مغادرتك، أتذكرين؟

تومئ بالإيجاب.

- هذا صحيح. رأيته في المنزل.

- ومتى غادرتِ تحديدًا، يا سيدة بلانشارد؟

تجيب، والحرارة تصعد إلى وجهها جرأً الكذب: «خرجت لقضاء بضع مهام، نحو الثانية أو الثانية والنصف».

خرجتُ للقاء ويليام في النزل، غير أنهما لم يأتيا من أجل علاقتها معه، تدرك ذلك. المسألة أخطر بكثير.

يسأل المحقق: «ماذا فعلت في تلك الأثناء، يا راين؟».

- لبثتُ.. لبضع ساعاتٍ، وبعدها خرجتُ بسيارتي.

- بمفردك؟

يومئ راين.

- نعم، بمفردتي.

يُخرج وجهه بحمرة، ويتحاشى عيني المحقق.

يستفسر بلدسو: «في أي ساعة خرجت؟».

- لا أتذكر بالضبط. أعتقد قرابة الرابعة والنصف.

ترقب نورا المحقق الذي يتبادل نظرة جادة مع زميلته.

- إلى أين قُدت سيارتك؟

- تجولتُ خارج البلدة، لتمضية وقت الفراغ فحسب.

- إلى أين على وجه التحديد؟

- على ما أذكر، قُدتُ شرقًا على طرق الضواحي. لم أجد ما أفعله غير ذلك.

يسأل المحقق: «ما نوع السيارة التي قُدتها؟».

- سيارتي الخاصة، طراز «شيفروليه سبارك 2015».

- هل رآك أحدٌ تقودها؟ هل تكلمت مع أحدٍ؟

يبتلع راين ريقه.

- لا أظن. لم أكلّم أحدًا، ولا علم لي إذا ما رآني أحدٌ.

يقول بلدسو: «من الأفضل أن تستعد وترتدي ملابسك. نودُ اصطحابك

معنا إلى قسم الشرطة لمتابعة الاستجواب، إذا ما يناسبك».

تُحملك نورا في دهشة، لا تقدر على استيعاب ما يجري. جُلُّ ما أدركته

هو الذعر.

الفصل السابع عشر

تصلَّب راين من الرعب. يجفُّ حلقه، وترتجف فرائصه. على جناح السرعة، ارتدى بنطال جينز وقميصًا نظيفًا ومعطفًا، ومن ثم أُحضر إلى مخفر الشرطة. في جوف الليل، المنازل بالشارع مظلمة، من الجيد أن لا أحد من الجيران يشاهده. ذهب معهما طوعًا، من دون أصفاد أو ما شابه. أمه بصحبته في المخفر تمكث بردهة الانتظار، لم يُسمَح لها بدخول حجرة الاستجواب معه، على الرغم من إلحاحها المستميت، لأنه لم يُعد في حكم القاصر. كما مُنعت من مرافقته في سيارة المحققين، لذا تبتعثهم بسيارتها. طالبتهما أن يوضحا لها حاجتهما لاستجوابه، ولم ينبسا ببنت شفة. تنتظره بالخارج، وهو هنا وحده، خائفًا ومرتعداً.

يقعد المحققان إزاءه، بعدما قرأ عليه حقوقه. كل ما يجري حوله عجيبٌ، كأنه بكابويس مزعج. ابتدأ التسجيل بالفيديو، ومعه تهتز رجله اليمنى لا إرادياً. يخشى أن يبول على نفسه.

يجاهد ما به ليقول: «هل أنا مقبوضٌ عليّ؟».

يجيبه المحقق بلدسو: «لا. لكننا ارتأينا إطلاعك على حقوقك كاملة، قبل البت في استجوابك، نظرًا إلى المعطيات».

- أي معطيات؟

يُخلي صوته من الذعر بصعوبة.

- لدينا شاهدٌ على رؤية آفيري وولر تركب سيارتك، نحو الرابعة والنصف بالأمس.

يكاد يُغمى عليه، يقول: «أحتاج إلى حمام».
ينبغي عليهما إيقاف التسجيل.

تنتظر نورا وحدها في الردهة، تتمالك أعصابها بشقِّ الأنف، لا تصدق أيما يجري. ليت آل برفقتها، إنَّما يتوجب على أحدهما البقاء مع فايت في المنزل. تحاول إقناع نفسها أن بالأمر غلطةً ما، ومن الأفضل التعاون مع المحققين وتلبية ما يطلبان حتى يمضي الاستجواب بسلام. تعامل المحققان معها بدمائية، وأكدَّا أنهما يريدان التحدُّث إلى راين وتوجيه بضعة أسئلةٍ إليه فحسب، لذا خالت المسألة ستستغرق ساعةً بالكاد، ثم يعودان إلى المنزل.

ما إن وطئا المخفر، اتخذ الحال منحىً أشدَّ سوداويةً. لم يسمحا لها أن ترافقه، مما أصابها بالفرع. تجهل ما يدور بالداخل تمامًا. ابنها رجلٌ راشدٌ في نظر القانون، لكنَّه في عينيها لم يزل ولدها الصغير، ولدها! رغم كل ما وقع فيه العام الماضي. كان وقتئذٍ في حكم القاصر، وبوضعٍ مختلفٍ.

مضت أكثر من نصف ساعة، وهم بالداخل. يصل إلى سمعها خطوات أقدامٍ مقتربةٌ قادمةٌ من نهاية الرواق، فتلتفت إزاءها. للوهلة الأولى، لم تستطع تعرُّفه؛ لم تره من قبل دون بذلته الرسمية، إلا أنَّه «أوليفر فولر» نفسه، المحامي الجنائي. استنجدت به بعد منتصف الليل، فأتى في بنطال جينز وقميصٍ قطنيٍّ وحذاءٍ خفيفٍ، ويحمل بيده حقيبة العمل المعتادة. يلمحها جالسةً في مقعدها، فيدنو منها.

يسأل: «ما الخطب، يا نورا؟».

تقول: «في الغالب اشتبه الأمر على المحققين، يستجوبانه عن الطفلة المفقودة».

يعبس وجه المحامي. يلتفت مبتعدًا في الرواق، ويطلق باب حجرة الاستجواب رقم اثنين. يُفَتِّح الباب ويختفي وراءه. عالمها ينهار أمام ناظريها! تضيق أنفاسها. تُخْرِج هاتفها وتتصل بزوجها، لتُعلمه بوصول أوليفر فولر.

الوقت تعدَّى الثانية صباحًا، وجالي بحاجةٍ إلى قدح قهوة. على أي حال، حضر محامٍ عن الفتى، وستطول المقدمات من الجانبين. يقول فولر: «أحتاج إلى بضع دقائق مع موكلي».

تترك جالي وبلدسو الحجرة، متجهين إلى استراحة الغداء لاحتساء القهوة، وتحاشيا لقاء والدته راين بلانشارد، الجالسة على أعصابها في ردهة الانتظار. يخال جالي الأسف لمصابها. تبدو امرأةً لطيفةً، وأمًّا عطوفًا. تتمنى لأجل خاطر هذه الأم، ألا يكون ابنها خاطفًا ولا مجرمًا. إنَّما فُقدت ابنة أمٍّ أخرى، وحياتها ارتبكت على نحوٍ رهيب. لذا تستحق الأسف بدورها.

يسألها بلدسو: «ما تصوركِ عن الفتى؟».

تهزُّ كتفيها.

- لم أكوِّن تصورًا بعد.

- سارع بفضاضةٍ إلى طلب محامٍ.

على الرغم من مشاركته الرأي، تقول: «لا تُلْمه».

أشدُّ ما يضايقها هو جهلها بهوية الشاهدة. إذا لم يُفَضِّص لهما راين بأيِّ شيءٍ قد يفيد القضية، سيضطران إلى إخلاء سبيله.

يسمعان باب الحجرة يُفَتِّح في الرواق، ويشير لهما المحامي فيتخذان سبيلهما عائدين.

يبدأ تسجيل الاستجواب بالفيديو. بعد الاستفتاح اللازم في مقدمة التسجيل، يقول بلدسو: «كما وضَّحنا لك آنفًا، يا راين، لدينا شاهدةٌ على رؤية أفيري وولر تستقل سيارتك من تقاطع كونوت وجرينلي، في الرابعة والنصف تقريبًا يوم أمس».

ترقب جالي الفتى المُحْمَلَق إلى الأمام، ووجهه الشاحب على نحوٍ مروع. تنتفض حنجرته البارزة وهو يزدرد ريقه.

يسأل المحامي: «مَن الشاهد؟».

- لسنا على استعدادٍ للكشف عن هويته في الوقت الراهن.

يقول المحامي: «سأعيد السؤال بطريقةٍ أخرى. هل الشرطة قادرةٌ على استدعاء الشاهد متى تشاء؟».

لا يردُّ بلدسو. يدور بخلد جالي، تَبًّا! لقد نال منهما.

يُردِّف فولر: «فهمت الوضع. لا تملكان اتهامًا ضد موكلي، إلا إذا اعترف بمحض إرادته أنه قاد سيارته حتى التقاطع في أول الشارع الذي يسكن فيه، في توقيت اختفاء آفيري وولر. هل أصدرتما مذكرة اعتقال؟».

- لا.

يقف فولر ويلتفت نحو موكله.

- بإمكانك الذهاب، يا راين.

ويضيف مغادرًا الحجرة: «يُرجى إعفائنا من أي هراءٍ في المستقبل، أيها المحققان».

تجول إيرين في المنزل بلا هوادهٍ، يجافيهما النوم، هزيلة ومضطربة، كَمَن يطارد شبحًا ولا يهنئ له بالٌ. تنوح ريح أكتوبر بكل ركنٍ هنا. تجاوز الوقت الثانية بعد منتصف الليل، وكلما أغمضت عينيها، تتراءى لها آفيري، والخيالات بذهنها لا تُحتمَل. تطمئن على مايكل للمرة الثانية، الشكر للرب أنه خلد إلى النوم أخيرًا. شاهد أباه وهو يحزم حقيبته ليترك المنزل. ذهب للمبيت في فندق إكسيلسير. سمعها مايكل بلا ريبٍ، وصار على درايةٍ مثلهما بما فعله أبوه.

قلبها يعتصره الألم على ابنها وظنه أنه المذنب حيال كل ما يجري. حاولت تهدئة باله ووضّحت له أن قرارات الآخرين لا تقع في مسؤوليته، ولا حتى

تصرفاتهم. يلوح بذهنها ما قرأته ذات مرة عن سقوط الطائرات، لا يسببها خطأً بعينه، وإنما سلسلة من الأخطاء تنتهي إلى كارثة. لو لم تُسئ آفيري السلوك في صفِّ الكورال، لو لم يجعلها مايكل تعود وحدها في ذلك اليوم وأخبرها بمكان المفتاح، لو جدها بانتظاره في المدرسة. لو لم يعد زوجها في ساعة مبكرة، لو لم ينغمس في علاقة مع امرأة غيرها، لو ذهب إلى عمله كما افترض به بدلاً من انشغاله بعشيقته. لو لم تقطع تلك المرأة علاقتها به، لما جاء إلى المنزل قط. لو اتضح أن زوجها بريء، فقد أذنب بترك آفيري في المنزل، وحدها. لولا أنها فتحت الباب لشخص غريب، أو غادرت بمفردها، لما اختطفها وحشٌ عديم الرحمة. لو.. لو.. لو...

يقف آل في غرفة المعيشة، محدّقاً إلى زوجته وابنه، إذ يتخذان مجلسيهما متجاورين على الأريكة ما إن عادا من مخفر الشرطة. لم ير ابنه مرتجفاً هكذا من قبل، حتى عندما تورط في مسألة المخدرات الخريف الماضي. تغيب عن سنته الجامعية هذا العام لأنه فرض عليه أداء خدمة اجتماعية. والآن، يراه أمامه شاحباً ومذعوراً.

أيجدر بهما الذعر مثله؟

تلتقي عيناه عيني زوجته، الفزع يطلُّ منهما، لكن تتظاهر بالعكس، أن الحال على ما يرام.

يسأل آل: «أهكذا انتهت المسألة؟ يزعم فولر أن لا شاهد من الأصل لدى المحققين، وأنهما اختلقا تلك الحجة. لم قد يفعلان؟».

ينظر إليه راين.

- يُرجح أن شخصاً ما أبلغ بإفادّة مُخفياً هويته، يدّعي فيها رؤيته للفتاة تركب سيارتي. لكن هذا ليس صحيحاً. لم أقابلها في ذلك اليوم قط.

- لماذا قد يبلغ أحدُ الشرطة بإفادّة مزيفة؟

يحدّق إليهما مذهولاً، رغم أنه ما من داعٍ لارتيابه؛ قد ينحط الناس إلى مستوى دنيء، إذ يكذبون طوال الوقت. تكفي نظرة إلى زوجته للتيقن من

ذلك. وكذا من الناس حقوقٌ ومخادعٌ. يتفاقم الحقد ويتفشى في البلدات الصغيرة، حيث الكل مطَّلَعٌ على شأن الكل. لكن مَنْ يسعى للإيقاع بابنه؟ يردد شكّه بصوتٍ عالٍ: «مَنْ أمكنه فعلها؟».

يصيح راين بقوة: «لا علم لي!».

يتخذ موقفًا دفاعيًا، يتصرف كالأولاد الصغار. يذكر كيف أنكر راين أمورًا عدَّةً في السابق، وبانت الحقيقة بعدئذٍ. ارتعب والداه، وخاب أملهما فيه، رغم أن تعاطي المخدَّرات معضلةٌ مألوفةٌ بين المراهقين. من المستبعد أن ابنهما خاطفٌ، أو متحرشٌ بالصغار. يميل إلى الفتيات من عمره، وهو أمرٌ لا يحتمل الشك. إذ واعد رفيقته «ديبي» لما يقارب العام، حتى التحقت بالدراسة الجامعية في نهاية أغسطس. شخصٌ ما يكذب، وابنه بريءٌ. مُحالٌ أن يكذب عليهما هذه المرة.

لم يمسك لسانه: «الأب هو الذي فعلها، بالتأكيد».

توليه زوجته نظرةً حادةً، دون التفوه بحرفٍ. يتعجب إذا ما يخامرها إحساسٌ بالواجب تجاه حماية عشيقتها.

يسمعون جميعهم في آنٍ واحدٍ، حركةً بالأعلى، وتظهر فايث في منامتها تنزل الدرج، متسائلةً: «ما الخطب؟».

يحطُّ قلبه اضطرابهم إلى إخبارها. تجاوزت الأزمة بصعوبةٍ حين تعرَّض أخوها للمعضلة السابقة، واجهتها بعض المضايقات من زملائها بالمدرسة، وتأثر تحصيلها الدراسي. استبدَّ بهما القلق عليها، حتى بدأت تستعيد حيويتها منذ مدةٍ قريبة. والآن، تأتيهم هذه المصيبة.

الفصل الثامن عشر

يعود ويليام إلى فندق إكسيلسير، دون زوجته وابنه هذه المرة، وينزوي في منتصف الليل الحالك على المقعد الوحيد بالحجرة، متأملًا حاله. جذب إليه الأنظار الفضولية في أثناء حجز حجرة منفردة. يجزم أن الصحافة تتحدث حول الخبر، من الواضح أن زوجته طردته، مما يستعر له وجهه خجلًا.

تحول ويليام وولر إلى شخصٍ منبؤٍ، بعد تقديره من الجميع هنا في البلدة. كم تتبدل الأحوال بهذه السرعة؟ تكرهه زوجته، رأى في قسَمات وجهها لَمَّا أخبرها بما باح به للشرطة: الاستنكار والاشمئزاز، الحنق والبغض. أخرجته من المنزل دون أملٍ محتملٍ في رجوعه. لا جرم أن ابنه يكرهه مثلها. سمع جدالهما العنيف قطعًا، وأدرك ماهية أبيه الكاذبة المخادعة. راقبه ابنه بوجهٍ مبهُوتٍ مرتعِبٍ وهو يحزم حقيبتَه. طلب ويليام إجازةً ممتدةً دون أجرٍ من عمله إذ تحسبه الشرطة قاتلاً، ويخاله الإعلام مجرمًا. هل سيصدق ببراءته كلُّ مَنْ يعرفه؟ هل سيصدق زملاؤه بالمشفى ومرضاه بعياداته، أو سيرغبون في عودته إلى العمل؟

يسرح ذهنه إلى نورا. هل تصدق أيًا مما يتداوله الناس؟ هل تحسبه مثلهم قتل ابنته؟ ليت باستطاعته إعادة الزمن إلى الوراء، لما حدث كل ما يشهده.

يخطر بباله مهافتها، لكن لا يمكنه الاتصال على هاتف منزلها، قد يجيبه أحدٌ غيرها. تخلّصت أغلب الظن من هاتفها السري المؤقت. لعلها لم تفعل.

بوسعه محاولة الاتصال بها في الغد، وقت انشغال زوجها بعمله، كالمعتاد. سيبحث عن هاتفٍ عموميٍّ، لن يجازف بمهابتها من الفندق، كما تحفظت الشرطة على هاتفه الخلوي. يريد طمأننتها أنه لن يورطها في مشكلاته، وأنه رجلٌ يفي بكلمته. يريد لها أن تعرف قدر حبِّه لها، أن تؤمن ببراءته، وتصدقَه.

في صباح الخميس، تحتسي جالي فنجانها الثاني من القهوة بعد ثلاث ساعاتٍ من النوم فقط. لم تثمر جهودِ فرق البحث الميداني تحت المطر المنهمر. بحلول ظهيرة اليوم، سيكون قد مرَّ ثمان وأربعون ساعةً على اختفاء الطفلة. ينخطف قلبها لمجرد التفكير. تتعقب الوقت كأنما تدقُّ عقارب ساعةٍ داخل عقلها.

زار أفراد الشرطة كل مستودعات التخزين بالمنطقة التي قد يستغلها ويليام وولر. عرضوا صورته على العاملين، ولم يتذكر أحدهم رؤيته لرجلٍ يشبهه استأجر حاوية تخزينٍ ودفع نقداً. لو قتلها وأخفى الجثة، فلم تُتَح له فرصةٌ لينقلها إلى أي مكانٍ، لأنه تحت مراقبةٍ مشدَّدةٍ. لو تمكَّن من مواراة الجثة خلال ذلك الزمن الوجيز الذي توفَّر له، فقد أنجز عملاً فائق الجودة. ما الذي تغفله الأعين هنا؟

الخطوة التالية هي التنقيب في منطقة الضواحي، شرق البلدة، حيثما ادَّعى راين بلانشارد نهبه باتجاهها. لا أدلة كافية لديهم لاستخراج سجل مكالماته من أجل تحديد مساره بدقة. يتطلب هذا دليلاً دامغاً، ولا يُعدُّ بشهادة امرأةٍ مجهولةٍ، حتى لو حياة طفلةٍ على المحك.

يقطع سيلَ أفكارها أحدُ الضباط: «محققة جالي!».

تدير رأسها نحوه.

- نعم، ما الأمر؟

- حضرت امرأةٌ لمقابلتك. تدعى السيدة سِيتن.

إنَّها والدة جينا. تنهض وتتبعه إلى حيث تنتظرها، جالسةً في شموخٍ على أحد الكراسي البلاستيكية. ما إن تقع عينها على جالي، ترتخي قسمات

وجهها. تسألها جالي، على أمل تذكُر جينا التي لم تحضر معها لشيء آخر: «كيف أساعدك، يا سيدة سِيتن؟».

- خاطبيني باسمي أليس، من فضلك. أيمكننا التحدُّث؟

تقول جالي وهي ترشدها في الرواق، إلى حجرة استجوابٍ شاغرةٍ لتحدُّثًا على انفرادٍ: «لا مانع طبعًا».

تُلقي أليس نظرةً سريعةً على الحجرة، كما لو توقعت بعض التفاصيل لتتمعن فيها، غير أنَّه لا يوجد ما يلفت النظر هنا.

تسأل جالي: «ما سبب زيارتك؟».

تتململ أليس في مقعدها، ثم تستهل بالقول: «لست واثقةً مما جئتُ له».

- ما دام لديك أيُّما يتعلق باختفاء آفيري من وجهة نظرك، فيجب عليك إطلاعنا عليه. ويرجع لنا تقرير إذا ما يفيد أم لا.

تومئ أليس متفهمَةً.

- أعي تمامًا، ولهذا جئتُ إليك. لكنَّ ينتابني بعض الحرج مما لديَّ عن الاختفاء. إذ لا يوجد بين يديَّ إثباتٌ أو ما شابه.

تومئ جالي مشجَّعةً.

- لا عليك، أخبريني ما لديك.

- ذُهِلْتُ مما حكته لك جينا عن رفيق آفيري. ابنتي في مثل عمرها، وأزعجني ما سمعتُ كثيرًا. لا يُحبَّذ للفتيات التفكير في تلك الأمور في

سنهن الصغيرة.

تعلّق جالي، مترقبةً دخولها في صلب الموضوع: «معكِ حقٌّ».

تتردد المرأة: «الأمر يتعلق بذلك الفتى. إنه في الخامسة أو السادسة عشرة، حسبما أذكر».

- أي فتى تقصدين؟

- يُدعى «آدم ونتر». يسكن في الجهة المقابلة لنا من الشارع، على مسافةٍ قريبةٍ من منزل آل وولر. وتصرفاته.. مريبةٌ جدًّا.

- لم تجدينها مربية؟

- الفتى مختلفٌ. لا أدري مشكلته على وجه الدقة، متوحدٌ غالبًا. لا يتكلم مع أي أحدٍ أو ينظر في عيني أحدٍ. يرتاد مدرسةً خاصةً. ألتقيه في الجوار، ودومًا ما أجده وحده، لا أصدقاء له على ما يبدو.

تسكت ثم تضيف: «لا أصدقاء لدى آفيري أيضًا. أعني، ما بينها وجينا نوعٌ من الصداقة، لكن جينا لا تحبها في الواقع، بل تُحسن معاملتها فحسب. آفيري شديدة الـ... يصعب في كثيرٍ من الأحيان أن يحبها أحدٌ».

لا مناص من كظم نفورها من المرأة والرياء البيّن في كلامها.

تسألها: «هل ذكرتُ جينا شيئًا عن الفتى آدم؟».

تسترسل: «ليس بالضبط. سألتها عمّا إذا كان آدم هو الفتى المقصود، وقالت بأنّها لا تعرف. هذا الفتى جميل الملامح، ولا يُستبعد وقوع آفيري في غرامه. رأيتهما معًا ذات مرة، يتحدثان في الطريق. استغربتُ حينئذٍ لأنه لا يتحدث إلى أي أحدٍ على الإطلاق».

- أليدك فكرةٌ عمّا دار بينهما؟

- أراها طائرته المسيرة. يملك طائرةً مسيرةً حقيقةً.

- مسيرة؟

- نعم، طائرةٌ آليةٌ تطير عن بُعد.

- أعرف ما الطائرة المسيرة.

تردّف: «على أي حال، تراءى لي أن الفتى هو الرفيق الذي تكلمت عنه آفيري. ارتأيت إخبارك على الفور. إنه فتى غريب الأطوار، نبّهت على جينا الابتعاد عنه».

تقف جالي قائلةً: «أشكر، يا سيدة سيتن».

تتوق للخلاص منها واستئناف العمل. بيد أن أليس تلبث مكانها، قائلةً: «رأيتُ أمرًا الليلة الماضية».

تستحثها جالي: «ماذا رأيت؟».

- بقيتُ ساهرةً حتى ساعة متأخرة ليلاً، ورأيتُك ومحققاً آخر تصحبان راين بلانشارد معكما بالسيارة. هل هو مشتبه به؟ هل تعتقد الشرطة أنه خاطفُ أفيري؟
تهزُّ جالي رأسها.

- لا يسعني إخبارك بشيء.
وأخيراً، تقف وتمسك حقيبتها قائلة: «لا يمكن التكهّن بما تحمله الأيام، ألا تتفقين معي؟».

حالما انتهت جالي من مقابلة أليس سيتن، يراها بلدسو ويلوح لها لتدخل غرفة مكتبه. تستشعر عدم سروره.

تسأل متخذةً مقعدها إزاء مكتبه: «ماذا جرى؟».

- جاءنا التقرير الأولي للطب الشرعي بخصوص سيارة وولر، والنتيجة لا شيء. لا شيء حريفاً! بالتأكيد مسح الأدلة التي قد تُدينه كافةً.
يخطط التقرير على سطح المكتب متأففاً.

تقول: «وأنتى له الوقت لفعل ذلك؟ لم يُنح له وقتٌ كافٍ».

يلتفت نحوها.

- إذا ما فعلها، فهو أذكى مما يُبدي. ألقى جثتها في مكانٍ مجهول لدينا، ثم توقف عند مغسل للسيارات ونظّف صندوق السيارة. وجّهي تعليماتك إلى أحد الضباط ليتفقد مغاسل السيارات في المنطقة بأكملها. قد نتوصل إلى تسجيلٍ مصوّرٍ أو إلى شخصٍ يتذكره. من صندوق سيارته يشعُ نظافةً هذه الأيام؟ نظّفت سيارته مؤخراً، من دون شكّ.

تومئ جالي.

الفصل التاسع عشر

«جوين ونتر» أمٌ عزباء، وآدم، ولدها الوحيد أغلى عندها من حياتها. بيدَ أنه مصابٌ بالتوحد، وكلاهما يعاني الأمرين منه. تخاف على مستقبله إذ إن حياتهما معركة لا تنتهي، تجول العالم وفوق كتفها طفلٌ متوحدٌ، وطاقتها مستنفدةٌ على الدوام. هجرهما زوجها وآدم في عامه الرابع، لم يَكُنْ على قدر المواجهة. عجز عن احتمال انهيار الأعصاب المتكرر، الإحراج أمام الآخرين، نظراتهم الجارحة، افتقار نمط الحياة الطبيعي، وممارسة الأمور الطبيعية. وجدا الحياة مع آدم على النقيض مما توقعاه حينما قررا بناء أسرة. استحالت عليهما المهام العادية التي تنجزها الأسر الأخرى دون تفكيرٍ، دون أخذ مشكلاتِ آدم الحسية واضطراباته السلوكية في الحسبان. لذا تركهما «مارك» وتولّت الوضع وحدها مجبرةً. واجهتها أسوأ المعضلات مع المدارس، لكن تحسّن الحال منذ التحاقه بمدرسةٍ خاصةٍ، إذ يتفهمه المعلمون على نحوٍ أفضل. بات أقل انزعاجًا، وأكثر هدوءًا، وحوله أولادٌ في مثل حاله، يتشارك معهم اهتماماته. أولادٌ نبهاء، يتعرّفون على العالم بطريقةٍ مختلفةٍ.

تسمع دقًا على الباب، فترفع بصرها عن حاسوبها. تعمل مسؤولية حساباتٍ من المنزل، وتتخذ من طاولة الطعام مكتبًا لها. قلّما يُطرق باب منزلها في أثناء النهار، من المحتمل أن ضباط الشرطة أتوا مجددًا، إذ يذهبون ويجيئون

في الشارع طوال اليوم بحثًا عن الطفلة المفقودة. تفتح الباب لتجد امرأة غريبة واقفة أمامها.

تقول: «بمَ أساعدكِ؟».

تُظهر لها المرأة شارتها، بالكاد أَلقت نظرةً عليها. يُخَيَّل إليها على الفور أن ابنها أصابه مكروه. يكفيها ما تلقته من شكاوى بشأنه خلال هذا العام. تقول المرأة: «أنا المحققة جالي، بشرطة ستانهوب. أأسمحين لي بالدخول؟».

يخفق قلبها بضراوةٍ قائلةً: «تفضلني طبعًا».

- إننا نحقق في اختفاء آفيري وولر الثلاثاء الماضي.

تومئ جوين. إذًا فزيارتها لا علاقة لها بآدم، وإنما هو تحرُّ إضافي، على الأغلب يُعاد تدقيق النظر في التفاصيل. جاء شرطيان بالفعل يوم اختفاء الطفلة، ولم تُدلِ بما قد يفيد بحثهما؛ لم ترَ هي ولا ابنها أي شيء. تقود المحققة نحو غرفة المعيشة، وتقعدان.

تقول المحققة: «علمتُ أن لكِ ابناً يُدعى آدم».

يا إلهي، ها نحن ذا مجددًا! تتأهب للدفاع عنه من فورها. أضنتها سنوات على ذلك المنوال. المسألة بخصوص ابنكِ آدم... كم من مرة سمعتها؟ تقول بضيق: «حسنٌ، ماذا عنه؟».

- هل هو على معرفةٍ بآفيري؟

- أمرٌ مستبعدٌ تمامًا. آدم منطوٍ على نفسه.

حسبما تسعفها ذاكرتها، لم يذكر اسمها قط، ولم يسبق أن لمحته برفقتها. كما يكبرها بعدة أعوام.

تتنهد المحققة ثم تقول بنبرةٍ لطيفة: «وصل إلى علمنا أن الفتاة أُخبرت صديقةً لها عن رفيق، يكبرها بالعمر. وأفاد شخصٌ أنه شاهد آفيري وآدم معًا في الآونة الأخيرة».

- أحقًا؟ لا أعتقد أنه رفيقها، مَنْ ادَّعى ذلك؟

لا تكثرث لإخفاء الحدة في صوتها.

- لستُ مُخَوَّلَةٌ للبوح بهويته.

تهزُّ رأسها.

- لا أحد هنا يفهم آدم. ساكنو هذه البلدة ضيقو الأفق. راودتني فكرة

الانتقال، لكنني استطعت إلحاق آدم بمدرسةٍ خاصةٍ جيدةٍ على مقربةٍ من المنزل، لذا...

تومئ المحققة جالي في تعاطفٍ.

تُردِف: «آدم ولدٌ طيبُ القلب، لا يمكنه أذية إنسانٍ أبداً».

هذا صحيحٌ إلى أبعد حدٍّ. رغم نوبات هياجه الشديدة، انفلات زمامه وانهايار أعصابه، لا يسعه فعلياً إلحاق الأذى بأي شخصٍ. لا تتضمن خصاله الفطرية إيذاء الغير.

- إنَّما من واجبي التساؤل، أين كان ابنك بعد ظهيرة الثلاثاء، من الساعة

الرابعة إلى ما بعدها؟ هل تعلمين؟

تُجيب جوين: «برفقتي في المنزل، بعد اصطحابه من المدرسة. نصل قبيل الرابعة غالباً».

تقول المحققة: «علمتُ أن لديه طائرةً مسيرةً. هل يستخدمها بكثرة؟».

تجيب: «نعم، صارت شغفه الجديد».

- هل بها خاصية تسجيل بالفيديو؟

- نعم.

- أودُّ إلقاء نظرةٍ على المادة المصورة. قد ننتبه إلى أمرٍ غفلنا عنه.

تومئ جوين، قائلةً: «قضى آدم بعض الوقت بالباحة الخلفية يطيرُ مسيرته يومذاك، حتى هطل المطر. إنَّما إذا لفت نظره شيءٌ، لأخبر به على الفور. كما أنني استفسرت منه آنفاً، وقال إنه لم يرَ شيئاً».

- ما زلتُ أفضل إلقاء نظرةٍ عليها.

توضح جوين: «لا يحبُّ أن يلمس أشياءه أحدٌ، وخصوصًا مسيرته وحاسوبه النقال. إنه مصابٌ بالتوحد، وسريع الانزعاج».

- أُقَدِّر حالته. هل بوسعك الحضور إلى قسم الشرطة وبرفقتك آدم وطائرتَه وحاسوبه، ما إن يعود من المدرسة اليوم؟

- نعم، سنأتي بالتأكيد.

- أشكرك، لن أشغلكِ لوقتٍ أطول.

تراقب جوين المحققة العائدة أدراجها إلى موقف سيارتها، ثم توصلد الباب.

تقود جالي سيارتها ملتفةً للخلف بشارع كونوت، وتتوقف أمام مسكن آل وولر. تختلس نظرةً إلى منزل آل سِيتِن المقابل، متفكرةً بحال جوين ونتر وكيف تختبر كلتاهما، أليس وجوين، الأمومة بوجهٍ مختلفٍ.

تخرج من السيارة قاصدةً مسكن آل وولر. يلبث بلدسو في مكتبه بقسم الشرطة، ليشرّف على مجرى التحقيق من هناك. اقتنع كلاهما بضرورة التغاضي عن الشاهدة المجهولة واعتبار ادعائها أنّ آفيري استقلّت سيارة راين بلانشارد، محض خدعةٍ إذ لا برهان على أقوالها، كما سدّ محامي راين عليهم الطريق بذكاءٍ متناهٍ. بدا الفتى مرتعباً، ومَن لا يرتعد في موقفه؟ تتخذ جالي من رفيق الفتاة، دليلاً لتتبعه. توذُّ التحدّث إلى مايكل مرةً أخرى، قد تجد لديه فكرةً عن ذلك الفتى الأكبر سنّاً، لو الأمر حقيقيٌّ. من المحتمل أن آفيري نسجت القصة من خيالها، أو كانت هذه إحدى أكاذيبها. لم يذهب مايكل إلى مدرسته اليوم غالباً، لا سيما والأخبار متداولةً حول استجواب أبيه في قضية اختفاء ابنته، وتغيّر أقواله. يا للصبي المسكين!

تصل إلى باب منزله وتفتح إيرين بوجهٍ دامعٍ مبهُوتٍ. تتأمل جالي دون حراكٍ للحظاتٍ، كمَن يقف جاحظاً العينين على حافة الهاوية.

تسأل إيرين: «ما الأمر؟ هل من أخبار؟».

ترتعب بلا ريب في كل مرة يأتي شرطي بابابها، يحمل لها أخبارًا سيئة. تتشكك جالي من إتيانها بأي أخبار سارة في يوم ما.

تقول لها بدمائة: «لا، ليس بعد. هل تسمحين لي بالدخول؟».

تلتفت عنها في قنوط، وتدلف تاركة الباب مفتوحًا فتدخل جالي وتغلقه بنفسها خلفها.

تقول إيرين: «طردت ويليام من المنزل. أفصح لي بما اعترف به لكما، أفصح بكل شيء».

تبدو ملتاعة، أشبه بشخصية مأساوية في مسرحية لشكسبير، أهدقت بها المصائب.

تستطرد: «أشعر أنني لم أعرفه بحياتي قط».

يساور جالي الأسى على هذه السيدة التي تعيش أسوأ ما يمكن لأُم احتمالها، ضياع طفلتها، وفي الآن ذاته، تكتشف كذب زوجها عليها.

- ما الذي أطلعك عليه؟

تقول متأففة: «على مجيئه في وقت مبكر ولقائه بأفيري، على تركه لها وحدها! على مرافقته امرأة غيري، وقضائه وقتًا معها في نزل! بسببها تغيب عن عمله».

تومئ جالي متفهمة. يصعب تتبع أثر تلك المرأة، جُل ما عُرف عنها هو امتلاكها لهاتف مسبق الدفع، لكن لم ترد عليه حين اتصل بها ضباط الشرطة من هاتف ويليام المؤقت. الغرض الوحيد من التواصل معها هو دعمهم بتصور أوضح عن ويليام وولر، وعمًا حدث يوم الاختفاء، لأنه مُمسك عن الكلام.

ثم تسأل: «أليكَ فكرة عن اختطفها؟».

تنفض إيرين رأسها، منكمشة على الأريكة حتى بدت أنها تتقلص أمام ناظريها، تقول: «ليست لدي أي فكرة».

تترك مقعدها وتدنو منها لتقعد بجانبها، وتلف ذراعها حول كتفها.

- عليك التحلي بالصبر، يا إيرين.

تومئ ناظرةً إليها.

- أعلم، يجب عليّ رعاية مايكل.

- في الواقع، أودُّ التحدُّث إليه، أهو في المنزل؟

تومئ قائلةً: «لا يمكن أن يذهب إلى المدرسة».

تتمنى جالي لو لم يضطرها الموقف لفعل الآتي.

تقول بلطفٍ: «أخبرتني صديقةً لابنتكِ أنَّها أسرَّت إليها عن رفيقٍ لها، يكبرها في العمر».

تحدِّق إليها إيرين في ذهولٍ، سائلةً: «أتقولين رفيق؟! مُستحيل! عمرها تسع سنوات! مَنْ أخبرتكِ بذلك؟ هي جينا طبعًا، لا صديقات لابنتي غيرها».

تقول جالي على حذرٍ: «يساورنا القلق من احتمالية تعرض ابنتكِ لسوء الاستغلال من قبل شخصٍ بالغ. فقد أخبرتنا جينا أن آفيري ذكرتُ لها عن فعلهما لأُمُورٍ تخصُّ الكبار. مما يعني تعرضها للتحرش، لأنَّها وحيدةٌ ويسهل استهدافها».

تبادلها النظر مشمئزةً، وتبكي: «يا إلهي، إلى ما سيسوء الحال أكثر مما هو عليه؟».

ثم يتعالى نشيجها خائبةً الأمل: «ماذا خَفِيَ عني أيضًا وظلَّ يجري تحت سمعي وبصري؟!».

تقول جالي برقةً: «يؤسفني مصابكِ».

- رباه! لا طاقة لي على الاحتمال.

- إذا فلا تعلمين مَنْ قد يكون، إن صَحَّت تلك الإفادة؟

تهزُّ رأسها وبكفيها تغطي وجهها.

تطلب منها جالي: «أيمكنني التحدُّث إلى مايكل؟».

تومئ بصبرٍ نافدٍ.

- إنه بالطابق الأعلى، سأحضره لك.

يتراءى لها أن إيرين تستعيد بعض جَلدها، وتنهض عن الأريكة على مهلٍ، لتصعد الدرج كامرأةٍ طعنت في العمر منذ اختفاء ابنتها. تعود برفقة مايكل يجرجر أذياله خلفها: طويل، نحيل، مشيته متثاقلة، ويتقدم كأنه على وشك المثلث أمام كتيبة إعدام. كما ازداد شحوب وجهه، تخطُّ شعره خصلاتٌ شاحبةٌ وهالاتٌ داكنةٌ تحيط بعينه.

تقف جالي.

- أودُّ أن أتكلم معك عن أمرٍ يخصُّ أختك، يا مايكل، أليدك مانعٌ؟ ستبقى والدتك معنا.

يومئ مايكل إذ يقعد على الأريكة إلى جوار أمه، وتنتقل جالي إلى مقعدها السابق قبالتهما.

تميل للأمام نحو مايكل.

- هل أتت آفيري يومًا، على ذكر رفيقٍ لها؟

الفصل العشرون

يجيب تلقائياً، دون أدنى مهلةٍ للتفكير: «لا».

تطلب منه المحققة بنبرةٍ مطمئنةٍ: «خُذ وقتك».

يسُره أنها السائلة، وليس زميلها؛ المحقق الآخر يُخيفه. يمتلكه الفزع جرّاء كل ما يجري، بالكاد يستطيع التفكير بطريقةٍ سليمةٍ. يلقي نظرةً نحو أمه، ترقبه مذعورةً كأنّها تشفق من سماع أمرٍ رهيبٍ. لا يمكنه إيلاها بهذه الطريقة، يجب عليه حمايتها. قد تصبح آخر مَنْ سيبقى من أجله. يجهل ما تقوله المحققة تماماً.

يتفوه متعجبلاً: «عمرها تسعة أعوامٍ فقط».

تقول جالي: «أعلم».

وتستمر في ترقب إجابته.

يقول: «لم تأتِ على ذكر أي شيءٍ يخصّ رفيقاً لها مطلقاً».

تحدّثه برفقٍ قائلةً: «أنفهم كم يصعب استيعاب هذه المسألة، بيدَ أنّها شديدة الأهمية. إذ وصل إلينا ادعاءٌ مصدره آفيري، يشير إلى مرافقتها فتّى يكبرها سنّاً، وفعلاً معاً بعض أمور الكبار».

يشعر بالحرارة تنبعث من وجهه محرّجاً.

تسأل: «هل رأيتهَا برفقة فتّى يكبرها بالعمر؟».

يعتصر تفكيره، يستنكر أنَّها قد تفعل شيئاً كهذا. لم تزل طفلةً، مما يثير إزعاجه، فهو على درايةٍ بتحادث الأولاد عن الفتيات.

ينفض رأسه. عندئذٍ تطراً له ذكرى أمرٍ ما، فيصمت هنيهةً.

يقول: «رأيتها ذات مرة».

ثم يمسك فجأةً.

تضغط عليه المحققة: «مع مَنْ رأيتها، يا مايكل؟».

لا يريد البوح، لا يعجبه ما سيؤدي إليه قوله. لكنَّ جالي تترقبه، وأخته الصغرى مفقودةٌ.

يزدرد ريقه مضطرباً.

- رأيتها في بيت الشجرة، بالغابة.

تومئ جالي، وتحفزه على المتابعة.

- دخلتُ الغابة في أحد الأيام منذ بضعة أسابيع، وذهبتُ إلى بيت الشجرة، رأيتها هناك. للوهلة الأولى ظننتها بمفردها، لكنَّ لم تكن وحدها.

تستحثه جالي: «وبعد؟».

يصرُّ: «لم يفعل أي شيءٍ معاً».

- مَنْ كان برفقتها، يا مايكل؟

- ديريك، أخو جينا.

بمنتصف النهار، يتوصَّل ويليام وولر إلى هاتفٍ عموميٍّ بمركزٍ مجتمعيٍّ محليٍّ. يتلقَّت حوله في ارتياحٍ من وقوعه تحت المراقبة، بعد تسله خارجاً من خلف الفندق لتجنب المراسلين. تتركه الشرطة في حاله للمرة الأولى، لم يُستدعَ إلى المخفر من أجل أي استجوابٍ اليوم، حتى هذه اللحظة. يروح باله إلى إيرين ومايكل، ويخالجه قلقٌ بشأنهما، سيحاول الاتصال بهما لاحقاً، إذا سمحا له بالحديث إليهما.

يرجو ألا يصل المحققان إلى نورا. يتوجب عليه حمايتها، ويتوجب عليها الإيمان ببراءته، ولو لم يصدقه غيرها.

يطلب رقم هاتفها السري، من الجيد تذكُّره، ويحبس أنفاسه. يتمنى أنه في تناول يدها؛ تحتفظ به مغلَّقًا ومخفياً في وجود آخرين معها. لكنَّ تبقّيه على مقربةٍ منها حينما تلبث وحدها في المنزل، أو ربما تخلّصت منه.

قد تتجاهل اتصاله، ولن يدري إذا ما يمنعها وجود أحدٍ معها، أم ظنّها فيه أنه قاتلٌ، ولا ترغب في مخاطبته مجدداً أبداً. بيدُ أنّها ترد.

يُبْهَت مرتبكا. تطول هنيهة صامتة، يتشكك من هوية المُجيب على الطرف الآخر من الخط. هل اكتشف زوجها هاتفها، أو ابنها؟ أيّاً من يكن المجيب فهو لا ينطق. علّها نورا نفسها، ويساورها القلقُ من الشخص المتصل. هل يمكن أن تتصل الشرطة برقم هاتفٍ لمجرد معرفة الشخص الذي سيرد؟ تدور كل تلك الهواجس بذهنه في ومضة خاطفة.

يخطر بها كلها، ويقول بعد طول الانتظار: «نورا؟».

- نعم.

يلتقط نفساً عميقاً، ينقطع بنشيج، فيقول لاهئاً: «نورا!».

تسأل بنبرة متحفظة: «ماذا يجري؟».

لا يمكنهما إطالة المحادثة، إذ يجذب إليه الأنظار باستعماله الهاتف العمومي.

- عثرت الشرطة على هاتفِي المؤقت. أردتُ إعلامكِ أنّني اعترفتُ بانغماسي في علاقةٍ غرامية، واحتفظت باسمكِ طي الكتمان. لن أفصح البتة أنّني على علاقةٍ بكِ أنتِ. أعدكِ.

تقول بصوتٍ تنهى منه ارتياحٌ عميقٌ: «ممتنة لك».

يستشعر مدى الهلع الذي ألمَّ بها، وخشيتها منذ عثور الشرطة على هاتفه المخفي.

يقول: «يستحيل أن أتسبب في أدّى لك، يا نورا».

تنسل لحظة صمتٍ، يندفع لشغلها.

يقول متعجلاً: «لم أفعل شيئاً لابنتي. لا تصدقي الأخبار، ولا الشرطة. لم أؤذيها، أقسم لك. اختطفها شخصٌ ما».

تهمس: «أعلم».

يخفق قلبه، بروية.

يقول في استياء: «المحققان الـ... دوماً ما تشتبه الشرطة في الوالدين أولاً. وُضعنا كلنا تحت المراقبة».

في صوتٍ متوترٍ متكلفٍ، تقول: «لست وحدك. يشكّان بابني أيضاً». يُخيلُ إليه أنه لم يسمعها جيداً.

- ماذا قلت؟

- أبلغ شاهدٌ مجهولٌ عن رؤيته ابنتك تستقل سيارة راين بعد ظهيرة يوم اختفائها. لكنّه بلاغٌ كاذبٌ. مَنْ أمكنه فعل ذلك؟

يحسُّ بقبضةٍ في قلبه. هل تُعاتبه؟ أتراه المسؤول عن هذا البلاغ الكاذب، من أجل غضِّ الطرف عن نفسه؟ لا يمكن أن يفعل ذلك. وإن حدث، فأخر شخصٍ قد يفكر بتوجيه الاتهام إليه، هو ابن نورا. مُحالٌ أن يُوجعها. تُعيد عليه السؤال: «مَنْ أمكنه أن يختلق تلك الكذبة الخبيثة؟».

- لا أدري.

يحاول إمعان التفكير. ما يعلمه عن ابن نورا قليلٌ، عمره ثمانية عشرة، لم يذهب إلى جامعته هذا العام كما افترضَ به، إذ يؤدي خدمةً اجتماعيةً لإتمام عقوبة المخدّرات. أفلت الأمر من بين يديها فيما مضى.

تقول: «يجب أن أنهي المكالمة».

يترجّأها: «لا تذهبي، انتظري».

يلبثان على الخط، يتنفسان، دون بنت شفةٍ. غير واثقين ببعضهما. يتفوه ويليام بعد لأيٍ: «أدرك أنّه أمرٌ صعبٌ، لكنني أتمنى لقاءك». توافقه القول بنبرة فاترة: «صعبٌ للغاية».

بغثةً يغمره اليأس، خسر كل شيء، حتى الشرطة قد تتهمه بارتكاب جريمة قتل.

تقول: «أعتقد أن آل يشكُّ بعلاقتنا».

- كيف له أن يعرف؟

- لست واثقةً. ربما تبعني ذات مرة، أو شخصٌ ما يعمل بالمشفى اشتبه بشيء بيننا، وأخبره. يتصرف على نحوٍ غريب.

يعترض: «لا، أخذنا حذرنا إلى أقصى درجة».

صوتها متهدجٌ: «مقتنعٌ بشدةٍ أنك قتلت ابنتك».

- لا، يا نورا. لم أفعل.

لا تنبس ببنت شفة.

يقول لها: «لا تتخلصي من هاتفك الإضافي، سأتصل بك مرةً أخرى، قدر استطاعتي. أمكثُ حاليًا في فندق إكسيلسير إذ طردتني إيرين من المنزل».

يندم من فوره على ما قال، عند سؤالها ما يخشاه.

- لماذا كذبت على الشرطة، يا ويليام؟

تكتم نورا فمها، توجَّب عليها سؤاله. الجميع يتساءل، لماذا لم يخبر ويليام وولر الشرطة عن وجوده في المنزل يومذاك؟ إنَّما اكتُشف أمره.

راه أحدٌ. يوجد شاهدٌ عليه.

لا تعلم إذا ما سيغلق الخط، غير أنه يجيب بعد لحظة انتظارٍ.

يقول مسترسلًا، بصوتٍ مرتجفٍ: «المسألة معقدة. عقب إنهائك لما بيننا في المنزل، تملَّكني الإحباط. ظننتُ أن لا أحد في المنزل، وابتغيتُ الاختلاء بنفسي قليلًا، لمداداة ما أصابني. لكن وجدت أفيري هناك».

يسكن هنيهةً، وتسمعه يبلع ريقه، ثم يتابع: «عُوقِبَت بالمدرسة، وقع بيننا جدالٌ، واستعر غضبي عليها، ثم ذهبتُ للتنزه بالسيارة. أدركتُ فيما بعد كيف قد أبدو إن أفصحْتُ عن وجودي في المنزل، ولم أستطع الإفادة بمسار يومي

لأنني رافقتكِ بالنزل. لهذا ارتعبت، ولم أخبر الشرطة حينما أتنني الفرصة، حتى فات الأوان».

يضيف: «يا إلهي، كم تصرفْتُ بغباء! شُلَّ تفكيري تمامًا». ترى نورا قصته أقرب للتصديق.

تقول وهي تغلق الخط: «يجب أن أذهب الآن».

تطول قعدتها على حافة السرير، وحيدةً، آل بعمله، فايث بمدرستها وراين بخدمته الاجتماعية. تنهمر في البكاء إذ تنأهى من صوت ويليام الحال المريع الذي يحرق به. إنه على شفا الانهيار، وعليها حمايته.

ما حقيقة شعورها نحوه في هذه اللحظة؟ هل تصدقه فعلاً؟ هذا لبُّ المسألة، لا يمكنها تصديقه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والعشرون

يتحرك راين بلانشارد على نحوٍ أليٍّ طوال فترة مناوبته في ملجأ المشرّدين، مطأطئ الرأس. لا يريد لأحدٍ ملاحظته. ما زال محرّجًا من وجوده هنا، في مكانٍ يختلف عنه. بشرته بيضاء، ينتمي إلى طبقةٍ متوسطةٍ، ومُقيّد في الجامعة، أما الملجأ وكل ضائعٍ ومضطهدٍ به يبعث في نفسه الضيق. تتعارض هيئته مع كل ما حوله، يأتي مستحمًا، مرتديًا ملابس نظيفةً، جودتها عاليةٌ. منذ فترةٍ قريبةٍ، تبادر إلى إدراكه في لمحّةٍ من النضج بأحد الأيام، كم هو محظوظٌ أنه وُلِدَ لأبوين ميسوري الحال، يغدقان عليه بالرعاية والاهتمام. بيدَ أنّها لم تكن لمحّةً مُصيبةً، وما لبث أن تغاضى عنها. يستاء من اضطراره المجيء، الروائح بخاصةٍ من العسير احتمالها، كذا البول، والقيء، والعرق الغزير الملتصق بملابسهم القذرة، مما يشعره بالرغبة في التقيؤ. مناظرهم مريعةٌ للغاية، لا يرى سوى أناسٍ انحطّ بهم الحال، حتى صاروا خرقًا باليةً. ينتظر بفارغ الصبر رفع الرقابة عنه وتماام مهمته الاجتماعية. مئتا ساعةٍ من الخدمة، ويستمر العدُّ التنازلي.

أمكن لوضعه أن يزداد سوءًا. أفعاله هي التي جاءت به إلى هذا المكان، إنّما الوعي بهذه الحقيقة، ينعكس أليًا في نفسه، لذا ينشغل من فوره بأي أمرٍ آخر، أصدقاء الجامعة، حضور الحفلات، التعرّف إلى فتيات. لكن اليوم، لا يروح ذهنه إلى تلك الأمور، بل يتفكر في الليلة الماضية بمخفر الشرطة،

متذكراً العداء الذي جابهه به المحقق بلدسو، وكيف ارتعد منه إلى حد التبول على نفسه. لا وجه مقارنة بين عقوبة تعاطي المخدرات، وجريمة اختطافٍ، أو قتلٍ.

بعدما انتهى الاستجواب، انفرد به المحامي لبضع دقائق. نظر أوليفر فولر في عينيه مباشرة وقال: «هذه المسألة شديدة الخطورة، يا راين». أصرَّ: «لم أفعلها».

اكتفى فولر بالإيماء.

- تجنب الخوض في أي مشكلةٍ قدر الإمكان. إن حالفنا الحظ، لن يخرج الشاهد للعلن.

رفع عينيه نحوه في خوفٍ، لم يستوعب قصده.

- ماذا تعني؟ اعتقدتُ أنه لا وجود لشاهد.

- لديهم شاهدٌ مجهولٌ، على نحوٍ بَيِّن، ولا يستطيعان التعرف على هويته. ومع هذا، يحضرائك لاستخراج اعترافٍ رسميٍّ منك...

قال راين مرتعباً: «لم ألتقِ بها! لم تركب سيارتي، أقسم لك. ذلك الشاهد كاذبٌ!».

قال فولر: «والدتك بانتظارنا».

بعد ذلك في المنزل، انخرطوا في جلسة استنطاقٍ متعسِّفةٍ بقيادة أبيه، وإذا نزلت إليهم فايت من الطابق الأعلى. أُجبروا على إخبارها بما يجري؛ أخته فتاةٌ ذكيةٌ. لمح في عيني والدَيه زعراً يعرفه جيداً. رأى النظرة ذاتها حينما صُدمَا بالقبض عليه لحيازته مخدَّر «أَكْسِي»⁽¹⁾. أصابهما الذهول، ما علاقة ابنيهما بالمخدَّرات؟

تضخَّ خوفهما واستنكارهما هذه المرة؛ بالأمر طفلةٌ مفقودةٌ، وربما قُتلت. نظرات أعينهما قاسيةٌ، خسر ثقتهما به. صدمهما آنفاً بمسألة مخدَّر

(1) «أَكْسِي» هو الاسم المختصر لمخدَّر «أَكْسِيكودون»، المستخدم في علاج الألم. نُجَرِّم حيازته دون وصفةٍ طبيةٍ في ولاية نيويورك، مجرى أحداث الرواية. (المترجمة).

أُكْسِي. خالاً أَنَّهُ فَعَلَ لا يشبهه، رغم أَنَّهُما لا يفقهان شيئاً عنه. يجهلان ما يعيشه، وكم من أصدقائه يتعاطى هذا المخدَّر، ويفعلون ما هو أسوأ. لا يفهمان مدى تأثيره عليه، وكيف تنهمر السعادة فوق رأسه، إحساس لا يُوصَف حين يترك نفسه على هواها. لم يُعتَقَل أَيُّ من أصدقائه، إِنَّمَا اثنان منهما على وجه الخصوص، تحتمَّ أن يرافقه هُنا، ليمسحا معه البول والقيء في ملجأ المشردين. لكنه أخرس لسانه في التحقيق.

يستحضر كل ما مضى، إذ ينظف الأرضيات ويغسل الصحون ويغير أغطية الأسرة. كيف وصل إلى هذا الوضع؟ لم يعد يعرف نفسه في الآونة الأخيرة. اتخذت حياته منحني مختلفاً كلياً عما ألفه خلال أشهر سابقة، مما يعجز عن فهمه تماماً. استطاع فولر إعفاهه من السجن، وتكَلَّف والداه مبلغاً كبيراً، وجاءت عقوبته مقتصرة على الخضوع للمراقبة، وتأدية خدمة اجتماعية، بالإضافة إلى تسجيل فعلته كسابقة جنائية. كل ذلك على سوءه لا يُقَارَن بالحبس لمدة تصل إلى العام، كعقوبة ارتكاب جُنحة أولى.

تمضي الأيام بشقِّ الأنفس؛ بكل يومٍ نضالٍ لمقاومة الإغواء، لا سيما عند اشتداد الضغط والإجهاد العصبي.

هل ستنتهي حياته إلى حالٍ مماثلٍ لهؤلاء الناس؟ لا يملك غير السيطرة على ذعره والهروب من هنا، علَّه يجد حريته وبعض الهواء النظيف.

تلمح جالي تقطيب حاجبي بلدسو على وجهه الضَّجر. أبلغا أن ويليام وولر نُظِّفَت سيارته بالكامل، من الداخل والخارج، في مغسل «يورو أوتوبدي» الأحد الماضي، قبل اختفاء آفيري بيومين، مما يفسر نظافتها التامة.

يتمتم بلدسو: «سحقاً! إذًا فقد أخذها إلى بقعةٍ ما، ملفوفة في نسيج بلاستيكيٍّ أو ما شابه».

تزمُ جالي شفيتها متمعنة التفكير. عُثِرَ على لفافة ورقٍ بلاستيكيٍّ -يُستخدَم في عزل الرطوبة- في مرأب منزل وولر خلال التفتيش الأولي. لا يُعَقَل أَنَّهُ استخدم جزءاً منه ليلفَّ به جثتها، قبل وضعها في صندوق السيارة،

لكنّه أمرٌ غير مستبعدٍ. قد يعطي سببًا لعدم ظهور أثرٍ للطفلة بالمنطقة، أو لعدم فعله لشيءٍ من الأصل.

تخور همّتها، لم تنم إلا سويعاتٍ قليلةً.

تُعلّمه بما لديها: «بالنسبة إلى مسألة رفيق الطفلة، ربما لديّ دليلٌ».

تخبره بما قاله مايكل عن ديريك، أخي جينا: «علمنا أن آفيري تتردد على بيت الشجرة كثيرًا. لذا فُتّش المكان، ولم يُلاحظ أيما يشير إلى تعرض الطفلة للأذى بداخله».

تصمت هنيئَةً، ثم تضيف: «لكنّ وُجِدَت تحت الشجرة المعنية، بقايا أقياتٍ ذكريةٍ. من الواضح أنّها منطقةٌ يرتادها الفتیان أيضًا».

يوميّ بلدسو مُرهَقًا.

- يُفضل أن تتحدّثي إلى هذا الفتى ديريك.

تقترح جالي: «أودُ إلقاء نظرةٍ متمعنةٍ على موقع بيت الشجرة أولًا».

تتوسط إيرين نافذة غرفة المعيشة بين الستائر المنحاة على الجانبين، محدّقةً إلى الخارج. انتصف النهار والشمس ساطعةً. المراسلون منتظرون رغم رحيل معظمهم. فلتأخذوا صورةً لأمّ مذعورةٍ، أيها الغيلان! لا تبالي بكم. عرفت أن مَنْ غادر منهم يتربّص الآن بويليام في الفندق، رأتهم في نشرة الأخبار.

يرنُّ هاتفها، لا تميز رقم المتصل. لكنّ تجيب.

إنه ويليّام، يتحدّث على عجلٍ.

يقول بنبرة متوترةٍ، غريبةٍ عليه: «يدّعي شخصٌ ما رؤية آفيري تركب سيارة راين بلانشارد بعد ظهيرة الثلاثاء الماضي».

- ماذا قلت؟

- هذا ما يدّعيه شاهدٌ مجهولٌ. لا أعلم صحته من عدمها.

- كيف عرفت؟

لا يجيب سؤالها. وبعد هنيهة يقول: «اشتريتُ هاتفًا جديدًا صباح اليوم، لديك رقمه الآن، إذا ما احتجتِ إلى شيءٍ. عليَّ إنهاء المكالمة». وقُطِعَ الخط فجأةً.

تقعَد مبهُوتةٌ لدى سماع ذلك الخبر الجديد. هل ركبتِ أفيري سيارة راين؟ لمَ قد تفعل؟ حتى إن ابنتها لم تره من قبل، إلا لو.. لو تعرَّفتُ إليه دون علمها. ربما هو رفيقها الأكبر سنًّا الذي تبحث عنه جالي. الأمر يفوق الاحتمال! تهرع إلى المطبخ، تتكَلَّف التقيؤ بالحوض، متمسكةً بالحافة المعدنية، تتجشأ مرارًا، ولا شيء بجوفها يخرج.

لا تتمنى إلا عودة ابنتها، وبالنسبة إلى ويليام حتى إذا اتَّصَحَتْ براءته، انتهت حياتها معه. كل ما تريده هو رجوع أفيري، بخير وسلامة.

ترجع محلها عند النافذة الأمامية وتُحْمَلَق إلى منزل آل سِيتِن المقابل. تتموج معدتها بحموضةٍ مُرَّة. ماذا لو صح ما يُقال؟ ماذا لو تقرَّب أحدٌ من ابنتها، أو أساء استغلالها، ولا برهان بين يديها؟ يغشى جوفها. تجهل أي نوع من الأمهات هي. كيف تُعمى عيناها عن ملاحظة مكروهٍ أصاب ابنتها؟ تتفهَّم ميل أفيري إلى الكتمان، كما أنَّهما متباعدتان. لطالما قاومتها ابنتها، مما يصعَّب على إيرين التواصل معها من باب الصداقة، إلا في أوقاتٍ نادرةٍ حين تحتاج ابنتها إلى الحماية. تذكر أنَّها انتحبت في صدرها منذ عدة أشهر، واشتكت من وحدتها ومن افتقادها للأصدقاء، تقطَّع قلبها لتألم ابنتها. جاء ردُّ فعلها سريعًا ورغبت في تحسين الوضع بأي طريقةٍ. فكرت بترتيب مواعيد اللعب مع أطفالٍ في سنِّها، أو إلحاقها بأي لعبةٍ في نادٍ رياضيٍّ، لكنَّها أمورٌ جربتها كلها مع ابنتها مرارًا، وفشلت في إقناعها مرارًا. وانتهى الحال بها إلى فعل لا شيء، عدا أن تعرضَ عليها الدعم والمساعدة في تكوين صداقاتٍ والحفاظ عليها. وكانت تلك هي المرة النادرة التي تفضي ابنتها بهمَّ لديها. أمها خذلتها! ولشعورها بالوحدة وسهولة الانفراد بها، تمكَّن شخصٌ من استغلالها.

الحسرة والندم لا طاقة لها على احتمالهما، لقد فشلت في حماية ابنتها!

يُحْتَمَلُ أَنْ وَيْلِيَامَ صَدَقَ فِي شَأْنِ صَفْعِهَا وَتَرْكِهَا وَحْدَهَا فِي الْمَنْزِلِ، هَكَذَا يَفْعَلُ دَائِمًا، يَفْقِدُ أَعْصَابَهُ ثُمَّ يَتَرَاوَعُ خَجَلًا مِمَّا صَنَعَ. أَخَذَهَا شَخْصٌ آخَرَ عَلَى الْأَغْلَبِ. يَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْفَتَى بِلَانْشَارْد. قَالَ وَيْلِيَامُ إِنَّ أَحَدَهُمْ رَأَى آفِيرِي تَرْكَبَ سَيَارَةَ الْفَتَى وَقَدْ اخْتَفَاءَتْهَا. إِنَّ صَحَّ قَوْلُهُ، فَهُوَ بَرِيءٌ وَالْمَذْنُبُ هُوَ رَايْن. تَعْلَمُ بِتَوْرَطِهِ فِي مَعْضَلَةٍ قَانُونِيَّةٍ بِالسَّابِقِ. تَتَمَنَّى لَوْ تَذْهَبُ إِلَى مَنْزِلِ آلِ بِلَانْشَارْدِ وَتَصْعَدُ لَغُرْفَةِ ابْنِهِمْ وَحْدَهَا، تَهْزُهُ بَعْنَفٍ حَتَّى يَنْطِقَ بِالْحَقِيقَةِ.

أَمَّا بِخُصُوصِ دِيرِيك، أَخِي جِينَا، هَلْ تَوَدَّدَ إِلَى ابْنَتِهَا؟ تَصَوَّرْتَ أَنَّ فَتًى لَطِيفٌ وَمَهَذَّبٌ، إِلَّا أَنَّ فَرَصَ لِقَائِهِ بِآفِيرِي سَنَحَتَ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، حِينَمَا تَقْضِي وَقْتًا طَوِيلًا بِمَفْرَدِهَا فِي بَيْتِ الشَّجَرَةِ.

لَا تَطِيقِ الْمَكُوثَ، تَتَرَقَّبُ. يَجِبُ عَلَيْهَا فَعْلُ شَيْءٍ لَتَجِدَ ابْنَتَهَا.

الفصل الثاني والعشرون

يغوص حذاء جالي للمشي المتعرج في الأرض النّدية، في طريقها عبر الغابة إلى بيت الشجرة. يرافقها ضابطٌ خارج مواعيد مناوبته الرسمية، شارك في حملة التنقيب بالمنطقة وعلى درايةً بالاتجاهات. بينما تتبعه متعمقةً في الغابة، إذ يسقط ندَى باردٌ من فروع الشجر على رقبتها، متسللاً عبر المعطف، فيقشعرُ بدنّها.

يصلان سريعاً إلى بقعةٍ قليلةٍ الكثافة، ويتوقف الضابط، لدى رؤية شجرة بلوطٍ عاليةٍ ضخمةٍ، شبه عاريةٍ من الأوراق، أغلبها متساقطٌ على الأرض، مما يجعل بيت الشجرة ظاهراً للعيان. البيت مقامٌ في الفتحة بين جزعها المقسوم، مصنوعٌ من موادٍّ معادٍ تدويرها وقطعٍ خشبيةٍ غير متناسقةٍ. البيت له أربعة جدران، سقفه صديئٌ من القصدير، بابه مثبّتٌ بمفصلاتٍ، والنافذة بُدائيةٌ مقطوعةٌ من الجدار المواجه لهما. كما يتدلّى سلمٌ من الحبال من قاعدةٍ عريضةٍ. تتفكر جالي أنه يمكن سحبه لأعلى من قبل مَنْ يصعد، حتى لا يجوز لآخرين معرفة ما يحدث بالداخل.

يقول الضابط: «كما تعرفين مسبقاً، أُجريَ تفتيشٌ كاملٌ للمبيت. لا أثر للفتاة، لا ملابس ولا غيره».

تدور جالي حول الشجرة مستطلعةً جميع جوانبها.
وإذ تقول: «سأصعد لأُلقي نظرةً».

جسدها رياضيٍّ ومِرْنٌ، بوسعها تسلُّق السلم بلا عناءٍ. لدى وصولها إلى مقدمة البيت، تتمهل ناظرةً إلى الأسفل، لا تزعجها الارتفاعات بوجه عامٍّ، والمسافة من مكانها معقولةٌ، تُتيح للواقف أن يلمح أي أحدٍ قادم، بل وحتى سماعه قبل وصوله. تلتفت نحو الباب، إذ تُبَتَّت به قطعةٌ خشبيةٌ صغيرةٌ بمسمارٍ، تُدار لِيُفْتَح. بالداخل تجد فراشاً قابلاً للطيِّ، وبعض عُلب الصودا الفارغة. تقف هنيهةً محلها، تحاول تصوُّر ما جرى هنا: أفيري جالسة ببيت الشجرة برفقة ديريك سِيتِن، وحدهما، يأتي مايكل فجأةً ويجدهما بصحبة بعضهما. قال إنَّهما لم يفعلا شيئاً معاً، أنَّى له التيقُّن من ذلك؟ كما ذكر أن السلم أنزل له، مما يعني أنه رُفِع قبل مجيئه. إذًا فقد أُتيح لهما وقتٌ للتوقف عمَّا انشغلا به. ماذا قد يفعل فتى في الخامسة عشرة مع فتاةٍ صغيرةٍ في التاسعة؟

على فرض أن فتى مثل ديريك أو آدم وينتر، أو غيرهما، تقَرَّب من أفيري في بيت الشجرة، فمن المستبعد قتلها في المكان نفسه. لا إشارة على شجارٍ، لا أثر لجثتها أو ملابسها في أرجاء الغابة، ولا علامة على جرِّها أو نقلها عبر المنطقة كلها. ماذا فعل بها القاتل بالضبط؟

أين اختفت أفيري وولر؟

تنزل السلم. لا يُستبعد تعرض الطفلة لفعلٍ شائنٍ في بيت الشجرة، ومع رفع السلم تتوفر خصوصيةٌ لا بأس بها. يحسُن بها التحدُّث إلى ديريك سِيتِن. يترك مكان موقع بيت الشجرة، وإذ تتلقى جالي اتصالاً هاتفياً، من بلدسو.

ترد: «ما الوضع لديك؟».

- أفصحت الشاهدة التي رأت أفيري تستقل سيارة راين بلانشارد، عن رغبتها في الحضور.

تقول: «يا إلهي، ستُغير إفادتها مجرى التحقيق».

- ستفعل بالتأكيد.

تصل إلى سمعها نبرته الحماسية. يُعلمها بما قالته المرأة رغم عدم ذكر هويتها في المحادثة الهاتفية، إنَّها في الطريق إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن

كل ما تعرفه، وستصل في غضون نصف ساعة. تتحمّس جالي مثله، قد تصبح إفادتها أول تطورٍ حقيقيٍّ في القضية.

يقول بلدسو بتشفٍّ جليٍّ: «إن حالنا الحظ، قد نأخذ راين بلانشارد إلى القسم بعد ظهيرة اليوم، ونُعيد استجوابه. لنضع محابيه المتعجرف عند حده!».

تصل جالي إلى القسم، ولا خبر عن الشاهدة. مرّت نصف ساعة، وتبعثها ساعة.

يقول بلدسو مغتاظًا: «تلك المرأة تتلاعب بنا».

تعلّق جالي: «إما تكذب، وإما خائفةٌ من الظهور للعلن، والتعرّف على هويتها لعذرٍ مجهول».

تتساءل عن ماهية هذا العذر. لو منعها أمرٌ ما، فحريٌّ أن يستحق، فغيظها لا يقل شدةً عمّا يعترى بلدسو.

يستوضحان من الضابط الذي أجاب على اتصالها عبر خط البلاغات، وهو ذاته ضابط الاحتياط الذي تلقّى بلاغها أول مرة. يؤكد لهما أنّها المرأة نفسها. رفضت الإدلاء باسمها، بيّنت أنها اتصلت من قبل، وأرادت معرفة سبب التأخر في القبض على راين بلانشارد. وضّح لها عدم استطاعة الشرطة تنفيذ ذلك بناءً على إفادتها. ما لم تحضر شخصيًا، البلاغ المجهول لا يُعتدّ به. فوافقت على الحضور رغم أنفها.

يستنبط الضابط، محبّطًا: «أظنها متقلّبة الرأي».

يُردف: «أضافت أنّ آفيري، حينما استقلت السيارة، كانت ترتدي قميصًا وبنطالًا جينز، ولم تأتِ على ذكر سترتها. ضغطتُ عليها لمعرفة المزيد، واضعًا في الاحتمال أنّها ستذكر السترة، لكنّها لم تفعل. أشارت إلى شعرها المجدول في ضفيرةٍ واحدةٍ خلف رأسها».

تلتفت جالي ناظرةً إلى بلدسو.

- لم تذكر والدتها شيئًا عن تصفيفة شعرها. سأتصل بها.

من فورها تُجري الاتصال، وتردُّ إيرين.

تقول: «مرحبًا يا إيرين، معكِ جالي. هل تتذكرين تصفيقة شعر ابنتكِ صبيحة الثلاثاء؟».

تتقرب، وبذهنها تتمنى صحة الخبر.

تجيب إيرين: «أعتقد.. أعتقد أنني جدلت شعرها».

تسألها جالي: «ضفيرة أم اثنتان؟».

- يا إلهي، هل عُثِرَ عليها؟

- لا، أخبرينا فقط، من فضلك.

- ضفيرة واحدة خلف رأسها.

تختتم جالي الاتصال: «أشكركِ يا إيرين، سأطلعكِ على التطورات أولاً بأول».

تعيد انتباهها نحو بلدسو، قائلة: «جدَلْتُ لها والدتها ضفيرةً واحدةً خلف رأسها. هل لدينا ما يكفي لإصدار مذكرة تفتيشٍ لسيارة راين؟».

يقول بلدسو: «من غير المعتاد إصدار مذكرة اعتمادًا على بلاغٍ هاتفيٍّ من شاهدٍ مجهولٍ. رغم هذا، يمكن تنفيذه ما دام الشاهد على درايةٍ بتفاصيل تجعله مصدرًا موثوقًا، وفي نظري نحن بصدد هذه الحالة. كما مضى ما يقارب ثمانٍ وأربعين ساعةً على اختفاء الطفلة، سأتحَدَّثُ إلى القاضي المختص».

تستدير جالي مبتعدةً، وكادت تصطدم بضابطٍ يتقدم تجاهها.

يقول: «ينتظركِ أحدٌ بالخارج. السيدة جوين وينتر وابنها. هل طلبتِ حضورهما كما تقول؟».

- نعم، حسنٌ جدًّا.

تتبعه جالي إلى مكتب الاستقبال، تحيي جوين وابنها آدم. الفتى طويلٌ بهيُّ الطلة، لكنَّ يتحاشى النظر في عينيها حين مخاطبته، ويحتضن طائرته المسيَّرة بحذرٍ شديدٍ، وحاسوبه النقال في حقيبةٍ تحملها أمه.

تقول جالي وهي تقودهما إلى بقعةٍ هادئةٍ: «تفضَّلَا إلى هنا».

استدعت ضابطاً آخر، ذا خبرة بالأمور التقنية أكثر منها.

تسأل: «هل تفهم يا آدم احتياجنا إلى إلقاء نظرة على التسجيل الخاص بطائرك المسيرة؟».

يقول الفتى بصراحة: «عندي توحد، لست غيباً».

يضع المسيرة بحرص ويخرج حاسوبه ليفتحه أمامه على المنضدة.

- لا ضرورة لإحضار المسيرة.. احتفظت بكل ما عليها على حاسوبي.. لكن يسعدني أن أريك إياها.

تقول جالي: «قد نفعل، بعد الاطلاع على التسجيل».

- حسنٌ.

يجّهز كل شيء، ينقر عدة نقرات، ثم يقول: «هذه المسيرة معي منذ سبعة أسابيع، تتم غداً. طيرتها كل يوم تقريباً، لهذا لديّ تسجيلات عديدة. غير أنك مهتمة في الغالب، بما سجّلته مسيرتي وقت اختفاء أفيري وولر، أليس كذلك؟».

تجيب جالي: «بلى، لنبدأ بيوم الثلاثاء».

بعد عدة نقرات، يشاهدون التسجيل المصوّر على شاشة الحاسوب. الرؤية تشبه النظر من طائرة ركاب، والصورة واضحة ونقية. مذهل! تتفقد الوقت الظاهر على الشاشة، أقلعت المسيرة في الرابعة وخمس دقائق. قلبها تتسارع دقاته. ها هو منزل آدم بشارع كونوت.

تسأله جالي: «من أين طيرت مسيرتك؟».

- من باحة منزلنا، يمكنني توجيهها من أي مكان أقف به، على مسافة ثمانمئة متر. أرى ما تراه المسيرة، ولم أر أي شيء يحدث لأفيري. لو رأيت شيئاً لأبلغت.

على الرغم من ذلك، قد يلفت انتباههم أمرٌ جديدٌ. تُسلط جالي تركيزها على الشاشة أمام ناظريها.

الفصل الثالث والعشرون

لم تغسل إيرين وولر وجهها أو حتى تُغير ملابسها، لم تغتسل منذ اختفاء ابنتها. لا تبالي كيف تبدو، تعرف أنَّها أشبه بامرأة مَسْعورة. تأخذ مفاتيحها وتُدقُّ باب غرفة نوم ابنها، وتفتحه. تُعلِّمه من فتحة الباب: «سأخرج لبعض الوقت».

في التو، يعلو وجهه الذعرُ.

- لمَ ستخرجين؟ إلى أين تذهبين؟

تدلف إلى الغرفة وتقعّد على سريره.

- سأذهب للتحدُّث إلى أبيك في الفندق. علينا مناقشة بعض الأمور.

يقول مايكل في اغتمام: «لا أريد المكوث وحدي في المنزل».

تتفكر ملياً. يعتصم العديد من الصحفيين أمام الباب، محتشدين كالجراد، وسيبقى مايكل بمفرده.

- لا تفتح الباب لأي أحدٍ، لأي أحدٍ، اتفقنا؟ وهذا يشمل المحقّقين. سأغلق

الباب بالمفتاح ورائي. إذا جاء المحققان، أبلغهما عبر الباب أن يتصلا

بي على الهاتف، سأخذه في طريق خروجي.

تضمه إليها بقوة وتطبع قبله على جبينه. تحس أنه صغر فجأة، مما يجعلها تتردد إذا ما يجب عليها البقاء معه. وإذ تتبادر إلى ذهنها ابنتها المفقودة، فتنهض قائلة: «لن أتأخر في العودة، أعدك».

تنزل الدرج متشبثةً بحاجزه، ورأسها يدور. بالكاد تناولت لقمةً خلال اليومين الأخيرين أو حتى نامت. الخوف والغضب يغليان في عروقها، وهذا يكفيها.

ترتدي معطفها، تأخذ نفساً عميقاً وتفتح الباب الأمامي. على الفور تعمي عينيها أضواء الكاميرات وتصدمها استفهاماتٌ صاخبةٌ. انقلبت عتبة منزلها إلى رُبُكةٍ غوغائيةٍ، تتماشى، على نحوٍ ما، مع كل المشاعر التي تُخالجها. لا تتزعج، تقف ساكنةً وتحقق إليهم في جمودٍ، دون بنت شفة؛ أكسبتها المعاناةُ بعضاً من الرزانة. اندهشوا للغاية لدى رؤيتها تخرج بغتةً، وحدها ودون حمايةٍ، حتى شملهم الصمتُ وسكن هَرَجُهم، كما لو يترقبون منها إلقاء كلمةٍ. لكنّها تتابع السير ويتراجعون عنها، يُفسحون الطريق. تتراءى لها هذه اللحظة غريبةً، بل كل ما يحدث شديد الغرابة. كأنّما يحدث لشخصٍ غيرها. منفصلةً عن الواقع، حاضرةٌ وغائبةٌ.

تصل إلى ممر المرائب، وقد تركوا لها المجال لتعبر، فتابعت حتى سيارتها، إلا أنّها تتجاوزها منعطفةً يميناً مع نهاية الممر. تُسرّع من وتيرة سيرها، عن عمدٍ، وقلبها يخفق بشدةٍ. يهرولون في إثرها، تصحبهم طقطقة الكاميرات، ويهتفون: إلى أين تذهبين؟ هل وصلتكِ أخبارٌ جديدةٌ؟ ما شعوركِ يا سيدة وولر؟ أين زوجك؟

تتجاهلهم جميعاً.

ينصت مايكل إلى خطوات أمه مغادرةً، يُفتح الباب الأمامي وتتعالى صيحات المراسلين المتجمهرين، ثم يُغلق وتُكتم أصواتهم. يتمنى أن يتركوا أمّه لحالها، وجب عليه الخروج معها. يهرع نحو الجهة الأخرى من غرفته، منسللاً إلى غرفة والديه وينظر من النافذة نحو الشارع. يرى أمّه تباعد عن

سيارتها وتوجه إلى خارج الممر. ليست ذاهبةً إلى الفندق لمقابلة أبيه مثلما أخبرته. إلى أين تذهب؟ تتموج معدته، لا بدَّ أنَّها متجهةٌ إلى منزل ديريك، بسبب ما أفصح به. تجيش نفسه. لكنْ لا، تنعطف يميناً وتستمر بالسير، متخطيةً منزل آل سِيتن. يراقب سَيلاً من الصحفيين والمصورين يتبعونها، وتسبقهم بمسافةٍ ضئيلة. مما يذكره بقصة «زَمَار هاملين مُبهرج الزي»⁽¹⁾، أمه هي الزَمَار والصحفيون هم الفئران يدورون وراءها في الشارع. يتساءل عما أتى بتلك القصة على خاطره، ليتذكر خطف الزَمَار للأطفال، هنا يكمن التشابه. خُطِفَتْ آفيري مثلهم، وينهمر في البكاء، دمعٌ منكسرٌ منتحبٌ، لا يمكن لأحدٍ رؤيته ولا سماعه على هذه الحال. يواصل المراقبة رغم نشيجه، لينصدم برؤية أمه تدلف إلى درب منزل عائلة بلانشارد.

تعلَّقت عينا جالي بشاشة الحاسوب. تحوم الطائرة المسيَّرة لبضع دقائق فوق منزل آل وينتر، في بداية رحلتها، ثم تحلّق على طول الشارع، متجهةً إلى الشمال نحو الأراضي الخالية عند مطلع الشارع، وإذ تنعطف شرقاً إلى جادة جرينلي. تستدير المسيَّرة عائدةً إلى الأراضي الخالية مروراً بمنزل آل وولر وتستمر حتى الغابة في الشمال بمحاذاة النهر.

لم تقترب المسيَّرة من شارع كونوت في الرابعة والنصف، حيث يُفترض أن آفيري استقلت سيارة راين بلانشارد، أو حتى قبلها في الرابعة والثلاث في وقت خروج سيارة وولر من المرأب. تَبَّأ! تبتلع مرارة الخيبة. لم تحسب الأمر سهلاً؛ أوضح آدم منذ البدء أنه لم يشهد شيئاً.

مع هذا، تطلّب من الضابط مشاهدة الأيام السابقة المسجلة مع آدم، رجوعاً من يوم الثلاثاء، علّهما ينتبهان إلى أمرٍ يتعلق بآفيري، مثل رؤيتها برفقة راين أو شخصٍ آخر.

(1) حكاية شعبية ألمانية من العصور الوسطى. تدور حول زَمَار طلب منه حاكم مدينة «هاملين» حماية أهلها من الفئران وله أجره، فجذب الزَمَار بالناي المسحور الفئران خارج الأسوار، لكن الحاكم أخلَّ بالاتفاق. غضب الزَمَار وأضرمت الانتقام، استغلَّ غياب الكبار في اجتماع، وعزف على الناي في ثوبٍ بهيج الألوان، ورحل. عاد الناس إلى ديارهم واختفى أطفال المدينة كلهم. (المترجمة).

- واحتفظ بنسخة من كل التسجيلات. مفهوم؟

تسمع نورا جلبةً بالخارج فتلقي نظرةً من نافذة غرفة المعيشة، عبر الستائر لتتبين الأمر. ترى امرأةً تميزُ أنها إيرين وولر - لكنّها مختلفةٌ تمامًا الاختلاف - تتجلى بممر المرأب، وخلفها زُمرَةٌ من الصحافة. تجتاحها موجةٌ من الفزع. بالطبع عرفتُ، لا جرم عرفت بطريقَةٍ ما، أنّها عشيقَةُ وليم. لقد أقسم لها ألا يخبر أحدًا صبيحة اليوم عبر الهاتف، وصدّقته. أم اكتشفت إيرين علاقتهما بطريقَةٍ أخرى؟ والآن تتقدم بدرب المدخل، وهؤلاء الصحفيون في عقبها، لا تستوعب ما يحدث، تتمنى الاختباء. لتختبئُ إذا، لن تفتح لها، ستدّعي عدم وجودها بالمنزل، رغم سيارتها القابعة أمام العيان بممر المرأب.

تقرع إيرين الباب بقوة، تغطي نورا أذنيها بكفيها، منزلقةً بظهرها إلى أسفل الجدار، تقرّص، وتشدُّ على عينيها تطبقهما. ستنتشر الصور بكل مكان. تزداد ضربات إيرين على الباب عنفًا. لن تفتح، حتى ترحل من تلقاء نفسها، وتأخذ معها هذا الحشد.

يشدّ القرع والباب يرتج إطراره، وإذ يرنُّ الجرس بلا انقطاع. تحسُّ بخطوات راين نازلًا الدرج فتفتح عينيها.

يسأل راين في توجسٍ، ناظرًا إليها باستغرابٍ: «ماذا يحدث؟».

تَحْمَلُ إليه في ذعرٍ؛ راح عن بالها وجوده معها. الشكر للربِّ أن فايث لم تُعد من مدرستها بعد. ماذا قد يخطر بذهنه وهو يرى أمه منكشئةً على نفسها مغمضة العينين، تضغط أذنيها بكفيها؟ لا وقت للتفسير. تفزع لصوت الباب منفتحةً بقوة. سحقًا! لم يَكُنْ مقفلًا! كيف تجرؤ إيرين على اقتحام منزلها؟ تقفز نورا على قدميها، تاركةً غرفة المعيشة، لتواجه إيرين وولر، الواقفة بالبهو، تدفع الباب عنوةً لينغلق.

تحدّق نورا إليها، بالكاد ميّزت ملامحها. استحال وجهها الجذّاب إلى آخر منهكٍ هزيلٍ خلال تلك المدة القصيرة. وجهها دون مساحيق تجميل، شعرها غير نظيفٍ، ترتدي بنطالًا رياضيًا فضفاضًا وكنزةً مهترئةً. تبدو امرأةً على شفا فقدان عقلها. تراقب نورا كل ذلك مرعبةً، وفي عمق الخوف يتجذّر

الخزي، الخزي من الألم الذي جلبته لهذه المرأة المُعذَّبة. ينتابها إحساسٌ في الحين باستحقاقها العذاب في الجحيم. أغلب الظن أنها تعيشه الآن، في هذا المكان، إذ تتواجهان.

ترتجف نورا أمامها، وبالكاد تلقي نحوها نظرةً. ينجذب انتباه المرأة إلى راين، إذ ينضم إليهما في البهو.

يحتج راين: «ماذا جاء بكِ إلى هنا؟».

تنتبه نورا أن ابنها مذعورٌ مثلها.

تسأله بنبرة تهديدية: «أين هي؟ أين ابنتي؟».

تداهم نورا موجةٌ عنيفةٌ من الدوار.

تصيح إيرين، وعيناها يطل منهما الجنون: «شُوهِدَتْ تركب سيارتك».

تدنو منه بشدة، يعلو صياحها، وإذ تدفعه بعنفٍ ضاربةً صدره بيديها: «ماذا فعلتَ معها؟».

يترنَّح لكنْ يسترد توازنه بسرعة، يقول محتجاً: «لم أفعل شيئاً معها. هذا ادعاءٌ كاذبٌ. لم تركب سيارتي، اختلق أحدهم تلك القصة».

تراقب نورا في بلاهة، حتى تسد له إيرين ضرباً قوياً بكلتا قبضتيها. يتصدى لها راين متراجعاً هرباً من لكماتها، يفقد توازنه ويقع على الأرض، عند الدرج.

تستفيق نورا من سباتها صارخةً راکضةً نحو ابنها.

- ارفعي يدك عنه!

ترفع بصرها إلى عيني إيرين التي تنكفى على ابنها بأنفاسٍ مثقلة، وعينين شرستين، وتلمح من ورائها الصحفيين ملتصقين بالنافذة، متحفزين لسفك الدماء. تتسرب المرارة إلى حلقها. مُحالٌ ما يحدث! أنى لهم التلصص هكذا؟ تلتفت إلى ابنها، وتنحني عليه. لم ينكأ أي أدنى. يبعدها عنه، يتكئ جالساً، ينظر بقلقٍ نحو إيرين. لكن لا خوف منها الآن، وهي تنتحب بحرقه، لمحّة مبالغتة من ألمٍ موجع. تنفجر نورا في البكاء بدورها. وقتئذٍ تصل الشرطة.

الفصل الرابع والعشرون

بينما تنحرف جالي برفقة بلدسو بالسيارة للتوقف عند مسكن آل بلانشارد، تجزم أن بالأمر كارثةً ما، إذ ترى المراسلين متزاحمين بين أحواض الزهور الذابلة، وأيديهم مقوسةٌ حول أعينهم، مختلسين النظر من النافذة الواسعة لغرفة المعيشة.

يقول بلدسو: «ما هذا المنظر؟».

يترجل من السيارة ما إن توقفها، وتنزل في إثره. يناضلان للعبور إلى المنزل، صائحين فيهم بالتحرك وإفساح الطريق، ويوجهان لهم الأمر بالتراجع إلى الصفِّ الآخر من الرصيف. يطرق بلدسو الباب، ثم يدفعه ليدخل؛ بحوزتهما مذكرة تفتيشٍ على أي حال. تلمح من خلفها وصول الفريق الجنائي، إذ تتوقف شاحنتهم البيضاء بالشارع.

لدى دخولهما، تندesh مما ترى. تجهش إيرين وولر بالبكاء في نشيجٍ حادٍّ، ونورا بلانشارد تُحوطُ ابنها في خوفٍ. تتأمل كلتا المرأتين، وكم الألم الذي تتشاركانه فيما بينهما.

يسأل بلدسو: «ما الذي يجري؟».

تقول نورا بهستيرية: «اعتدت على ابني!».

تغمض جالي عينيها للحظاتٍ، ثم تفتحهما.

تسأل برفقٍ: «ماذا جاء بكِ إلى هنا، يا إيرين؟».

تبدو عاجزةً عن الكلام.

تقول لبلدسو: «سأخذها إلى منزلها».

تلتفت نحو نورا وراين، مُردِّفةً: «لا أتصور أنكما ترغبان في توجيه أي اتهامٍ لها».

ترجو أن يحقَّ قولها. يتبادلان النظرات كأنهما متشككان فيما ينبغي فعله، فتستغل جالي ترددهما، لفض الاشتباك.

- حُسم الأمر. هيا، سأصحبكِ إلى منزلكِ، يا إيرين.

تتساءل نورا: «مَن استدعاكما؟ ماذا تفعلان في منزلي؟».

يجيب بلدسو، رافعاً المستند الواجب تنفيذه: «لدينا مذكرة تفتيش».

تشهد جالي الدماء تنحسر عن وجه نورا بلانشارد، وتفوقها حالة راين سوءاً، بينما تصحب إيرين للخارج.

ترافق إيرين المحققة في زهولٍ. لا تصدق ما فعلته، فقدت السيطرة على تصرفاتها بالكامل، كما لو فقدت عقلها، أو انسلخت من جسدها. ربما تُدان بتهمة الاعتداء. بإمكانهما اتهامها إن أرادا، لكن تواجههما معضلةٌ أكبر في هذه اللحظة. يسرُّها أنه سيُجرى تفتيشٌ لسيارة راين بلانشارد ومنزله، كما فُتشت ممتلكات أسرتها من قبل. العثور على آفيري واجبُ الشرطة، عودتها فوق كل شيء. لا يهمها أحدٌ ولا تكثرث لشيءٍ، سوى ابنتها.

ينجحان في شقِّ الطريق إلى سيارة المحققين؛ الرجوع سيراً مستحيلٌ والجمع المسعور في عقبهما، صائحين بالأسئلة، ملتقطين الصور، لا سيما بعد ما رأوه. تُمسك كلتاهما عن الكلام خلال القيادة لمسافةٍ قصيرةٍ بالشارع. تُعيدها جالي إلى منزلها بأمانٍ، وتساعدُها لتستريح متكئةً على الأريكة.

ثم تحدّق إليها في قلقٍ.

- هل تحتاجين إلى شيءٍ، يا إيرين؟ هل أحضر لكِ كوب شاي؟

تنفض إيرين رأسها نفياً. يُضايقها أن جالي لم تصارحها بالتطورات، أخفت عنها مسألة الشاهد الذي رأى آفيري تستقل سيارة راين، بل لم تخبرها بأي شيءٍ البتة. لا تبالي بنظام العمل الشرطي، هي أم آفيري المفقودة، ولها الحق في معرفة ما تعرفه الشرطة. ينزل مايكل الدرج بوجه مضطربٍ، مرتسمةً على وجهه آثارُ بكاءٍ.

- ماذا حدث؟ لمَ ذهبتِ إلى منزل عائلة بلانشارد؟
ترنُ في صوته نبرةُ الجزع.

تبلع ريقها. لا تودُ إطلاعه على ما فعلت، ما باله بأُم خرجت عن السيطرة لتوها. لكنّه بحاجةٍ إلى فهم ما يجري.

- من المحتمل أن أختك استقلت سيارة راين بلانشارد، يوجد شاهدٌ على ذلك، شاهدٌ مجهولٌ بالأحرى.

تحدّق إلى جالي، مُردّفةً: «أليس صحيحاً؟ ألم تسأليني حين اتصلت بي منذ بضع ساعات، عن تصفيقة شعر آفيري في صباح يوم اختفائها؟ ألم تأتيا إلى منزل بلانشارد ومعكما مذكرة تفتيشٍ لهذا السبب؟».

تسألها جالي: «ومن أين عرفتِ؟!».

تطرق رأسها قائلةً في ضجرٍ: «أخبرني ويليام».

ثم تلتفت نحوها: «أنّى له معرفة ذلك؟ أم أنك أخبرتِه؟».

تهزّ جالي رأسها.

- لا، لم أفعل.

تتساءل إيرين: «مَن غيركِ أخبره؟».

لا تجيب جالي.

تُصدَم إيرين بغتةً، صائحةً: «آل بلانشارد يعرفون!».

تلهث بشدة، كأنّها تلقت لكمةً في معدتها.

- رباه! أخبرته نورا بلانشارد، بلا شك. هي المرأة الأخرى!

بعد ظهيرة الخميس، يستقبل آل بلانشارد بمقر عمله مهاتفةً مفزعةً من زوجته.

تقول بصوتٍ متهدجٍ: «الشرطة في المنزل، أسرع بالمجيء. لا أستطيع مواجهة هذا وحدي».

يوحي صوتها أنها لن تصمد طويلاً.

- تمهلي، ماذا قلت؟ لم جاءت الشرطة؟

يخفق قلبه بقوة لدى تذكره ابنه جالساً على الأريكة بغرفة المعيشة الليلة الماضية، عقب عودته من مخفر الشرطة، مصرّاً على إنكار علاقته بأيٍّ مما وقع لآفيري وولر. لكن بقي جزءٌ بداخله متحسباً. كأنه يعيش كابوس معضلة المخدرات من جديد، إلى جانب الذعر والحيرة. يخشى من حقيقة جهله بكل ما يخص ابنه حقاً. لا يثق به، لا يصدق! لديه درايةٌ بكذب زوجته وخداعها له، ويدرك كيف تنحدر أفكاره الخاصة إلى أنفاقٍ مظلمةٍ بالآونة الأخيرة، لدرجة الخجل من إطلاع أحدٍ عليها. من المحتمل أن راين استغفلهم جميعاً.

تقول نورا: «أتى المحققان ومعهما مذكرة تفتيش».

ينهار على مقعده، كمن طرحته الريح أرضاً. تتقطع أنفاسه. توصّل المحققان للشاهد، عرفا هويته. من أخته الجرأة للإفادة بتلك الشهادة ضد ابنه، إن صدق؟ لماذا يدّعي أحدٌ على ابنه كذباً؟ وما العمل لو صحّ ادعائه، وأخذ راين الفتاة في سيارته إلى مكانٍ ما واستغلها، خاف أن تفضح أمره فأصابه الارتباك، وبعدئذٍ... لذا قرر الإنكار، وماذا بيده غير الإنكار؟ لقد أحسن الكتمان، تظاهر بعدم ارتكابه لشيءٍ تاماً، مثلما تعامل مع مسألة المخدرات. استمرّ على إنكاره حتى لم يعد الإنكار ممكناً.

تسأله زوجته عبر الهاتف: «هل أنت قادم؟».

- نعم، سأحضر حالاً.

يستغرب النبذة الهادئة بصوته.

في طريق العودة، يسرح باله محاولاً التفكير فيمن يُضمر الأذى لابنه، من خلال اختلاق تلك القصة. أهو أحد رفاقه في تعاطي المخدرات؟ غير معقول،

لم يذكر راين اسم أحدهم في التحقيق، ولا حتى اسم المورِّع الذي حصل منه على المخدِّر. لربما يقصده ذلك الشخص بالأذية وليس ابنه، أو يقصد زوجته. وهل توجد فكرة أفضل لتعذيب الشخص المقصود من اتهام ابنه بالباطل أنَّه منحرفٌ وقاتلٌ؟ لكن لا أعداء له، ولا حتى لزوجته. مجرد فكرةٍ سخيّةٍ. إنَّهما شخصان عاديان، ليست العداوة من طبعهما. يأمل أن يستدلَّ على هوية ذلك الشخص المُدَّعي رؤية ابنه برفقة آفيري وولر.

عند وصوله، يتيقظ لخطرٍ مُحدِّقٍ. يتجمهر أمام منزله حشدٌ من الصحفيين، يتحلقون حول سيارته وهو ينعطف إلى درب المنزل، بمجرد تعرُّفهم عليه. يهرب للداخل، مدارياً وجهه بيديه من وميض الكاميرات. ما إن يدلف، يقابل المحقِّقين، بلدسو وجالي، أما زوجته وابنه فجالسان بغرفة المعيشة، حيث اجتمع كلهم معاً في ساعة متأخرة من الليلة الفائتة.

يقول بلدسو: «نودُّ منكم الحضور إلى قسم الشرطة للإجابة عن بعض الأسئلة، إذا سمحتم».

ترمقه زوجته مرتعبةً، إنَّما التعبير المطل من وجه ابنه أصابه في مقتلٍ. يبدو مرتعباً لدرجةٍ بائسةٍ.

يختلي ويليام وولر بنفسه في حجرة الفندق قبيل المساء. يتمدد على السرير ويبيده الهاتف الجديد، يتصفح آخر الأخبار. سحبت منه الشرطة هاتفه الخلوي وحاسوبه النقال، لذا تسلل مضطراً إلى متجرٍ محليٍّ، بعد مكالمة نورا هذا الصباح، ليبْتَاع هاتفاً آخر. ينذهل لتوه، من خبرٍ مصوِّرٍ لزوجته، تتبدَّى فيه كامراًةٌ جُنَّ جُنُونُها، تقتحم منزل آل بلانشارد، حيث جرت مشادَّةٌ عنيفةٌ. هذه غلطته! ما وجب إطلاعها على الشهادة مجهولة المصدر حول آفيري وركوبها سيارة راين. سارع إلى إخبارها وفقدت زوجته عقلها جرّاء تهوره.

لا أهمية لما أخبرها به الآن؛ التلفاز مفتوحٌ، وتذكر المراسلة من أمام منزل آل بلانشارد أن الشرطة تزاوّل عملها بعد إصدار مذكرة تفتيش.

تقول: «كشفت الشرطة عن وجود شاهدٍ مجهولِ الهوية، تعتبره الشرطة مصدرًا موثوقًا، وأفاد برؤية الفتاة آفيري تستقل سيارة راين بلانشارد في نحو الرابعة والنصف يوم اختفائها».

إذا فالأمر صحيح، رآها شخصٌ ما تُوْخَذُ بسيارة الفتى. يغوص ظهره بالوسادة، منقطع الأنفاس بغتةً. كيف يُعَقَّل أن ابن نورا اختطف ابنتي؟

الفصل الخامس والعشرون

فرّقت جالي وبلدسو أفراد عائلة بلانشارد عن بعضهم، يقبع كلُّ منهم بحجرة منفصلة، في انتظار استجوابه. تنشغل كل حبرات الاستجواب الثلاث؛ قسم الشرطة بهذه المنطقة مساحته محدودة قليلاً. تدبّرت الأم أمر ابنتها لتصحبها والدّة صديقة لها من المدرسة. في هذه الأثناء، ينفرد المحامي أوليفر فولر بوكيله راين في حجرة استجواب، ستحدّث جالي وبلدسو إلى والدیه ريثما ينتهيان. ونُقِلَت سيارة الفتى إلى المعمل الجنائي.

بيدآن بالأم، نورا بلانشارد. تملكها حالة من الذهول وعدم الاستيعاب، لذا يحاول بلدسو مواساتها.

يقول: «أدرك مدى صعوبة الاحتمال».

تحدّق إليه كما لو تُعلّمه أنه لا يدري مدى الصعوبة حقاً، وجالي تؤيد شعورها؛ لن يستوعب دون أبناء له. لا يمكنه تصور مقدار ما تعانيه.

- نوّد سؤالك مجدداً عن مكان ابنك يوم الاختفاء.

تجيب: «كما أخبرتكما آنفاً. كان في المنزل، لأن مناوبته ألغيت. مكث كلانا معاً حتى تركته لقضاء بعض المهام قرابة الساعة الثانية».

يسأل بلدسو: «أين ذهبتي؟».

تلحظ جالي اتخاذ السؤال لمنحنى غير مريح بالنسبة إلى نورا. لا غرابة مما يجمعها مع ويليام وولر من علاقة حب، فهو أمرٌ متوقع. ممَّن غيرها قد يعلم ويليام بأمر الشاهد؟ فضلًا عن كونها امرأة ذات جاذبية، ويشكلان معًا ثنائياً باهرًا.

تقول نورا: «اشتريت بعض الحاجيات، وأتممت مهامًا عاديةً أخرى».

- متى عدتِ؟

- نحو الخامسة إلا الربع، قبل عودة فايث من تدريب كرة القدم في الخامسة. كما أخبرتكما من قبل.

- وراين، هل وجدته في المنزل؟ هل رأيت سيارته؟

تهزُّ رأسها نافيةً، وتقول في صبرٍ نافذٍ: «لا، أبلغني بخروجه في جولة بسيارته قرابة الرابعة والنصف».

- وفي أي ساعة عاد؟

- بعد السادسة مساءً، قرابة السادسة والنصف.

يُسمع طرقٌ على الباب، يقطع الاستجواب.

ينادي بلدسو ملتفتًا إلى الوراء، وينظر نحو الباب: «ادخل!».

يشير له شرطيٌّ ليخرج، ويثار فضول جالي. بعد لحظات، يعود بلدسو ويتخذ مكانه ثانيةً.

يقول: «احزري ما عُثر عليه في منزلِك؟».

تتصلَّبُ ملامح نورا بلانشارد.

يُردف: «هاتفٌ خلويٌّ مسبقُ الدفع، مخفيٌّ خلف فتحة التهوية بغرفة نومك. ما قولك؟».

تراقب جالي من كثبٍ ذبولَ وجه المرأة، ويساورها الأسف على مصابها.

تنهار أعصاب نورا، في مقعدها الخشبي الصلب بحجرة الاستجواب. في خضم كل ما جرى: هجوم إيرين على ابنها، تلصُّص الصحفيين والتقاط صورٍ

لشجارهما من النافذة، مذكرة التفتيش وانقياد أسرتها إلى مخفر الشرطة كالمجرمين، راح هاتفها المؤقت عن بالها تمامًا. يؤسفها مدى غباؤها، انبغى عليها التخلص منه، بيدَ أنَّها أملت استمرار تواصلها مع ويليام. والآن اكتُشف أمرها. لا ريب سيعرف آل، ستتأكد شكوكُها. ستُفَضَّح بين الناس؛ لن تكتُم الشرطة مسألة العثور عليه، لم تكبُذ العناء؟! كيف التغاضي عن تحولٍ مثيرٍ في مسار القضية؟! والد الفتاة الصغيرة المفقودة ووالدة المتهم به الأول، عشيقان! ستولع الصحافة بالخبر!

ترفع بصرها من جديدٍ إلى المحققين، المترقبين اعترافها. تجاهد لتتطرق: «إنه لي».

يقول بلدسو: «علمنا أنه هاتفك. أخفى ويليام وولر هاتفًا مثله، والرقم الوحيد المسجَّل بقائمة الاتصال هو رقم الهاتف الذي وجدناه في منزلك». يسكت هنيهةً، ثم يُردف: «مما يعني أنكما في علاقةٍ غرامية». تعترف خافضةً البصر في خزيٍ وانكسارٍ: «كنَّا على علاقة، وأنا التي أنهيتها».

يعلّق: «يا لها من دنيا صغيرة!». تظلُّ على صمتها البائس.

- يا تُرى ما شعور ابنك راين وأنتِ تنامين بين ذراعي ويليام وولر؟ ترفع رأسها بسرعة، قائلةً: «لا يعلم ابني شيئًا». يقول بلدسو: «غالبًا ما يعرف الأبناء ما يفوق تصور الآباء».

ينخلع قلبها والسؤال يدور في سريرتها. أيدري ابنها بعلاقتها الغرامية مع ويليام؟ مُحالٌ أن يحسباه اختطف آفيري عقابًا لويليام! عقابًا لها! لا، مُحالٌ أن تصدق هذا! راين لا يفعلها.

ربَّاه! يجيش حلقها بالمرارة فتمتصها، وإذ رأسها يترنح فتقبض على طرف الطاولة. تُقَرَّب منها جالي كوب ماء، تشرب متخلصةً من المرارة بفمها ويدها الممسكة بالكوب ترتعش، في حين يترقبها المحققان.

تنطق بعد هنية: «يجهل راين ما بيننا».

إنّما ما يجول بذهنها هي الخيانة الكبرى التي تفوق نومها مع رجلٍ آخر لحدودٍ بعيدة. تستحق العقاب أبد الدهر جزاء ما ستفعله.
- لكن أظنّ زوجي يعرف.

تُصطَحَبُ فايت بلانشارد بعد انتهاء تدريب كرة القدم، في سيارة السيدة «سليجال» والدّة صديقتها «سامنثا». تفضل فايت العودة إلى المنزل، على مرافقة سامنثا بمنزلها. يعتريها القلق وتودّ الاطمئنان إلى جوار أمها. تُثرثر صديقتها بجوارها في المقعد الخلفي لسيارة الدفع الرباعي، مسرورةً من تغيير خطط اليوم.

لا تنصت إليها، بالها مشغولٌ بالتوتر المشحون ليلة البارحة في غرفة المعيشة، حينما استيقظت واضطر أهلها إلى إطلاعها على ما يحدث. لولا أن النوم جفاها، لما أخبروها بشيء، ستظلُّ طفلةً في أعينهم. قصّوا عليها تعرّض أخيها للاستجواب حول اختفاء آفيري بعدما تلقت الشرطة بلاغًا كاذبًا. على الرغم من قولهم، تتساءل إذا ما يحمل البلاغ بعض الحقيقة. تسمع الكثير مما يزعج في الفترة الأخيرة، حتى جاءها خبر مجيء الشرطة إلى منزلهم. لذلك تصحبها والدّة صديقتها كي لا تعيق عملهم.

لم تزل غاضبةً من أخيها لما سبّبه لهم من معاناةٍ خلال الشهور الماضية. هاجت بالمنزل حالةً أشبه بالعاصفة، وشمل الجميع الذعرُ من أنه سيُزجُ بالسجن. بكت أمها كثيرًا في الخفاء، ولزم أبوها هدوءًا شديدًا. تجهّمت ملامح أخيها وانغلق على نفسه. نال منها الإحباط والقهر؛ رغم أن راين أصغر من السن القانونية ومن المفترض حفظ هويته سرًّا، بعض زملائها علموا بما وقع له، لأن «كيتي» سمعت والدها ضابط الشرطة يتكلم عنه، وهي لا تتردد في إفشاء سرٍّ أبدًا. سخروا منها ومن أهلها، لكن تمكّنوا من تجاوز محنتهم، ولم يذهب أخوها إلى السجن. فُرض عليه تأجيل دراسته الجامعية لهذا العام

والتطوع في ملجأٍ للمشردين، ولم يرضَ بحاله، غير أنَّه نال ما يستحق من وجهة نظرها.

أما الآن، تتمنى لو رحل لجامعته، وما تورَّط في شيء. ترتعب حد الإعياء، وتتقلص معدتها. الأمر كله يُعاد من جديد، المختلف أنه يفوقه سوءاً أضعافاً مضاعفةً.

تنتبه إلى عيني والدته سامنثا ترقبها عبر المرأة. تجابهها فايت بالنظر إليها شزراً، فتلتفت الأخرى مُحرجةً.

الفصل السادس والعشرون

ينتظر آل في حجرة الاستجواب الخالية، على أحر من الجمر، منشغلَ الفكر بما يجول بالخارج. يكره الجهل بما يجري حوله. كم سيطول انتظاره لهما؟ وهل يجوز لهما حبسه في هذه الحجرة؟ عندئذٍ يتذكر أوليفر فولر وتحذيره للمحققين قبل تفريقهم أنه في حال توقيفٍ أو احتجازٍ أو حتى اعتقالٍ أيٍّ منهم، يتحتم إعلامهم بالحقوق القانونية. لم تُقرأ عليه أي حقوقٍ حتى اللحظة، كما جاء طواعيةً، إذًا فهو حرٌّ، يغادر حينما يريد.

وإذ ينهض، يُفتَح الباب، ويدخل منه المحققان، بلدسو وجالي، فيعود لكرسيه من فوره.

يقول المحقق وهو يسحب الكرسي المقابل له، وتقع المحققة على الكرسي الآخر: «نأسف على إطالة انتظارك».

يسأل آل: «هل يتوجب عليّ البقاء لفترةٍ أطول؟».

يخبره بلدسو: «لا، يمكنك المغادرة متى شئت. إنَّما وجودك معنا سيساعدنا وسيدعم ابنك طبعًا، لو لديك إجاباتٌ وافيةٌ عن أسئلتنا».

يقول آل مدعناً إلى التعاون: «هذا صحيح. لا فائدة سترجى من الشجب والاعتراض».

يستعلم بلدسو: «وضَّح لنا مكانك بعد ظهيرة الثلاثاء الماضي».

- ماذا؟

لم يتوقع توجيه أسئلة عنه، حَسِبَ أنَّهما يريدان التحدُّث إليه بخصوص ابنه. المحقق مصرُّ على السؤال ولا يُعيده عليه.
يردُّ آل تلقائيًّا: «بالعمل».

- هل يوجد أحدٌ بمقر عملك باستطاعته التصديق على قولك؟
لا يوجد بالطبع. يتذكر لتوه أنه لم يَكُنْ بعمله بعد ظهيرة ذلك اليوم.
يقول: «معذرةً، لقد تذكرت. خرجت من المكتب يوم الثلاثاء، من أجل اجتماعٍ مع عميلٍ من الساعة الواحدة حتى الثانية بقليل».

- وماذا فعلت بعد انتهائه؟

- لماذا توجَّه إليَّ هذه الأسئلة؟

- أجب فحسب، من فضلك.

يبتلع آل ريقه. يتمهل في إجابته، لا يرغب في الكذب على الشرطة.
يعترف على مضضٍ: «لم أعد إلى المكتب. توقفتُ.. توقفتُ بنزُلٍ».
- أيُّ نَزْلٍ؟

يشعر بالدماء تندفع إلى وجهه، ويزيد إحساسه بالانزعاج.

- نَزْلُ النسائم، على طريق تسعة.

يتبادل المحقق نظرةً مع زميلته، سائلًا: «ولماذا ذهبت إلى هناك؟».

يتململ في جلسته. لا يريد إخبارهما. يستعر بداخله الغضب والخجل، ما الذي أوصله إلى هذا الوضع، ليضْغَطَ عليه بالأسئلة؟ يتفكر فيمن أوقعه في هذا الموقف المخرج، أليست زوجته؟ في النهاية، يقرر الإجابة، محاولًا مداراة غيظه قدر الإمكان.

- ما دمت مصرًّا على المعرفة، فإن زوجتي على علاقةٍ غراميةٍ بآخر.
ارتبْتُ في تصرفاتها منذ فترةٍ، لذا تبعتها في أحد الأيام. تذهب بعد ظهيرة كل ثلاثاء إلى ذلك النزل، للقاء ويليام وولر.

تتسرب الحرارة إلى عنقه، متابِعًا: «وهكذا، في الثلاثاء من كل أسبوعٍ، أركن سيارتي خلف حاوية النفايات وأتربص هناك حتى يحين خروجهما». عندها ينفلت ما كتّمه داخله بغتّةً، وينهار باكياً. يا للإحراج! يا للمهانة! غلبه الخزيُّ. يُمهّلانه حتى يتمالك أعصابه.

- متى خرجا من النزل؟

يضغط عينيّه بيديه لمسحهما.

- نحو الرابعة إلا الربع. أبكر من المعتاد.

يسأل بلدسو: «ماذا فعلت بعدها؟».

- لا شيء. لبثتُ في سيارتي خلف حاوية النفايات حتى حان موعد عودتي إلى المنزل. غادرتُ في الخامسة والنصف تقريبًا.

أفصحَ بما في جعبته كله، البائس منه والمحرج، ثم تابع: «واظبتُ على فعل ذلك كل ثلاثاء، حتى إنني أبلغتهم في العمل عن ارتباضي بموعدٍ بعد ظهيرة أيام الثلاثاء في الساعة الثالثة، ولا أعود إليهم بعده».

يرتعش صوته مضيئًا: «ثم أعود إلى المنزل وأتظاهر أنني رجعتُ لتوي من العمل».

تأخذ جالي وبلدسو استراحةً قصيرةً وحدهما، قبل استجواب راين بلانشارد. اقترحا على نورا وآل الانصراف للراحة، لكنّ فضلًا انتظار ابنهما. قد تطول مدة مكوثهما، وقد تنتهي الجلسة سريعًا.

تقول جالي، متفكرةً بوضع آل بلانشارد، الجالس بالسيارة خلف حاوية النفايات كل ثلاثاء، بينما زوجته برفقة ويليام وولر يمارسان الحبّ في حجرة النزل: «يصعب التكهّن بما يضره الناس اعتمادًا على أفعالهم، ألا توافقني؟».

يقول بلدسو بنبرةٍ متشائمةٍ: «ما يعرفه دافعٌ في حدّ ذاته».

تومئ جالي برأسها.

- هذا صحيح.

- لا نملك إلا كلمته أنه مكث في موقعه حتى الخامسة والنصف، بالإضافة إلى علمنا المسبق بتوقف كاميرات المراقبة كلها في النزل المعني. من المحتمل أنه تسنى وقت إضافي له يومذاك، وتعبَّ ويليام ليفتعل معه شجارًا، غير أنَّ الآخر غادر منزله مجددًا، ورأى ابنته أفيري تخرج وحدها فخطفها. ظنَّ أنه بمثل ذلك الفعل قد يجعل الجميع يوجهون أنظارهم بالاتهام إلى ويليام.

يُردف: «لا بدَّ أنه الانتقام، أقدم دافع في التاريخ».

- إذا فرضنا أن ويليام لم يقتل ابنته، وراين لم يأخذ الفتاة بسيارته، ما يزال أمامنا لغز رفيقها. أحتاج إلى سؤال ديريك سيتن. يؤيدها متنهذا: «عندك حقُّ. كما نحتاج إلى سجل مكالمات آل لتحديد مساره، واستبعاده من المشتبه بهم، لكننا لم نصل لإفادات كافية لإصدار مذكرة».

تستغرق بأفكارها: «من المؤسف أن معرفة نورا بويليام وولر أو بطبيعة علاقته بابنته يتخللها قصورٌ ملحوظٌ».

يقول بلدسو: «أنتنظرين سماع أكثر مما قالت به أنه من المُحال إقدامه على فعلها، واعترافها أنَّها السبب في شعوره بالإحباط بعد قطع علاقتها معه. ألا يكفي مثل ذلك الضغط العصبي لدفعه إلى الجنون؟ هيا لنستجوب راين. لن يطول الأمر لا سيما في حضور محاميهِ. إن لم يُقَض بما يفيد، سنضطر إلى إخلاء سبيله، في الوقت الراهن على الأقل».

الفصل السابع والعشرون

التوتر على أشده في أثناء عودة ثلاثتهم إلى المنزل، مما يدفع نورا للتفكير بفتح باب مقعدها المجاور للسائق والقفز من السيارة، لترجع وحدها سيرًا. عقب تحدّث المحقّقين إليها، تحدّثا إلى زوجها، لذا فقد تيقّن آل مما شكّ فيه، إنّ لم يتيقّن قبلًا من علاقة الحبّ التي تجمعها بويليام. الأجواء بينهما مشحونة، لكنّ لن يناقشا مسألتهما وراين معهما بالسيارة، سيأتي موعد النقاش لاحقًا هذه الليلة، حينما ينفردان ببعضهما. تتوجس من دُنوّ الوقت، إلى أي درجة سيستشيط غضبه؟ رأت في تصرفاته مؤخرًا ما لم تظنّ إليه قبلًا. تصدر عنه تلميحاتُ حانقةٌ لاذعةٌ كلما ذُكر اسم ويليام وولر، يغلي شعورٌ ما وراء هدوئه وميله إلى الانعزال. كيف ستجابهه؟ ماذا ستقول له، انتهى ما بينهما وهي نادمةٌ، وستعوضه عمّا ارتكبته من ذنبٍ في حقه، أم لم تنتهِ علاقتهما ولا شيء تأسف عليه، وهي واقعةٌ في حبّ ويليام؟ لا تدري ما يجب فعله، جُلّ ما تعرفه وموقنةٌ منه، أن ولديها هما الأهم بحياتها، وهما بحاجةٌ أمهما.

ما تخشاه أكثر من زوجٍ ساخطٍ وزواجٍ شارف على الانتهاء، هو ما يصدقه المحققان فيما يتعلق برؤية أفيري مع راين بسيارته. لم تُعد تعرف ما يجب تصديقه. ستسأل زوجها لَمّا يتواجهان إذا ما يعلم راين بما بينها وويليام. ربما أخبره بنفسه.

يسأله آل، ناظرًا إليه في المرأة وهو يقود: «ماذا قلتَ للمحققين؟».

يردُّ راين: «لا شيء».

يقول آل بنبرة محتدَّة: «ماذا تعني بلا شيء؟ بالتأكيد قلتَ لهم شيئًا».

- لم أنطق بكلمة. طلب مني أوليفر ألا أقول شيئًا، لذا فعلت ما طلبه بالضبط.

يضغط آل، إذ تستمع إليهما نورا في جزع: «عمَّ سُئِلت؟ ماذا قال لهما أوليفر؟».

- لا شيء حقًا، لا شيء جديد.

تتمنى نورا لو بوسعها تصديقه. إنَّما هكذا تصرَّف المرة الفائتة، أغلق على نفسه، أغلق عليهما الطريق إليه، امتنع عن البوح لهما بأي شيء، حتى وقع ما فات استدراكه.

مع حلول المساء، تحبس إيرين نفسها في الحمام وتغطس في الماء الدافئ. تُسند ظهرها إلى جدار حوض الاستحمام وتطبق عينيها. إذا صحَّ أن راين بلانشارد خطف آفيري أو خطفها أي أحدٍ خلاف زوجها، قد تخف عن كاهلها وابنها وطأة المصيبة. سيسهل عليهما توجيه اللوم إلى شخص غريب، رغم عجزهما عن العثور على ابنتها. تُجري بذهنها بضعة حساباتٍ تقديرية، آفيري مفقودة منذ ما يُقارب الواحد والخمسين ساعة. على الرغم من أخذ راين إلى المخفر لاستجوابه، علمت أنه أُخْلِيَ سبيله من خلال نشرة الأخبار. تجهل الشرطة هوية الشاهد، لذا تركته يذهب. توجَّب اعتصاره عصرًا حتى يخرَّ معترفًا بذنبه وبمكان احتجازها. بيد أنَّ معه محاميًا يدعمه حتمًا. تعلم كيفية عمل المحامين، لن تقدر الشرطة على نزع كلمة منه، ما دام محميًا بموجب حقوقه القانونية، ولو على حساب ابنتها المسكينة المخفية بمكان، ربما الوحيد الذي يعلمه هو راين. هل انعدمت الإنسانية؟ أين العدل والإنصاف؟ ماذا عن حقوقها وحقوق ابنتها؟ لا ضير من الإتيان بمحامٍ للدفاع

يتقن عمله، إنّما عليه الرؤية من الزاوية الأخرى، من زاوية أمّ اختطف ابنتها وحشّ بلا رحمة.

تطرق جالي باب منزل عائلة سِيتن، متتبّعة مسألة ديريك سِيتن. قد يُفضي تفتيش سيارة راين إلى دليلٍ وقد لا يتأتى منه شيءٌ. يجب إيجاد الطفلة، ومع مضي كل ساعةٍ على اختفائها يزداد ساكنو المنطقة اضطراباً وتخبّطاً. تتهافت البلاغات عن أشخاصٍ مثيري الريبة دونما توقفٍ. تتذكر المشهد المرّوع الذي وقع منذ ساعاتٍ قليلةٍ، وإيرين منكبةٌ على الفتى بعدما أوقعته أرضاً وأمه مَحْنِيَةٌ عليه تحميه، وإذ الضباع البشرية من الوسائط الإعلامية تتدافع على النافذة. كلٌّ يسعى وراء الحقيقة بطريقته.

تفتح أليس سِيتن الباب، بدهشةٍ جليّةٍ لدى مرآها.

تسأل جالي: «هل يمكنني الدخول؟».

تقول: «نعم، تفضّلي».

تسمح لها بالدخول إلى الردهة، وإذ تخفض صوتها سائلةً بنبرةٍ كيديةٍ: «هل هو راين بلانشارد؟».

يبدو أن الجميع منصبٌّ على متابعة الأخبار.

تقول: «لا يجوز لي مشاركتك أي تفاصيلٍ عن القضية، كما تعلمين».

تومئ برأسها متفهمّةً وتهزّ منكبيها باستخفافٍ، ثم تقول: «الأمر أن جينا مصدومةٌ جدّاً من اختفاء آفيري، وكذلك كل زملائها بالصفّ مذعورين غير مستوعبين لما يجري. نأمل جميعنا الإمساك بمنّ اختطف آفيري في أقرب وقتٍ ممكن».

تسكت هنيهةً، ثم تسأل: «بمّ أساعدكِ؟».

تقول جالي: «أودُّ التحدّث إلى ابنكِ ديريك».

كأنّما أخذت على حين غرة.

- حسنٌ، لكن لا أحسبه يعلم أكثر مما أخبرتك به أخته. كما لا تجمععه صداقةً مع راين مطلقاً.

تتبعها جالي إلى غرفة المعيشة. تتهاذى إليها أصواتٌ من المطبخ، أتت في موعد عشاء الأسرة.

- اعذريني على قطع وجبتكم.

- لا داعي للقلق، انتهينا لتونا.

- يجب حضورك أو حضور زوجك في أثناء التحدّث إلى ابنكما القاصر، ويُفضّل مرافقة أحدكما لأخته في الطابق الأعلى.

تنظر إليها أليس ملياً، ثم تقول: «حسنٌ سنفعل، سأطلب من بيتر الصعود لأعلى برفقتها. أمهليني بضع دقائق».

تدلف إلى المطبخ ويصل إلى سمع جالي أصواتٌ خافتةٌ، يليها صوتُ الفتى يعلو محتجاً، حتى خرج جميعهم. تومئ لها السيدة سيتين إذ يصعد زوجها وابنتها الدّرج. تنظر جينا خلفها نحو جالي، وحدقتا عينيها متسعتان. ديريك ملامحه غير مميزةٍ، طوله متوسطٌ، شعره بنيٌّ مبعثرٌ، على جبهته بعضُ البُثور. تبتسم له جالي إذ يقعد بجانب أمه على الأريكة، وتُقرّب مقعدها قليلاً لتباشر.

- معذرةٌ على إزعاجك، لكنك تدرك مدى أهمية العثور على آفيري بالنسبة إلينا.

يومئ الفتى ناظراً إليها في توجسٍ، وأليس ترقبها، ومن الواضح تتساءل عما جاء بها إلى منزلهم.

تسأل جالي: «هل تعرف آفيري؟».

ينظر ديريك إلى أمه كأنما يستفهم منها، لم يُوجّه إليّ هذا السؤال؟ ثم يعيد انتباهه إليها قائلاً: «بالطبع أعرفها، إنّها صديقة جينا، نوعاً ما».

تلاحظ كيف ينزعون في كل مناسبةٍ، إلى التأكيد على نفور جينا من صداقة آفيري، مما يبعث في جالي الشفقة على آفيري.

- هل قضيت وقتًا برفقتها، في وجود أختك؟
- يهزُّ رأسه نافيًا، ويلقي نظرةً أخرى إلى أمه المتجهمه بجانبه.
- لا، لا تحبذان دخليًا بينهما.
- تغامر جالي بما لديها: «هل تعتقد أنَّها وقعت في حبك؟».
- يحمُرُّ وجه الفتى حتى أطراف شعره.
- لا.

تقاطعهما أليس: «ما محور التساؤلات بالضبط، أيتها المحققة؟».

توضح جالي: «أحاول الوصول إلى جذر السر الذي ائتمنته آفيري ابنتك، عن رفيقها الأكبر سنًا. قد يتضح أنَّها نسجته من خيالها، أو أُعجبتُ بفتى يكبرها بالعمر، وديريك أكبر منها. ربما حاولت التقرب منه».

تقول أليس: «هذا سخيّف. لا علاقة لديريك بتصرفات آفيري».

تقول جالي ناظرةً إلى عيني ديريكي: «لكن هذا ينافي الواقع».

يبادلها ديريكي التحديق ويبتلع ريقه. لا يلتفت إلى أمه الآن. تطبق عليهم هنيهةً من صمتٍ ثَقِيلٍ.

تسأل أليس بنبرةٍ مضطربةٍ: «عمّ تتكلمين؟».

أثرٌ على صدق التعاطف النابع من داخلها تجاه صدمة أليس، اندفاع المرأة الغاشم في وقتٍ سابقٍ إلى الاشتباه بآدم وينتر لمجرد أنه فتى مختلفٌ.

تعي جالي أن مَنْ يختلفون عن الناس ليسوا بالضرورة مصدرًا للقلق، بل مَنْ يفعلون السوء دون أن يرتاب بهم أحدٌ.

تتجاهلها جالي.

- هل سبق لك دخول بيت الشجرة في الغابة مع آفيري، يا ديريكي؟
- يزدرد الفتى ريقه مجددًا.
- لا أتذكر.

تقول جالي برفقٍ: «تتذكر حتمًا. رآك أخوها مايكل برفقتها هناك منذ أسابيع قليلة».

تُردِف: «كنتما وحدكما، أنت وآفيري، داخل بيت الشجرة، والسلم مرفوع لأعلى. ما الذي انشغلتما بفعله وحدكما، يا ديريك؟».

يتجلى الرعب على وجهه.

- لم نفعل شيئاً.

ترى أليس على وشك الإنماء.

تُعيد عليه جالي السؤال: «ماذا فعلت معها؟».

يرتجف الفتى.

- وجدتُها ببيت الشجرة عندما صعدتُ. ذهبت في أحد الأيام إلى هناك حين توفّر لي وقت فراغ، ظننته خالياً فتسلقت الحبل، ولمّا فتحت الباب وجدتُها بالداخل. لم أتوقع أن أجد أحداً. تبادلنا حديثاً قصيراً فقط، تحرّجتُ من وجودي معها. كنت مغادراً مع وصول مايكل، لمحنته آفيري من النافذة فنادتته.

- وبعد ذلك أنزلتُ له السلم.

- على ما أعتقد، لا أتذكر بوضوح.

- ما يحيرني هو رَفْع السلم من البداية.

الفصل الثامن والعشرون

تراقب أليس ابنها بقلبٍ منتفضٍ، تزداد المسألة غرابةً وبسرعةٍ فائقةً. اعتقدتُ أن المحققة جاءت من أجل استفساراتٍ روتينيةٍ من ابنها، إنَّما الحال على النقيض تمامًا. تشبَّه في ديريك أنه تحرَّش بفتاةٍ في التاسعة. تجاهد أليس حتى تُخفي ارتياحها وهي ترقب ابنها المرتجف، والذعر بادٍ عليه. بغتةً يعترئها الإعياءُ، وتتمنى وجود زوجها معهم، لا تعرف ما العمل في هذا الوضع. تودُّ إحضاره إلى هنا، لكنَّ لا تقوى على الإتيان بحركةٍ. بلغت صدمتها من الشدة حدَّ عجزها عن مناداته لينضم إليهم.

تضغط جالي: «لماذا رُفع السلم، يا ديريك؟».

يقول: «لم يُرَفَّع».

- وفقًا لقول مايكل فقد كان مرفوعًا، وأنزلته آفيري له ليصعد.

- إذا فهي التي رفعتَه، لستُ أنا الفاعل.

تتضرج بشرته بحمرةٍ قانيةٍ.

تقول المحققة، وأليس تراقبه في ذهولٍ: «إنَّني على درايةٍ بحاجة

المراهقين للتردد على بيت الشجرة، يا ديريك».

يلبث ابنها صامتًا بأثَّسًا.

تزدرد ريقها بصعوبة وحلقها جافً. خالت بيت الشجرة مخصصًا للعب الأطفال، لا تطيق معرفة المزيد بشأن ذلك.

تهتف به جالي: «ديريك؟».

يخامرها خوفٌ من أنه سيتفوه بما لا ينبغي له الإفصاح عنه، بما لن تتحمل سماعه. يجب أن تضع حدًا لما يجري.

تنادي بصوتٍ عالٍ، مائلة الرأس نحو الدّرج: «بيتر! يمكنك النزول إلى هنا من فضلك؟».

تتراجع جالي في مقعدها، متضايقَةً على ما يبدو من إعاقة سير أسئلتها. الصمت خانقٌ في انتظار حضور بيتر. يهرول زوجها على الدّرج ويصل إلى غرفة المعيشة مستطلعًا أجواءها. يلقي نحوها نظرةً متسائلةً فيتبين وقوعهم في مأزقٍ.

تقول هامسةً: «توجه المحققة جالي إلى ديريك اتهاماً ما».

يرتسم الفزع على وجه زوجها.

تطلب منه جالي: «اقعد، من فضلك. لا أوجه أي اتهامٍ لأي أحدٍ».

يتخذ مقعدًا له على الأريكة بجانب ابنه على الطرف الآخر، متبادلًا نظراتٍ خاطفةً معها من فوق رأس ديريك. تتمعن في وجهه والمحققة توضح الموقف، ترى ما يخامرها من استنكارٍ وارتياحٍ مرتسمًا على ملامحه. من ثم ينصبُّ تركيز ثلاثتهم على ابنها.

يقول ديريك: «لا شأن لي بما يفعله الفتيان الآخرون، لم ألمسها قط. ما حدث أنني ذهبت إلى بيت الشجرة في أحد الأيام، وفُوجئت بها هناك تلعب وحدها فأشفقتُ عليها. لهذا تكلمتُ معها قليلًا، وفي طريق مغادرتي، ظهر مايكل. هي التي رفعت السلم بالتأكيد، لم أرفعه مطلقًا. لم ألمسها قط! لماذا تصدقين مايكل وتكذبينني؟».

يشرع في البكاء.

تقول جالي ببساطةٍ: «ما من داعٍ ليكذب مايكل».

تقاطع أليس بحدّة: «وابني ليس كذابًا!».

عندئذٍ تسأله جالي، بنبرة سلسة غير رسمية: «إنّني أتساءل يا ديريك، أين كنت بعد ظهيرة يوم الثلاثاء الماضي؟».

كأنّما انتزعت من حياتها وسقطت في حياة شخصٍ آخر. تطلب المحققة من ابنها تقديم حُجة غيابٍ. أمرٌ ينافي العقل تمامًا! فقد زوجها النطق من هول الصدمة مثلها يبدو.

- غادرتُ المدرسة في الثالثة والنصف وعدتُ من فوري إلى هنا.

- هل رافقك أحدٌ في المنزل وقتذاك؟

تتوجس خيفةً، لم يرافقه أحدٌ منهم نهار الثلاثاء. كان بيتر بعمله وجينا في تدريب الكورال، وخرجتُ لقضاء بعض المهام. بعدما انتهتُ، اصطحبتُ ابنتها من المدرسة لتشتريَ لها حذاءً.

يقول ديريك: «لا».

تقول أليس: «وصلتُ ومعِي جينا بعد الخامسة بقليلٍ، وجدتُ ديريك في المنزل، كما قال».

تقول جالي وهي تنهض: «عظيم. أشكركم. يكفي ما توصلنا إليه في الوقت الحالي».

تغادر جالي، وتغلق أليس الباب خلفها لتعود أدراجها إلى غرفة المعيشة، حيث ابنها وزوجها متخشّبين وصمتٌ مهلكٌ يطبق عليهما.

يرفع ديريك بصره إليها صائحًا: «لم ألمسها، أقسم لك! لا أعرف كيف يخطر ببالها ذلك؟!».

وإن ينفجر في بكاءٍ بحرارة.

تصدقه، تصدق ابنها طبعًا. تتوق بشدةٍ إلى تصديقه. تقعد بجانبه وتجذبه إلى حضنها، تواسيه قائلةً: «لم تفعل، لم تفعل قطعًا».

تنظر بطرف عينيها إلى زوجها، يعاني آثار الصدمة ووجهه ممتنعٌ.

ينشج ابنها قائلاً: «ماذا لو تعتقد الشرطة أن لي دخلًا ب...؟».

تخرسه أليس: «لا يمكن للشرطة إساءة الظن بك».

تستنكر المسألة برمتها.

انتهى الفريق الشرطي من تفتيش منزل بلانشارد، واستردَّ أصحابه سُلطتهم عليه. تتساءل نورا عمَّا وجدوه، عدا الهاتف المخفي. تأخَّر موعد العشاء على غير العادة وخيَّم عليه هدوءٌ شديدٌ، مشحونٌ بمشاعر محتدمة. تتفكر متألمةً ابنتها، حتى فاith مغتمةً بصورةٍ غير طبيعيةٍ. لا عجب بعد كل ما وقع لهم.

تسألها نورا: «كيف قضيتِ وقتكِ بصحبة سامنثا؟».

تقول متحاشيةً النظر في عينيها: «على نحوٍ جيدٍ».

يئست نورا من محاولة فتح أي حوارٍ معها. علمت ابنتها أنَّهم لبتوا في مخفر الشرطة من بعد انتصاف النهار حتى قبيل المساء، ولهذا اضطرت لتمضية بعض الوقت مع صديقتها. كذا علمت بتفتيش المنزل واحتجاز سيارة راين للفحص. وضَّحوا لها أنَّ المتصل المجهول هو السبب، رغم ذلك لا داعي للقلق منه فشهادته مزيفةٌ، وستدرك الشرطة كذبه قريبًا. لكنَّ ابنتها غير مقتنعةٍ كيفما يتبدَّى لها، لأنَّ الرعب ينهشهم ويصرُّون على مُداراته.

يتحرَّقون جميعهم لترك مائدة الطعام. أول مَنْ يُبعد صحنه ويقف خارجًا من المطبخ هو آل. تسمع نورا خطواته متجهًا إلى غرفة المعيشة ويشغل التلفاز. ينهض راين دون أن ينبس بكلمةٍ، ويصعد الدَّرج متثاقلاً نحو غرفة نومه، حتى تهادى صوت بابها يُغلق.

تقول فاith: «لديَّ واجباتٌ مدرسيةٌ».

تأخذ حقيبة ظهرها من ردهة الباب لتصعد بدورها إلى غرفتها.

تُترك وحدها على المائدة، عاجزةً عن الحراك. حان وقت التحدُّث إلى زوجها. تحمل نفسها على النهوض وتنظيف الأطباق، تتلَّكأ قدر الإمكان. يتعذَّر عليها إرجاء ما يجب فعله أكثر من ذلك، تدلف إلى غرفة المعيشة، آل بانتظارها. يلمحها قادمةً فيرفع صوت التلفاز، يشاهد مباراة كرة سلة،

سيغطي الضجيج على حديثهما إلا إذا احتدم الجدل. بيد أنه يتراءى لها من الأفضل إطلاق كل ما في جعبتهما؛ خيانتها له ستُنشر بالصحافة في القريب العاجل على أي حال. لا تثق بتصرّيات الشرطة.

تقعد إلى جواره على الأريكة، مَنْ يا تُرى سيشعل الفتيل أولاً؟ تُفضّل التمهّل، أعصابها مشدودةٌ للغاية وتشعر أنّها على شفا الانهيار. يستهل وعيناه مركّزتان على شاشة التلفاز: «جمعتكِ علاقة حبّ مع ويليام وولر».

صوته خفيضٌ لكنّ يجلدها بمرارته واشمئزازه.
تسأله بصوتٍ منكسرٍ: «هل أخبرتك الشرطة؟».
- عرفتُ مسبقًا.

يسكت قليلًا، ثم يُردف: «والآن الكل سيعرف».
يُدْهِشها هدوؤه الظاهر في حين تتخبطُ ألمًا من داخلها.
تقول: «حسبتُ أنك تعرف. هل كلفتَ أحدًا بتعقبِي؟».
- لا، تتبعتكِ بنفسِي.

تتقلص معدتها لمجرد تصور آل يتعقبها إلى النزل، يراقبها، يراها برفقة ويليام. لم تلحظه على الإطلاق. وظنًّا أنّهما أحسنا التخفّي، يا للحماقة!
وانتها الجرأة لتنظر إليه وتقول بعد هنيهة: «متى حدث ذلك؟».
تريد أن تعرف منذ متى يعلم بأمرهما.
- كل ثلاثاء على مدار الشهرين الماضيين.
صُعِقَتْ، وفغر فاهها.

يقول، ملتفتًا نحوها: «فُوجئتُ أنه باستطاعتي التظاهر مثلك تمامًا، أليس كذلك؟».

يدنو منها حتى يكاد وجهه يلتصق بوجهها، كأنّما يميل لتقبيلها، يفحّ صوته قائلاً في استهجانٍ: «توقفتُ بسيارتِي هناك، خلف حاوية القاذورات بباحة الوقوف، بعد ظهيرة كل ثلاثاء، أترقب خروجكِ من ذلك النزل الحقير

برفقة عشيقكِ ليوصلكِ إلى سيارتكِ. هل تعرفين ما شغلني في أثناء انتظاري لكِ، وأنتِ بين ذراعيه؟ أتحسبنيني فكَّرتُ بخيانتكِ لندور زواجنا، أو بتدميركِ لحياتنا؟ دعيني أخبركِ بما دار بخلدي».

يوبَّخها بنبرة ازدراءٍ: «تصورتُ ما تفعلانه في تلكِ الحجرة، في ذلكِ السرير، كل الأمور التي لم ترغبي في فعلها معي. تصورتكِ عاريةً أمامه، منغمسةً في ملذاتكِ، متنعمّةً بخطيئتكِ».

تَحْمَلُ في عينيه مبهوتةً. ليس بمنعزلٍ قط، إنه حاضرٌ في كل تفاصيلها. تراه شديد الاختلاف، غضبه مستعرٌ ويميل للعدوانية. كيف تزوّجتِ رجلاً مثله، كيف أحبَّته في يومٍ من الأيام!

تقول بصوتٍ خفيضٍ متهدجٍ: «إنَّني آسفة، أعترف بذنبي».

ما فعلته خطيئةٌ. يروح ذهنها متفكراً بجزاء الجحيم والعذاب، لا تميل إلى التصديق بوجود الجحيم، ولا تخطر ببالها في معظم الأحيان. أمّا في الأحيان الأخرى، تخشى وجودها بحقٍّ، وتشعر أنَّ مصيرها إليها لا مَحالة. قد يلحق بها آل إلى هناك، أو ربما الجحيم تحقيق بها بالفعل. تطرأ الفكرة بذهنها وعيناها في عينيه هنيئةً طويلةً، الجحيم هنا أمام ناظريها.

تسأله بعد لأيٍ: «ماذا سنفعل؟».

يقول بخسَّةٍ: «من الواجب طردكِ خارج هذا المنزل».

تجفل ثم تسأله متحيّرةً: «إلى متى نويت الاستمرار على تظاهرك بعدم معرفتك لما يجري؟».

لولا اختفاء آفيري لما كُشِفَت كل تلك الأمور، حتى لو اعتزم الاستمرار على تظاهره حتى نهاية حياتهما. غير أنَّه أُجبرَ على إيقاف تظاهره، وافتُضح المستور. علمت الشرطة، وستنقب وسائل الإعلام حتى تعرف بطريقةٍ ما، وسينتشر الخبر بين الجميع، ولا مكان وقتئذٍ للاختباء. تضطرب معدتها.

يقول حاجباً عينيه بكفيه: «لا أعرف».

وينهمر في النشيج.

ترثى لبكائه، غير أنه لا يسعها إراحة ألمه، بعد ما عرفته. يقززها تصويره مختبئاً خلف حاوية القمامة بصفة أسبوعية، حين ممارستها الحب مع ويليام، ليعود بعدئذٍ إلى المنزل متظاهراً أن لا فكرة لديه البتة. لكن أنى لها لتحكم عليه، بالنظر إلى ما فعلته؟

تتفوه بعد لأي، حال استرداده رباطة جأشه: «علينا التفكير بأبنائنا».

يومئ مؤيداً، إنمّا ينبغي سؤاله: «هل يعرف راين؟ هل أخبرته؟».

يلتفت نحوها، والمُقت يتلوى على صفحة وجهه لقاء السطحية التي رمتها بها، وتضيق حدقتا عينيه.

- كيف يلوح بذهنك أنني قد أخبره؟ وكيف تجربين على سؤالي ذلك؟

عندئذٍ يأتي دورها في الانهيار. تفرغ كل ما بجوفها دفعةً واحدةً في سيلٍ من مشاعر عاتية، تجتاحها بقوة.

- هذا عقابي، وعقاب ويليام، على ما ارتكبناه معاً. ابنته ضاعت، وفُضحت علاقتنا!

يتعالى صوتها بهستيرية: «حتى الشرطة تشتبه بابننا أنه خطف أفيري في سيارته!».

تتبادل مع زوجها النظرات المحدقة؛ هو الوحيد الذي سيفهم قولها.

تخفض صوتها حدّ الهمس: «ماذا لو فعلها حقاً؟».

يهمس مثلها بغلظة: «كيف يروح ذهنك إلى افتراض كهذا؟».

- لو عرف، فقد يرغب في إلحاق الأذى بويليام...

يصرّ: «مستحيل! لم يعرف. وإن عرف لن يفعلها».

تستنكر أن ابنها قد يضمّر أي رغبة للانتقام، فهذا ليس من شيمه. على الرغم من ذلك تتساءل إذا ما يمكن لزوجها إيذاء أي إنسان. ماذا لو أنه من اختطف الطفلة، انتقاماً لنفسه، وعقاباً لويليام، فيحمل ابنه الذنب في نظر الشرطة، ذنب جريمة أبيه؟ رباها! أهى على شفا الجنون؟ كيف ساء حالهم وهم يترددون على الكنيسة بالآحاد؟! زوجها متدين ورع، أما هي فمتحيّرة، تؤمن بالدين حيناً وتتشكك حيناً آخر. لكن ترسّخت فكرةً بذهنها، لو الرب موجود فإن خيرها لا يدوم، وطُرقه عجيبةٌ في تقدير الأمور.

الفصل التاسع والعشرون

ترجع جالي أدراجها إلى قسم الشرطة بسيارتها في ظلام الليل، وقد أنهكتها أحداث اليومين الماضيين. تفتقد منزلها والخلود إلى نومٍ طويلٍ عميقٍ، لكنَّ الطفلة لم تزل ضائعةً، والساعة التي تدقُّ بلا هوادهٍ داخل رأسها لن تدعها تهنئ براحه. تتفكر في الحوارات التي تبادلتها مع ويليام وولر وأفراد عائلة بلانشارد، وآخرها مع ديريك. الكل هنا يكذب.

شقَّ عليها التحدُّث إلى ديريك سيتين، لم تحسِّن استدراجه لنيل أي اعترافٍ منه. ارتجف الفتى من شدة خوفه. لا يُستبعدُ أنَّه فعل شيئاً للطفلة في بيت الشجرة، وأنَّه الرفيق الأكبر سنًا، ومع ذلك لا تظنه خاطفها. كيف باستطاعته خطفها؟ حتى إذا قابلها في الطريق عقب مغادرة والدها، وأغواها لتدخل منزله الخالي واعتدى عليها، كيف سيتصرف بجثتها؟

كادت تتجاوز إشارة حمراء. كيف سيتصرف بجثتها؟ ما دام يلاطفها منذ فترةٍ، وتركه أهله بمفرده يومذاك، هل دعاها لتأتي إلى منزله؟ لا يفصل منزليهما سوى الشارع. هل أخذ بخناقها لأنَّها هددته بإخبار أحدٍ بما فعله لها؟ من المحتمل أن الطفلة في منزله. أصابه الارتباك ودسَّ جثتها في زاوية خفية عن الأعين، حتى تسنح له فرصة مناسبة لنقلها إلى الغابة أو بجانب النهر، بعد الإعلان عن توقف حملة البحث. منزله كبيرٌ، والمخابئ فيه ممكنة، كما عادت أمه وأخته بعد الخامسة.

تتوقف على جانب الطريق وتمسك بهاتفها.

يستلقي راين على سريريه محدّقاً إلى السقف. يدري بالنقاش الدائر بين والديه في غرفة المعيشة حول ما حدث بمخفر الشرطة. رفع أبوه صوت التلفاز كعادته حينما يتخوف من وصول صوتهما إليه وأخته. سبق له رفع الصوت وقت محنة المخدّرات وخاض والداه نقاشاتٍ عدةً في تلك الآونة. لا يسمع إلا الطنين البعيد الخافت للتلفاز. يخالجهما قلقُ حياله، لا يتقآن به، ولمَ قد يفعلان؟ تعتقد الشرطة أنه خطف آفيري، حتى محاميه يرتاب في أنه الفاعل. بات مرتعباً لدرجةٍ رهيبيةٍ.

يفكر في الهروب، في الاختفاء. لو بإمكانه تغيير اسمه بطريقةٍ ما، ويهجرهم جميعاً للأبد. لكنّ الشرطة ستجده، ووقتئذٍ سيؤخذ هروبه على محمل الاعتراف بذنبه. لا يمكنه سوى ترقب ما سيحدث، وكذا الثقة بأوليفر ودوره في حمايته. يلتفت على جنبه ليُخفي دموعه في وسادته.

تصل جالي إلى قسم الشرطة وتتخذ طريقها نحو مكتب بلدسو مباشرةً. يهزُّ رأسه متحسراً ناظراً إليها، ويقول: «لن نستطيع الحصول على مذكرة تفتيشٍ لممتلكات آل سيتن. لا يوجد دليلٌ؛ ذهب الفتى في إحدى المرات إلى بيت الشجرة منذ أسبوعٍ، برفقة الطفلة المفقودة. لا يمكننا تفتيش منزله اعتماداً على ذلك.»

تومئ جالي ببطءٍ مُرهقةً.

- أعي ذلك.

تسكت للحظةٍ وتفرك عينيها. تقول: «إنّني أفقد تركيزي على الأغلب. أحتاج إلى النوم بشدةٍ.»

يومئ لها مؤذناً.

- اذهبي إلى منزلك، يا جالي.

غير أن عقلها لا يتوقف عن العمل.

- يمكنني طلب إصدار موافقة لإجراء تفتيش بدلاً من مذكرة رسمية.

- من المستبعد أن توافق عائلته على إجراء تفتيش.

- قد يوافق والداه لو أنهما يصدقان ابنهما.

يقول بلدسو: «لا، لن يوافقا. يا إلهي، هل تعتقدين حقاً أن الفتى يستطيع فعلها؟».

تقول جالي: «لست متأكدة، لكن الفتى لا يبعث على الطمأنينة. لست مقتنعة بإنكاره أنه لم يعرض الفتاة الصغيرة لفعل مشين في بيت الشجرة». تأخذ نفساً عميقاً وتزفره.

- لنفرض أن والد آفيري صادق في أقواله، لطمها على وجهها وانصرف في الرابعة وعشرين دقيقة أو نحوها. ماذا لو أنها غادرت بعده واتجهت إلى المنزل المقابل، على الجهة الأخرى من الشارع. ولنفرض كذلك أن الشاهدة التي رأت آفيري تؤخذ بسيارة راين بلانشارد كاذبة، فيُحتمل أنها رأتها في الطريق دون سترتها وشعرها مجتمعة للخلف في ضفيرة واحدة، لكن لم تركب سيارة راين كما ادّعت، من أجل غرض دنيء في نفسها، أو رأتها برفقة ديريك وارتأت حمايته. منزل آل سيتن لا يفصله عن مسكن الطفلة سوى الشارع، وكان ديريك بالداخل وقت الاختفاء. ربما رآها وحدها. وما دام حاول ملاطفتها من قبل، فقد يرغبها في المجيء إلى منزله الخالي، أمه بالخارج وأبوه في العمل. ما موقفه في حال معرفته المسبقة باصطحاب أمه لأخته في الرابعة والنصف ثم ذهابهما لشراء حذاء، وبالتالي لن تعودا في الغالب قبل الخامسة؟ توفر له وللطفلة ما يكفي، لكن أنذرته أنها ستبلغ عما يفعله معها هذه المرة، وانتابه الذعر فكنم فمها. ثم تعذر عليه التخلص من الجثة، نفذ منه الوقت ولا سبيل لذلك. إنه في الخامسة عشرة ولم يُسمح له بالقيادة بعد، لذا اضطر إلى إخفائها بمكان ما في المنزل ليتخلص منها لاحقاً. ربما لا تزال هناك.

- لقد مضى يومان، إن صحَّ افتراضك، ألم يجدر بالوالدين اكتشاف ذلك قبلنا؟ اعترف لهما الفتى وتخلَّصا من الجثة بنفسيهما مثلاً؟
تتمعن في قوله، وتهزُّ رأسها ببطءٍ معترضةً.

- لا أعتقد. بدت الصدمة على والديه حقيقةً حينما كنتُ في منزلهم، إنما لا سبيل للجزم بذلك.

تضيف متعمقةً في التفكير: «لو اعترف لوالديه، فلربما وضعوا الجثة في صندوق سيارةٍ أحدهما، في أثناء توقفها بالمرأب وبابه مغلق. وانسلَّ بها تحت سمع وبصر الشرطة التي تمركزت بالمنزل المقابل».

يُحْمَلُقان إلى بعضهما هنيهةً طويلةً، يقطعها بلدسو مرتميًا على مقعده.

- لن نستطيع تنقيب ذلك المنزل إلا إذا حصلنا على مزيدٍ من الأدلة. لندقق البحث في خلفية الفتى، عن أي شكوى ضده من فتياتٍ أصغر منه بالمدرسة مثلاً، ابحتي وراءه. أمّا حاليًا، فنحن بصدد استلام التقرير الأولي للطب الشرعي عن فحص سيارة راين يوم غد. حتى اللحظة لم يُعثر على شيءٍ مريبٍ خلاف هاتف الأم المخفي.

ترضح جالي لرغبتها في التعقيب: «لا تخلو البلدات الصغيرة من أمورٍ مريبةٍ بحق».

يلقي بلدسو نحوها ابتسامةً ساخرةً.

تتذكر حينما توجَّست في بداية التحقيق، من تركيز بلدسو المبالغ فيه على ويليام وولر، وتعمده التغافل عن الاشتباه بغيره. بيدَ أن تصرفه يستحق المدح، لقد أثبت اتساعَ مجال تفكيره وتفتُّحَ ذهنه على عكس ما توقعت. أمامهم غير ويليام العديدُ من المشتبه بهم، دون دليلٍ واحدٍ حقيقيٍّ ضدَّ أيٍّ منهم.

تقول جالي: «بوسعي أن أعرج على أليس في الصباح، بعد زهاب ابنيها إلى المدرسة وزوجها إلى عمله. سأحاول حثَّها على السماح لي بإلقاء نظرةٍ في أرجاء المنزل، واستنباط أي معلومةٍ وافيةٍ منها».

يوميئ بلدسو ناظرًا إلى ساعة الحائط؛ من الواضح أنه متيقظٌ لمرور الوقت ولدقات الساعة المتسارعة منذ اختفاء آفيري. الجميع يتقرب الوقت. يقول: «فيما يتعلق بالشاهدة المجهولة، أعتقد أنها تسكن في الشارع نفسه. إذ تعرّفتُ سيارة راين، من مكانٍ قريبٍ من موقع الحدث في الرابعة والنصف يوم الثلاثاء...».

يصمت فجأةً ليُرِدِف: «انتظريني لحظةً».

يخطو خارج مكتبه مشيرًا لضابط الاحتياط المسؤول عن خط البلاغات لينضم إليهما.

يسأله بلدسو: «بالطبع تذكر الشاهدة مجهولة الهوية التي أجبت على اتصالها مرتين. هل بإمكانك التعرف عليها من صوتها إذا طرّقنا أبواب منازل شارع كونوت، واحدًا تلو الآخر، وتحدّثنا إلى كل سيدة تسكن فيه؟».

يُمعِن الضابط التفكير، ثم يجيب: «لست واثقًا. لا شيء مميز في صوتها، لكن قد أتعرف عليها. يمكنني استنباط أيهنّ من قبيل التخمين».

يقول بلدسو: «الأمر يستحق المحاولة. يتعين علينا التحري عن هويتها، والتأكّد مما تفعله، إما تكذب وتستخف بنا، وإما نخبرنا بالحقيقة».

يشعر ويليام وولر كأنه حيوانٌ جريحٌ محبوسٌ في قفصٍ. لا يتحرك خطوةً خارج حجرة الفندق إلا ويعترضه مراسلٌ صحافيٌّ. كما اكتُشف المدخل الخلفي الذي تسلل منه في الصباح، كي يشتري هاتفًا مسبق الدفع ويكلم نورا. حينما حاول في أول المساء أن يسلك الطريق نفسه لسدّ جوعه، وجد حشدًا منهم في انتظاره. عاد على عقبه وطلب طعامًا من الفندق.

يتصل بالمحقق بلدسو لمتابعة التطورات.

يقول المحقق بكلامٍ مبهمٍ: «إنّنا نُحرز تقدمًا بالقضية».

شاهد الأخبار بالنشرة عن الشاهد المجهول، وعلاقته باستجواب راين بلانشارد بمخفر الشرطة، والتفتيش الشامل لمنزل عائلته. كما علم بهجوم زوجته على راين حتى أوقعته أرضًا. من الصعوبة بمكان تصور إيرين الهادئة

المتزنة معظم الأوقات، قد يصدر عنها تصرف بهذا الشكل، إنّما اللقطات المصوّرة تُعينه على التصديق، وهذه الآونة محبّطة بشدّة. ربما يمدّها ذلك الانفلات العنيف والمفاجئ في السيطرة على أعصابها، باستيعاب لنوباته المشابهة. يتساءل إذا ما تُصدق براءته بعد ما خبرته.

يستوضحه ويليام: «أما زلتُ مشتبهًا به؟».

يردُّ بلدسو بصراحةٍ: «بلى».

يصمت للحظةٍ.

- وجدنا هاتف نورا بلانشارد الذي أخفته. عرفنا أنّها من تلتقيها، تحدّثنا إليها.

يُطبّق عينيه هنيهةً ويفتحهما.

لم يستطع إغلاق فمه: «من الجيد أنه لم يُعرَف الأمر منّي».

ستواجه نورا أصعب أوقاتٍ بحياتها.

يسأله: «هل سيصل الخبر إلى الصحافة؟».

يقول بلدسو: «سنحاول إبقاءه طيّ الكتمان، لكن لا ضمانات».

الفصل الثلاثون

في الصباح التالي من يوم الجمعة، جالي قابعةً في سيارتها أمام مسكن آل وولر بعد الثامنة والنصف بقليل، وعيناها منصبتان على منزل آل سيتين في الجهة المقابلة. غادر بيتر سيتين إلى عمله بسيارته، والآن ترى ديريك وأخته الصغرى جينا يخرجان من المنزل متجهين إلى المدرسة. يلمحها ديريك في سيارتها، إنَّما لا مشكلة، تلوح له بإيماءة صغيرة بيدها. يمسك بذراع أخته ويسيران ببطءٍ إلى أول الشارع حتى يدوران عند المنعطف ويختفيان عن النظر. تنزل جالي من السيارة وتطرق باب أسرة سيتين.

يبدو على أليس سيتين أن النوم جفاها منذ زيارتها المرة السابقة. لها حقٌ، بالتأكيد وضعها مريعٌ بسبب حيرتها مما فعله ابنها. لم تنجب أطفالاً، لم يحن الأوان بعد، وكلما تفكَّرت بالأمر في ظروف كهذه يجابها سؤالٌ مُلحٌ، أمن الأفضل ألا تحظى بأطفالٍ طوال حياتها؟ ما الحاجة لتحمل عناء إنجابهم، ما دام مستقبلهم مقلقاً، ومجهولٌ ما سينقلبون إليه عندما يكبرون.

تقول جالي: «هلاً سمحت لي بالدخول، يا أليس؟».

تَحْمَلُ إليها المرأة في امتعاضٍ، قائلة: «لا، لن أسمح لك».

تومئ جالي برأسها. تحتاج إلى موافقتها على التفتيش بشدةٍ.

تركز ناظرها على عيني أليس.

- قَدَمْنَا طَلَبًا بِشَأْنِ إِصْدَارِ مَذْكِرَةِ تَفْتِيشٍ.

غير صحيح، لكنْ تريد مراقبة رَدَّة فعلها. ها هو، فزَعُ لا تشوبه شائبةٌ.
تقول أليس بحزم، وامتقاع وجهها يفضحها: «أرى أنْ تبتعدي عن هنا».
تقول جالي: «سأبتعد».

وبينما تعود إلى سيارتها، ينشغل تفكيرها بما قد تفعله أليس بناءً على قولها. هل ستستدعي حمامياً؟ ربما لجأت وزوجها بالفعل إلى حمامٍ ليلة البارحة، وربما الآن، وبعدها بقيت بمفردها، قد تتخذ ظنونها المسار نفسه الذي يدور بذهن جالي، لتقلب منزلها الخالي رأساً على عقب، تتقفى أثر آفيري وولر. لن يسع جالي دخولُ المنزل، إنَّما لا ضير من ترك غيرها يمعن النظر في أرجائه ولترَ ما سيحدث.

توصد أليس الباب فور انصراف المحققة وتتربسه بالمزلاج. يعتريها الإنهاك من وطأة الفزع. شهدت لليلةٍ طويلة، تطوف بذهنها هواجس مزعجةً، وها قد جاء الناقوس يقرع فوق الرؤوس. بعد لأيٍ غلب بيتر النعاسُ، مما تعجبت منه، إذ أخذ ما حدث يدور في ذهنها دون توقفٍ، بتفاصيله، كل ما قالته المحققة، وكيف تفاعل ديريك مع أسئلتها.

انهارت حالته أمام ناظريها وناظرَي أبيه. أذاك رد فعل فتى بريء مما يُنسب إليه؟ أم أنه تصرف فتى مذنب؟ لا تدري أيهما.

استنكر بيتر الأمر برمته. قال -وهما بالسريـر في الليل- إن عليهما الوقوف بصفٍّ ابنيهما، فهو فتى طيبٌ ومن المؤكد أنه لا يتحرش بالصغار. كما لم يكذب عليهما من قبل. أومأت له بالإيجاب، وعندئذٍ غرق في النوم، وخلال الساعات الكثيرة المظلمة الطويلة قبل بزوغ الفجر، استسلمت للقلق وسمحت لذهنها بالشروء بعيداً.

من الفظيع ذهاب عقلك إلى احتمالية أن ابنك تقرب من فتاة صغيرة. تسرَّعت في الاشتباه بآدم وينتر، والآن...

تعود أدراجها إلى المطبخ، وتسكب قهوتها التي بردت في الحوض. طال النقاش مع بيتر وديريك عقب مغادرة المحققة، وكرر ابنهما على سمعهما بعنادٍ ما أخبر به المحققة. إنَّما الشكُّ بداخلها ينخزها، لماذا ذهب إلى بيت الشجرة؟ من الجائز، وقع ما سرده ديريك، إنَّما لماذا رُفع السلم، إنَّ صدقت قصته؟ هذا ما حاولت المحققة إثباته. لا يعني رفع السلم إلا عدم الترحيب بمجيء أحدٍ على غفلةٍ منهما. أحدهما رفعه بلا ريب. والسؤال هو، لماذا لم يرحل ديريك فور رؤيته للفتاة هناك، رغم زعمه أنه لا يطيقها.

تعلم ما قد يفعله الصغار وحدهم. لعبة «أرني وحدثني»، أرني ما لديك، وسأريك ما لديّ. ربما ذلك ما حدث، على نحوٍ لطيفٍ غير مؤذٍ، وأفيري بالغت في وصفه. من المحتمل أنَّها التي تقرَّبَت منه، لكن ديريك أكبر منها وبالتالي استيعابه أفضل. هذه هي المسألة، فارقُ العمر، لذا فالقرب بينهما غير مبرر. وما بقيَ من شكوكٍ أتى مع تساؤل جالي عن مكانه بعد ظهيرة ذلك اليوم. تدرك كيف قد يبدو الوضع، ديريك في المنزل وحده وقت اختفاء أفيري من المنزل المقابل. يمكنها تصور ما تفترضه الشرطة، لاطف ابنها الطفلة غصبًا، وألحق بها الأذى. افترضْ فارغٌ! حتى لو اتضح أنه... رغم شناعة الأمر، فهو ليس بمجرمٍ أبدًا.

أين الشاهد الذي رأى أفيري تركب سيارة راين بلانشارد؟ لمَ لا يُظهر ذلك الشخص نفسه؟ لأنه أغلب الظن لم يرها تستقل سيارته مطلقًا.

لكنْ جاءت جالي حتى عتبة منزلها، تخبرها عن مذكرة تفتيشٍ بصدد الإصدار، ولا تدري كيف تتصرف. لمَ تحتاج الشرطة إلى مذكرة تفتيشٍ ما لم تُردِّ البحث عن شيءٍ يفيد القضية؟ ماذا تتوقع العثور عليه؟

وإنْ تطرأ الإجابة لها. تحسب الشرطة أن أفيري دخلت هذا المنزل يوم الاختفاء، ولم تغادره قط.

ترتمي على كرسي المطبخ وقد خارت رجلاها وثقلت أنفاسها. هنيهةً ممتدةً، تجمّد فكرها كلياً. بالتدريج تسترد صفاء ذهنها، يتوجب عليها إلقاء نظرةٍ قبل الشرطة. إذا نقّبت المنزل بأكمله، لن تجد شيئاً، وستتيقّن حينئذٍ

أن لا علاقة لديرِك بتلك المسألة، وما أمكنه قتلها ومواراة جثتها بأي أرض قريبة، لأن فِرَق البحث فتّشت بكل مكانٍ، عدا داخل منازل السكان. وقتئذٍ يمكن للشرطة المجيء ومزاولة عملها، دون قلقٍ من العثور على شيء. ومن ثم ستنكر هي وبيتر مع ديرِك، ويصرُّون على إنكار تقربُه من الطفلة. الظروف بصفهم؛ لن تعود آفيري لتشهد بما يخالف قولهم.

تعي مدى جنون الفكرة، وستنفذها على أي حال. ستبدأ البحث من القبو. تقف على قدميها وتجلب مصباح كشافٍ من دُرج بالمطبخ.

بمنتصف الصباح، تقف إيرين وولر بنافذة غرفة المعيشة تحديق إلى الشارع الخالي، بعينين ثاقبتين، كأنما تتأهب لرؤية ابنتها مقبلةً باتجاه المنزل. لا يقف أحدٌ بالخارج، فقد جميع الصحفيين الأمل ورحلوا. لا جديد يحدث هنا.

لم تخرج إيرين منذ أعادتها جالي، بعد اعتدائها على راين في منزله بالأمس. تتساءل إلى أين ارتحل الصحفيون، لم تُختطف ابنة أحدٍ بالبلدة غيرها. هكذا علمت من نشرات الأخبار التي تتابعها بانتظامٍ، متمنيةً اكتشاف جديدٍ بالقضية، ومتخوفةً في الوقت نفسه. تُحسن المحققة جالي طمأننتها على التطورات باستمرارٍ، إنَّما لم تتواصل معها منذ طلوع الصباح. رأتها تطرق باب منزل أليس سيتن ودار بينهما كلامٌ لدقائق معدودة، دون أن تعرج عليها وتتحدَّث إليها مثلاً. ربما لا تملك المحققة ما تخبرها إياه. لاحظت سيارةً أخرى تتخذ محل سيارتها بعد ذهابها، واستغربت من وقوفها في هذه المنطقة.

تعلم إيرين أن الشرطة مستمرةٌ في البحث عن آفيري؛ هذا ما تكرره التقارير الإخبارية عبر التلفاز على مدار اليوم. ما تزال فرق البحث منتشرةً بالأرجاء، ينقبون الأرض، يفتشون في الأودية المقفرة وحوايات القمامة، يبحثون عنها بكل مكانٍ. إنَّ نجاح المحققان في الحصول على أي اعترافٍ من راين بلانشارد، لما تركاه يذهب. شاهدته في لقطاتٍ إخباريةٍ مصوَّرةٍ في

أثناء مغادرته لمخفر الشرطة ليلة أمس، في أغلب الظن يتمركز المراسلون أمام منزله، في نهاية الشارع. تتجه صوب الباب الأمامي وتخطو إلى الخارج، مستطلعةً الطرف البعيد من الشارع. ظنُّها في محله، إنَّهم محتشدون أمام منزل عائلة بلانشارد. ترتد على عقبيها عائدةً.

تشعر بالوحدة، قواها خائفةً. تتمنى لو معها أحدٌ تتحدث معه. يتخبَّط ذهنها في حيرةٍ مما وقع لابنتها. ربما لا دخل لويليام باختفائها، على الرغم من أنَّها لن تغفر له أبدًا خطاياها الفادحة الأخرى: صفعه لابنتها، وتركها وحدها معرضةً للخطر، وذلك في حالة أنه أقصى ما فعل، ولا يكذب بشأنه. كذا لن تغفر خيانتته. تعتقد أن نورا بلانشارد هي المرأة التي انغمس معها في علاقةٍ غراميةٍ، لا جرم أنَّها عشيقته. جمالها استثنائيٌّ وويليام رجلٌ أجوف. تمسك بهاتفها وتتصل بزوجها على رقمه الجديد. يفتح الخط بسرعةٍ. تقول من فورها دون حسابٍ لنبرة المُقْت بصوتها: «خنتني مع نورا بلانشارد، أليس كذلك؟».

لا يُنكر. تترقب حتى ينطق بكلمةٍ، ولمَّا لم يفعل، تُغلق هاتفها.

الفصل الحادي والثلاثون

- لم تَرِدْ إلينا شكاوى من تلك النوعية ضد الطالب ديريك سيتن.
تجيب مديرة المدرسة، «إيلين بيزنر» على استفسار جالي، وتومئ برأسها متفهمّة.

تستطرد المديرة: «إذا لفت أُمُرٌ مشابهٌ انتباهَ أحد العاملين بالمدرسة، لتوجب عليه القدوم إليّ حتى يبلغني. لذا لا أرى أي ضرورةٍ من سؤالك كلّ منهم على حدة».

توافقها القول، كما لا ترغب في إثارة أي إزعاجٍ دون داعٍ؛ تعلم أنه يتوجب على المعلمين الإبلاغ الفوري عن أي إساءة تصرفٍ. ستكتفي بما عرفته بهذا الصدد. يتحدث المعلمون فيما بينهم، مثلما يفعل الجميع بكل مكانٍ. حَرِصْتُ على التكتُّم قدر المستطاع، بيدَ أنّ الناس لا يكفون عن الثرثرة ومديرة المدرسة ليست مستثناةً. لو ديريك بريءٌ، ترجو ألا يتعرض للأذية من أي نوعٍ.

تنهض جالي قائلةً: «أشكركِ على وقتكِ».

وبينما تفعل، يطنُّ هاتفها. تخرج من مكتب المديرة لتجيب. المتصل هو الضابط الميداني الذي طلبت منه التمرّكز عند مسكن أليس سيتن.
تقول جالي: «ما الأمر؟».

- غادرت أليس المنزل في سيارتها، خرجت بها من المرأب منذ قليل،
واتجهت إلى محل بقالة. إنني في باحة الانتظار أراها تضع مشتريات
البقالة في صندوق سيارتها المفتوح.

تنهي المكالمة قائلة: «حسن، أشكر».

من الجلي أن أليس سيتن لا تتخلص من جثة.

تراقب ماريون كوك ضابطي الشرطة على الجهة الأخرى، قادمين من بداية
الشارع. طرقت الشرطة باب منزلها يوم اختفاء آفيري وولر، وأخبرت بأنها
لم تر أي شيء في ذلك اليوم. تتعجب من مثابرة الضباط على طرح الأسئلة
نفسها على الناس أنفسهم، مع توقع إجابة مختلفة أو معلومة إضافية.

اليوم أحد أيام إجازتها من المشفى، تروح وتجيء على النافذة المطلّة على
الشارع لتسترق نظرة ما بين أشغالها المنزلية بين الفينة والأخرى، لتتابع
مسار تقدمهما. سيصلان عندها سريعاً، إذ إنّ منزلها هو الثامن على صف
منزل آل وولر، ويفصلها عن منزل آل بلانشارد على الجهة المقابلة، أربعة
منازل فقط. تُنظف وترقب وهما يشقان طريقهما نحو منزلها، أتجاهل
ببساطة طرق الباب هذه المرة؟ سئلت من قبل، قد تُترك لحالها اليوم. لكنّ
تعترم فتح الباب لهما وإلا عادا في وقت لاحق. تهرع إلى حمام الزينة لتهدم
طلتها، كي تبدو في مظهر لائق.

ما إن يُطرق الباب، تفتحه. يقف أمامها ضابطان في الزي الداكن على
عتبة منزلها.

تقول لهما: «مرحباً بكما».

يقول الضابط الأكبر سناً، مُظهرًا شارته مُعرِّفاً عن نفسه وزميله: «يومك
سعيد يا سيدتي. إننا نحقق في قضية اختفاء آفيري وولر. أتمانعين توجيه
بعض الأسئلة إليك؟».

- جاء ضباط آخرون قبلاً.

تقولها بابتسامة خفيفة، حتى تؤكد أن لا مانع لديها، وتتفهم احتياجاتهم إلى ممارسة عملهم بالضرورة.

- أعلم ذلك ونأسف على إزعاجك، لكن يتوجب علينا التدقيق.
تومئ برأسها متفهمّة.

يتابع الضابط: «ربما تذكرت تفاصيل جديدة. هل لمحت شيئاً غريباً يوم الثلاثاء، في وقت اختفاء آفيري وولر؟ هل تذكرت أي شيء منذ آخر زيارة للشرطة لك؟».

تهزُّ رأسها، وتتجهم بأسى.

- لا، مع الأسف. أودُ المساعدة بكل جوارحي، إنّما لم ألحظ شيئاً بعينه.
ما حدث للفتاة الصغيرة أمرٌ بشعٌ جداً. إنني ممرضة، أعمل مع أبيها في المشفى. أرجو أن تتمكنوا من العثور عليها بسلامة وعافية.

تنتبه إلى الضابط الأصغر الذي يرقبها من كثبٍ، بعينين متوجستين، مما يوتر أعصابها.

يفتح فمه لأول مرة منذ وصوله، ليسألها بغتة: «هل تعرفين آل بلانشارد معرفة جيدة؟».

أخذت على غفلة منها.

- آل بلانشارد؟ أعرفهم معرفة سطحية؛ لست ملمة بأي شيء عنهم، غير أن نورا بلانشارد متطوعة في المشفى، لذا معرفتي بها محدودة.

- هل تعرفين نوع السيارة التي يقودها راين بلانشارد؟
تهزُّ رأسها نفياً.

- لا، لا أظنني رأيته. لا أعير انتباهاً لكثير من الأمور.

يقول الضابط الشاب بصوت لطيف لا ينذر بخطر: «أظنك رأيته، وأظن أنك اتصلت بخط البلاغات أكثر من مرة، دون الإدلاء باسمك، ألم تفعلني؟ استطعتُ تمييز صوتك».

بُهِتَتْ، سَحَقًا! لم تُردِ حدوث ذلك. تَمَنَّتْ ألا تُكشَفَ هويتها، ولهذا استخدمت هاتفًا مسبقَ الدفع. لحسن حظها، وجدت بعض الهواتف الخلوية من نوعيته في ستانفورد، لكنْ لم يتبقَّ إلا أقلُّ القليل. تفكَّرَ ماريون في الإنكار، رغم تأكُّد الضابط الشاب من حدسه. ستنكر بأي ثمن.

تندفع الدماء إلى وجهها، قائلةً: «أنت مخطئ، لم أتصل بخط البلاغات قط».

يقول الضابط الآخر: «نودُّ أن ترافقينا إلى قسم الشرطة».

لا! سيراهما الجيران تُؤخَذُ إلى قسم الشرطة بسيارة دورية، لا يمكنها المخاطرة بهذه السهولة.

- سأتي إلى قسم الشرطة، إنَّما ليس برفقتكما، ولا في سيارتكما. سأحضر في غضون دقائق بسيارتي.

يحدِّق الضابطان إلى بعضهما، كأنَّما الخيارات أمامهما معدومة ومقتصرة على القبض عليها. لقد تعرَّفَا هويتها وعرفا محل سكنها. يقول: «حسنٌ، إنْ لم تحضري، سنعود إليك».

بينما تتوجه جالي نحو استراحة الغداء من أجل قَدح قهوةٍ آخر، تجد بلدسو في إثرها.

يصيح في تباهِ: «عثرنا عليها، الشاهدة بين أيدينا. علمنا مَنْ هي، تعرَّف ضابط الاحتياط عليها من صوتها، وهي في الطريق إلينا».

تبخَّرَ إرهاقها في الهواء، كما لو تناولت عشرة أقداح قهوةٍ لتوها.

حانت اللحظة، وجالي تتفرس بالمرأة الجالسة قبالتها بحجرة الاستجواب. توحى ملامحها أنَّها في أواخر الثلاثين أو أوائل الأربعين تقريباً، ترتدي بنطال جينز وسترة من الكشمير. بنيتها قوية، تعتني بصحتها عنايةً جيدةً على ما يبدو. أظافرها مقلَّمةٌ بمثالية، وقصيرة، مطلَّيةٌ بدرجةٍ ورديةٍ خفيفة. شعرها بنيٌّ تتخلله خصلاتٌ فاتحة، وقصَّته حديثة. لا تدري جالي طريقة التعامل المُثلى معها؛ تبدو امرأةً محترمةً، تعمل بالتمريض، تعيش في مسكنٍ أنيقٍ

ونظيف، وهيئتها بالكامل متناقضة ومثالية. إنَّما كيف يصدر عنها تصرفٌ مثل الاتصال بخط البلاغات، مرتين، للإفادة بمعلومةٍ مهمةٍ بشأن طفلةٍ مفقودةٍ، مع الإصرار على عدم الحضور أو الإشارة إلى هُويتها، وفوق ذلك، حاولت الإنكار؟ تتأمل جالي ماريون كوك، حتى تملمت المرأة في مقعدها.

يستهلُّ بلدسو الجلسة: «يعتقد أحد الضباط لدينا أنكِ يا سيدة كوك، مَنْ اتصل وتحدَّث إليه من خلال مكالمةٍ على خط البلاغات، وليست مرةً واحدةً بل مرتين، وادَّعيت في المرتين رؤيتكِ لآفيري وولر تستقل سيارة راين بلانشارد. عرفكِ من صوتكِ».

تقول: «إنه مخطئ. لم أتصل بخط البلاغات ولم أرَ شيئاً مطلقاً».

ترى جالي التوتر جلياً عليها، وبصرها زائغٌ بينهما.

يصرُّ عليها بلدسو: «تسكنين بشارع كونوت، ومن المفترض أنه بإمكانكِ تمييز آفيري بمجرد لمحها، وكذا التعرفُ على سيارة راين بلانشارد. ما لا أستطيع فهمه هو رفضكِ الإدلاء باسمكِ، وإصراركِ الآن على الإنكار، إنَّما بوسعي التخمين».

يحدِّق إلى عينيها مُردِّفاً: «أرى أنكِ أدليتِ بشهادةٍ كاذبة».

تقول: «لا».

يميل بلدسو إزاءها بصوتٍ خافتٍ عميقٍ: «قد توقَّعتُ شهادتكِ الزور في معضلةٍ كبيرةٍ، يجوز اتهامكِ بتزييف وقائع حادثة، وهي تهمةٌ خطيرةٌ».

تبتلع ريقها، تبعد ناظرَها عن ناظرِيه، وتخفض بصرها نحو الطاولة.

- هل رأيتِ آفيري تستقل سيارة راين بلانشارد بعد ظهيرة الثلاثاء؟

ترفع عينيها ناظرةً إليهما، كأنَّما اهتدتْ إلى قرار. تترقب جالي متيقظةً المرأة التي تكتم أنفاسها.

وتنطق بعد طول انتظارٍ: «نعم، رأيتها».

يتنهد بلدسو في زفرةٍ طويلةٍ، ويراجع بعض الملاحظات في الملف الموضوع أمامه.

- حسنٌ. ذكرتِ أنكِ متأكدةٌ من رؤية سيارته، رغم أنكِ لم تزيه بشخصه على وجه الدقة.

تومئ برأسها.

- أين كنتِ حينما شاهدتِ ذلك؟

- في شرفة منزلي الأمامية.

- ترددتِ لأكثر من يومٍ حتى أجريتِ الاتصال الأول بخط البلاغات، ومن ثم رفضتِ الإفصاح عن هويتكِ. وبالنهاية أنكِ كل شيءٍ. ما السبب؟
تزدرد ريقها ثانيةً.

- انبغى عليّ الإبلاغ في وقتٍ أبكر، أدركُ هذا الآن. إنني نادمةٌ على تأخري، على الرغم من رجائي وقتئذٍ أن تظهر الطفلة وتنقضي الأمور بسلام. أقنعتُ نفسي بذلك، ولمّا طال اختفاؤها، أبلغتُ من هاتفٍ مؤقت.

لم تزل جالي وبلدسو مترقبين.

تضيف: «لم أُرِد زَجَّ اسمي في أيِّ مما يخص القضية، لم أرغب في أن يُذكر أي شيءٍ عني في نشرات الأخبار».
يسألها بلدسو: «ولمَ تتجنبين ذلك؟».

تجيب ماريون بنبرة تشوبها التعاسة: «بسبب زوجي السابق. قررتُ من علاقةٍ زوجيةٍ مؤذيةٍ بشدةٍ منذ عدة سنواتٍ، مما اضطرني إلى رفع طلبٍ ضده بعدم التعرض. أخشى أن يعلم محل سكني الحالي. لذا توجستُ من حضوري بشخصي للشهادة، فإن فعلتُ قد يُذكر اسمي بوسائل الأخبار مرفقًا بصورتي، وحينئذٍ سيكتشف مكاني».

تبادلتهما النظرات بثبات.

- لم أستطع المخاطرة بجلب أذيته على نفسي. أرجو أنكما تتفهمان.
ترى جالي حجتها مقنعةً، وموقفها منطقيًا، لكن تتبرم من سوء طالعهما، فأخر من لمحت آفيري على قيد الحياة مرتعدةً من الظهور للعلن حرصًا على حياتها.

يقول بلدسو: «سنبذل جهدنا لحمايتك، والحفاظ على اسمك مخفياً».

تنظر إليه في رجاء.

- هل يمكنكما؟ هلاً فعلتما هذا من أجلي؟

انعكس الارتياح الذي اكتنف المرأة على نحوٍ بَيْنٍ في نفس جالي، فاعتراها
أسفٌ صادقٌ على حالها، على الرغم من شعورها بالحنق تجاهها، إذ لم تحضر
إلى الشرطة للإبلاغ طواعيةً، وبوقتٍ مبكرٍ، لو فعلتْ لأحدثتْ شهادتها فارقاً
هائلاً حينئذٍ.

غادرت ماريون كوك قسم الشرطة منزعةً، بعدما وقَّعت على محضرٍ
كتابيٍّ بإفادتها. وقَّفتْ سيارتها بجانب الطريق لتسير على قدميها. رغم
تجاوز الوقت الرابعة بقليلٍ، لا رغبة لها في العودة إلى المنزل بعد. تفضِّلُ
التنزه بوسط البلدة حتى يصفو ذهنها. في أثناء التمشي وإلقاء نظرةٍ متعجلةٍ
على واجهات المتاجر، تسرح أفكارها فيما سيتبع ما حدث من عواقب.

الفصل الثاني والثلاثون

تفتح نورا بلانشارد الباب الأمامي نحو الخامسة، ويُلِمُّ بها شعورٌ أن عالمها يتفكك. جاء المحققان بلدسو وجالي مجددًا، والتجهم يلوح على وجهيهما. يسأل بلدسو: «هل ابنك في المنزل؟».

ليتها تكذب، تخبرهم بأنه خرج أو تتحجج بأي شيء كي تمنعهما مما يُقَدِّمان على فعله، لكن راين نزل الدَّرج بالفعل، استجابةً لطرق الباب، أو لدى رؤيتهما قادمين من نافذة غرفته متوقعًا حضورهما.

انعقد لسانها، تملكها خوفٌ مروّع. يدنو منها راين ويقف بجانبها. يحدِّق بلدسو إليه قائلاً: «حضر إلينا الشاهد الذي رأى آفيري تُؤخذ بسيارتك في الرابعة والنصف، بعد ظهيرة الثلاثاء، معلناً عن هويته. لذا أتينا لاصطحابك إلى الحجز، أنت رهن الاعتقال».

يتلو عليه المحقق حقوقه القانونية مرةً أخرى.

يستحيل وجه راين إلى الشحوب إذ تُوضَع الأصفاذ بيديه.

ينفجر صائحًا: «ذلك الشاهد كذاب!».

تستعيد صوتها فتصرخ: «هذا لم يحدث! مَنْ ذلك الشاهد؟».

بيد أنَّهما يتجاهلان اعتراضها. يأخذان ابنها وتهتف من خلفه: «سأتي معك، يا راين، لن أتركك. سأبلغ أوليفر وأحضر أباك، سنلحق بك هناك».

تلقي جالي نظرةً بين الحين والآخر من خلال المرآة بالسيارة، على الفتى صاحب الوجه القاعد صامتاً مقيداً بالأصفاد في المقعد الخلفي. في الغالب ينشغل ذهن بلدسو الجالس جانبها في كيفية إدارة جلسة استجوابه، يعرفان أنَّهما لن يستطيعا البتَّ في التحقيق معه حتى حضور محاميه، أوليفر فولر، لهذا سيصعب عليهما حمل الفتى على الكلام. ومع ذلك، سيحاول بلدسو إثارة خوفه ومن ثم يُمهّد له سبيلاً للنجاة، سيعرض عليه ما يشجعه على البوح بما لديه. تعتمد الكثير من الأمور على الساعة القادمة، أو ربما الساعتين. تتنفس جالي بعمق، هذه المرة لن يفشلا.

لم يُضع المحامي وقتاً حتى يصل إلى قسم الشرطة، وسرعان ما يدلف جميعهم إلى حجرة الاستجواب، تقعد جالي وبلدسو على جانبٍ من الطاولة، راين وأوليفر فولر على الجانب الآخر، مثل المرة السابقة. يبدأ تسجيل الجلسة، بعدما أُزيلت الأصفاد.

يستهل بلدسو: «الوضع جُلٌّ، فُقِدَت فتاةٌ صغيرة».

يَحْمَلُق راين أمامه دون التقاء عينيه بعيني أحدهما، رغم ارتجافه كورقة شجرٍ.

- لدينا شاهدٌ موثوقٌ أدلى برؤيته آفيري تركب سيارتك قرابة الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهيرة الثلاثاء الماضي، واختفى أثرها منذ ذلك الوقت.

يسكن للحظة، ثم يتابع: «علمنا أنك عدت إلى منزلك في ساعة متأخرة، ما بين السادسة والسادسة والنصف. ماذا فعلت خلال تلك الفترة؟».

تتمعن جالي في وجه راين بلانشارد، تحاول قراءة ردة فعله. هل استطاع هذا الفتى المرتجف إيذاء آفيري؟

يسأل المحامي: «ما اسم ذلك الشاهد؟».

يردُّ بلدسو: «ستعرف في الوقت المناسب، لكن هُوِيته معروفةٌ لنا. الشاهد موثوقٌ منه، كما حضر بشخصه اليوم لتسجيل إفادته كتابةً».

يلوح القلق على وجه المحامي، ويقول: «معلومٌ أن شهود العيان مضللون لا يُعوَّل عليهم. هل توجد أدلةٌ أخرى؟».

- ليس بعد، سنتوصَّل إليها من دون شكّ.

يبدو بلدسو واثقًا من قوله، رغم أنه أقصى ما وصلا إليه؛ لم يُعثرَ على أي دليل في منزل راين بلانشارد أو سيارته، لا ملابس ملطخة بالدماء، لا شيء له علاقةٌ بآفيري. فُحصت جميع التسجيلات المرئية للطائرة المسيّرة ولم تُشاهد في إحداها آفيري برفقة راين، أو برفقة أي أحدٍ. كما جاء التقرير الأولي للطب الشرعي بخصوص سيارة راين، ولم يُذكر فيه أي دليل ماديٍّ. لو أخذ الفتى الطفلة بسيارته، فعلى الأرجح لم يطل بقاؤها فيها، ونظف أثرها فور تخلّصه منها. لم يتبيّن أيّما يشير إلى الاعتداء عليها أو قتلها داخل السيارة. ربما أخذها بعيدًا إلى الضواحي، اعتدى عليها، قتلها وأخفى جثتها هناك. من خلال سجل مكالماته بالكاد تمكّنّا من تحديد المكان الذي قاد سيارته إليه يومذاك. تُنقب المناطق النائية في هذه الآونة، وإن لم يُعثرَ عليها، أو يعترف راين، فسيشقّ عليهما التوصل إلى الدليل المراد.

يميل بلدسو للأمام مركّزًا نظريه على الفتى المرتعد، قائلاً: «اسمعني، يا راين. لو اتضح أن آفيري على قيد الحياة، فمن مصلحتك إطلاعنا على مكانها. ستخفف من عقوبتك إن فعلت».

يقول راين: «أقسم أنّها لم تركب سيارتي قط».

ثم يلتفت نحو محاميه.

- لماذا لا يصدقانني؟ لماذا يصدقان ذلك الشخص الآخر ويكذبانني؟ أيّا تكن هويته، فهو كاذب!

يتابع بلدسو كأنّما لم ينطق الفتى.

- ولو اكتُشف أنّ حالتها خلاف ذلك، فما يزال عرضنا مفتوحًا. اختر الأُصوب لمصلحتك، وأخبرنا بمكانها، وأرح والديك من عذابهما.

بُهِت الفتى وخرس لسانه، بينما يستند بلدسو إلى الكرسي مرتخيًا، ويردِّف: «أخبرنا يا راين. هل حدث ما حدث عرضًا؟ لم تقصد قتلها، أليس كذلك؟».

يصرخ الفتى رافعاً يديه ويغطي أذنيه: «كفى!».

يتأمله المحامي للحظات، ثم يقول: «أستأذنكما الانفراد قليلاً مع موكلي».

يشير لهما المحامي بعد مدةٍ وجيزة، فتعود جالي أدراجها مع بلدسو إلى حجرة الاستجواب، وتتأمل الفتى المنكمش في كرسیه. على ما يبدو انهار في البكاء، وإذ يعاودها الرجاء. ربما استعدَّ ليروح بما فعل، ليستطيعا إنهاء القضية أخيراً.

يعودان لمقعديهما والمحامي عابس الوجه معتزماً على أمرٍ ما. يقول بلدسو: «كلنا آذانٌ مصغية».

- ينكر موكلي أي تورطٍ مع الطفلة المفقودة. لم تركب سيارته باليوم المذكور، إذ إنه بريء.

يسأل بلدسو في سأم: «أهذا صحيح، يا راين؟».

لا يمكنها التغافل عن إنهاكه الظاهر، مما يلفت انتباهها فجأةً إلى مدى تعبها الشديد أيضاً. تصبّرت طويلاً بتدفق الأدرينالين في العروق، ولتوها تدرك نفاد مخزونها.

يقول راين ودموعه تسيل: «لا علاقة لي باختفائها، ومنَ شهد بأنها ركبت سيارتي، يكذب».

لم يمسك بلدسو نفسه عن القول: «لكنه شخصٌ جيدٌ ومواطنٌ صالحٌ، وأنت لك سابقةٌ في حيازة المخدرات».

يعترض المحامي، في تسرعٍ أجوف: «هذا يكفي!».

- معذرة، فأنت منَ عملتَ على قضيته الأخرى.

ردّ عليه بلدسو ضربته، ثم التفت نحو الفتى ثانية، قائلاً: «محاميك جيدٌ بعمله، يا راين. هنيئاً لك به. غير أننا سنضطر إلى احتجازك في الوقت الراهن».

يدفع بلدسو كرسيه بصخبٍ، وهو ينهض، في حين يربت المحامي على ظهر الفتى في إيماءةٍ مواساةٍ. تعرف جالي أنه لم يسبق لراين دخول السجن؛ راجعت ملفه، كان قاصراً حينما قُبِض عليه بتهمة حيازة المخدرات، وأُطلق سراحه لينفذ عقوبته بين أهله. والآن صار راشداً، ومشتبهاً به في جريمتي خطفٍ، وقتلٍ محتَمَلٍ.

تسمع جالي المحامي يهمس له: «اصمد، ستمضي الليلة هنا. لن تُطيل الشرطة بقاءك، ستسعى لإرسالك إلى المحكمة وتوجيه التهمة لك. ما لم يُعثر على دليلٍ ماديٍّ، لن يستطيعوا إدانتك». تتساءل عما إذا يؤمن المحامي ببراءة راين. لا يمكنها التكهّن.

تعيش ماريون كوك وحدها في منزلٍ من طابقٍ واحدٍ، به غرفتان للنوم وحجرةٌ للضيوف في القبو، ملحَقٌ بها حمامٌ. حجمها صغيرٌ لكن أُعيد تنسيقها بعنايةٍ. لم تحظْ بأطفالٍ، لذا منزلها هادئٌ، نظيفٌ ومرتبٌ على الدوام، وحجرة الضيوف في القبو خاليةٌ معظم الأوقات. تزورها أختها من آنٍ لآخر وتبيت معها.

تتجول ماريون لوقتٍ طويلٍ بوسط البلدة، ثم تأخذ سيارتها وتقودها إلى منزلها، ولم يهجرها القلق بعد.

تضع الأكياس على منضدة المطبخ، وتحلُّ قفل الباب المؤدي إلى القبو. تحرّك مفتاح الضوء على الحائط لإنارة الدّرج والردهة بالأسفل، وتنصت هنيهةً مائلةً الرأس. لا شيء سوى الصمت، حتى التلفاز مُطفأ. هذا غريب.

تنزل الدّرج. القبو منقسمٌ إلى منطقتين، حجرة نومٍ وحمامٍ صغيرٍ على الجهة الأمامية للمنزل، وحجرةٌ أخرى أكبر على الجهة الأخرى، نوافذها مسدودةٌ بألواحٍ -منذ عهدٍ بعيدٍ للحد من التسلل- يعبر منها الضوء بالكاد. أما حجرة الضيوف الأخرى، فلا توجد بها أي نوافذ.

تطرق ماريون بابها، وتنادي.

- آفيري؟

الفصل الثالث والثلاثون

ينهض ورجلاه ترتعشان. لا يبدو أيُّ مما يحدث واقعياً. يخشى التقاء عَيْنَيْه بعَيْنِي المحامي ما دام يشكُّ فيه. راين وحده هو المتأكّد من عدم اصطحابه للفتاة بسيارته، إنه بريءٌ. ورغم ذلك، أكثر ما يخيفه هو تهميش الحقيقة؛ يدري كم من أناسٍ أُثبِتَ عليهم جرائم لم يرتكبوها. للحظاتٍ لم يستطع الحراك، والمحامي يُلحُّ عليه بالإسراع.

تتعرّض خطواته، يقاوم واضعاً قدماً بعد قدمٍ. والداه بانتظاره في الردهة بنهاية الرواق. هل سيُتاح له لقاءُهما قبل أخذه للحبس، قبل وضع الأصفاذ بيديه؟ يودُّ رؤيتهما، يتمنى أن تضمَّه أمه إلى صدرها وتطمئنّه أن الحال سيؤول لصالحه، سيرجع إليهما في القريب العاجل، وستعود كل الأمور لنصابها الصحيح. يتمنى لو يتخذ أبوه صفه مدافعاً عنه. لكنّه يخشى نظراتهما إليه وهو على هذه الحال، قد ينتحب حتى تبلله الدموع مثل طفلٍ صغيرٍ.

ما إن أُخرج من الحجرة، يجدهما في ردهة الانتظار، وجه أمه كَمَن سهرت الليل بجانب شخصٍ يحتضر، أما أبوه فالذعر بادٍ عليه. يتعجب راين إذ يحسبانه بالفعل اختطف آفيري وقتلها. كيف يخطر ببالهما أن بإمكانه فعلها؟ ضلَّ طريقه في الماضي، ولولا تورطه بمسألة المخدّرات، لما تزعزت ثقتهما به قيد أنملة. أجرم جرماً بسيطاً ذات مرة، وصار العالم كله من حوله يتوقع منه أبشع الجرائم.

يُسَمَحُ لأمه وأبيه بتوذيعة، فتتشبث به أمه بقوة، وترفض تركه صارخةً بالجميع، مما استحسنه حتى تنجذب الأنظار عنه، وعن دموعه المنهمرة. للمرة الأخيرة تلتقي عيناه عيني أبيه، قبل أن يُجرَّ بعيدًا.

يُؤْخَذُ إلى الأسفل عبر الدَّرَج. ما إن ينغلق الباب خلفه يُتْرَك لحاله، ونحيب أمه يطنُّ بالأرجاء. كل زِنَزانات الحبس في قبو المخفر، شاغرة؛ تكاد تخلو ستانفورد من الجرائم.

يرشده الضابط المسؤول من ورائه قائلاً: «ستمتلئ بالسُّكاري فيما بعد، لا سيما في ليالي الجمعة».

يدفعه إلى داخل إحداها ويحرر يديه من الأصفاد، يتحقق من ارتدائه حزامًا بالبنتال، وينتزع الرباط من حذائه الرياضي. من ثم يُحَكِّمُ غلق الباب بالقفل، ويمشي مبتعدًا في خُطىٍ وثيدةٍ. يتأمل راين الزنزانة كما لو يُلقِي نظرةً على واقعٍ مستقبليٍّ. يستلقي على أحد الأفرشة منكمشًا في وضعية الجنين، مُحَمِّلًا في الجدار، وقد طار بكأوه من شدة ذهوله. سيقرب طلوع الصباح، ليرى ما سيحمل له الغد.

سمعت آفيري الباب الأمامي يُفْتَحُ بالأعلى، تبعه خطواتُ أقدامٍ متجهةً إلى المطبخ، ثم تقترب نازلة الدَّرَج حتى القبو. تنصتُ بانتباهٍ، متيقظةً بشدةٍ. تشير الخطوات لشخصٍ واحدٍ، فتطمئن.

تنادي ماريون من خارج الحجرة، وهي تفتح الباب: «آفيري؟».

تتبرَّم معتدلةً في السرير: «لماذا تأخرتِ؟».

انتبهت إلى حضور ضباطٍ من الشرطة عند عتبة المنزل منذ بضع ساعاتٍ، ولم تلتقط من كلامهم إلا القليل، وماريون تكلمت معهم حتى غادروا، ثم خرجت بعدهم وغابت لمدةٍ طويلةٍ.

تقول ماريون: «ذهبتُ للتسوق، احتجتُ إلى شراء بعض المستلزمات».

- ماذا أراد ضباط الشرطة الذين جاؤوا قبل ذهابكِ؟

- تعيد الشرطة توجيه الأسئلة نفسها للجميع مرةً بعد مرةً، على أمل تذكُّر أي أمرٍ جديدٍ.

لم تخبرهم ماريون بأي شيءٍ، لو أفصحتُ للشرطة أن آفيري تختبئ في القبو، لما كانت جالسةً مكانها الآن، بالتأكيد لم تفعل.

تسأل ماريون: «هل توقفتِ عن الثقة بي؟».

تتجاهل آفيري تساؤلها.

- عمَّ سألكِ ضباط الشرطة؟

- استفسرا عن الأمور التي سبق وأجبتهما عليها، عمَّا إذا لمحتُ شيئاً أو شخصاً غريباً، أو مركبةً غريبةً في البلدة، وقت اختفائك أو خلال الأيام السابقة له.

تستوضحها آفيري، تريد معرفة كل شيءٍ: «وماذا قلتِ؟».

- أخبرتهم أنني مكثتُ وحدي في المنزل ولم ألمح أي أمرٍ غير عاديٍّ. لم أسمح لهم باستخلاص أيِّما يفيد تحرياتهم.

تنزلق آفيري في السرير مجدداً. لم تعد تجري الأمور وفق ما تريد. شاهدت أباها على التلفاز الصغير الموضوع أمام السرير، يُؤخَذ إلى قسم الشرطة ثم يخرج منه. بدا مذهولاً مصدوماً مما أصابه، خائفاً من القبض عليه، مما رآته مُرضياً بما يكفي. تمتَّت رؤيته يتعذَّب. تابعت الأخبار عبر التلفاز وقرأت الجرائد التي جلبتها لها ماريون، متواريّةً عن الأعين في قبو منزلها. ذاع صيتها، وستزداد شهرتها حينما تظهر من جديدٍ، وقد نجت من اختطافها، والخاطف مجهولٌ لم يزل طليقاً.

استمتعت عندما وجدتُ أباها يكذب حِيال ما حدث في ذلك اليوم، يا له من كذاب! حتى آل به الحال ليعيش وحيداً بفندقٍ. كاد يُلْقَى القبض عليه ليكون بذلك قد تلقَّن درساً قوياً، وعندئذٍ تظهر وتعود إلى المنزل. لكن فاجأها إلقاء القبض على راين بلانشارد، رغم أنها لا تعرفه. ثم جاء بالأخبار أن الشرطة لديها شاهدٌ مجهولٌ، رآها تركب سيارته.

تقول ماريون: «سأحضر لك الطعام، وآتيك به هنا حتى نشاهد نشرة السابعة معاً».

تتحرك ماريون في المطبخ، تغلي الماء من أجل المعكرونة، وتخرج مرطبان الصلصة من الخزانة. ستضع حداً لهذا الحال في أقرب وقت؛ مرّت ثلاثة أيام حتى الآن. مكتبة سرّ من قرأ

استاءت آفيري بشدّة عندما علمت البارحة من نشرة الأخبار أن أحدهم يدّعي رؤيتها تستقل سيارة راين بلانشارد. صاحت آفيري، ما الذي يقولونه؟! لم أركب سيارته قط. شخصٌ ما يكذب!

لكن صدّقها المحققان، لن يُشكَّ في ماريون كوك الممرضة، أنّها لفّقت الوقائع التي تدّعي رؤيتها.

تضع طبقين من المعكرونة على صينية وبجانبهما أدوات المائدة وكوبين من الحليب، لتحملها إلى القبو بالأسفل. فتحت آفيري التلفاز المعلق على الحائط قبل نزولها، فالساعة دقّت السابعة. وبينما تنتظران حتى انتهاء الإعلانات، تدور التساؤلات بذهنها، هل سيُذكر بالنشرة خبرٌ عن الشاهد؟ هل ستفصح الشرطة عن اسمها؟ وعدها المحققان بحفظه طي الكتمان، بيد أنّهما قبضا على راين بلانشارد، مما سيثير غضب آفيري. إذا عرفت أنّها الشاهدة، قبل الأوان، ستدرك أن الاتفاق المبرم بينهما مزيفٌ منذ البدء.

تعبت ماريون من إخفاء آفيري في منزلها، تتمنى انتهاء كل ما يحدث. ليبتها ما فتحت بابها اليوم للضابط الذي عرفها من صوتها.

تبدأ النشرة وكما توقعت، يدور الخبر المتصدر حول الفتاة التي تجلس بجانبها. تقول مذيعة الأخبار بنبرة جادة: «احتجزت الشرطة اليوم راين بلانشارد ذا الثمانية عشر عاماً، وأكدت الشرطة أن الشاهد الذي أفاد برؤيته للطفلة آفيري تستقل سيارة راين بلانشارد خلال فترة ما بعد ظهيرة الثلاثاء الماضي، تقدّم بشخصه. تعيش عائلة بلانشارد في الشارع ذاته حيث تسكن الطفلة المفقودة، ذات التسعة أعوام، ولم تُر منذ اختفائها يوم الثلاثاء، على الرغم من حملة البحث المكثّفة عنها باشتراك المئات من المتطوعين وضباط الشرطة».

تظهر على الشاشة لقطة مصوّرة لراين بلانشارد حين القبض عليه في منزله مقيّدًا بالأصفاد، ويُرَجُّ في سيارة مدنية خاصة بالشرطة. تحتج آفيري: «لا!».

تختلس ماريون نظرة نحوها، انتفخت أوداج الطفلة غضبًا. تلتفت ناظرة إلى ماريون صائحة: «لا! هذا ليس صحيحًا!». تهزّ ماريون رأسها متظاهرة بالتأثر، وأذنها مصغية إلى الأخبار متخوفة من ذكر الشاهد.

- يعبر ساكنو المنطقة عن صدمتهم وشعورهم ب... تتابع المذيع، دون إضافة جديد على ما ذكرته آنفا. تعيد انتباهها إلى آفيري التي تستشيط من الغيظ على نحو جلي. عندما يحتدم غضبها، تنير الخوف.

تقترح ماريون اقتراحًا عابرًا: «ربما حان وقت عودتك». لا تعني قولها، لا يمكن لها العودة، لن تعود إلى منزلها الآن؛ لديها خطتها الخاصة التي لا تعلم عنها آفيري شيئًا. - كلاً!

خبرت ماريون طباع الفتاة التي تجنح إلى العناد والعدوانية. تشجب آفيري: «أردته أن يأسف على فعلته! أردته أن يقبض عليه!». - أعرف ذلك.

تقول آفيري بوجه عابس: «ومع هذا ترغبين في رحيلي الآن؟ يروق لي البقاء هنا».

تجتاح ماريون دفقة من الضجر. بالطبع يروق لها البقاء هنا، إذ تعيش أميرة مدللة، يحضر الطعام إليها متى تشاء، تشاهد التلفاز متتبعة الأخبار المنصبة كلها على موضوع اختفائها، وتتصفح ما قيل عنها في الجرائد، مما يغذي النرجسية الطاغية بداخلها.

بيد أنها ليست المسيطرة على الوضع. لن تنتهي المسألة كيفما تطمح آفيري وولر.

الفصل الرابع والثلاثون

تَحْمَلُ آفيري في وجه المرأة الجالسة بجانبها، والتي تتمنى ذهابها. لا يرغب أحدٌ في وجودها. تتضايق آفيري من تعمُد الآخرين تجنبها، والآن تنبذها ماريون، ظهيرتها وصديقتها السريّة، مثلهم.

تعتقد أنّها مرتعبةٌ من إبقائها مختبئةً في حين يُجرى تفتيشٌ كبيرٌ عنها بالخارج، تخاف غالبًا أن يُقبَضَ عليها إن اكتشفت الشرطة مكانها. على أي حال، يجب أن يساور ماريون القلق، لأنّها تخطئ الظن فيمن يتحكم بالوضع هنا، ليست ماريون المسيطرة عليه. على الرغم من موافقتها على دعم خطتها، فإنّها قد تُلجّق بها العقاب إذا استحقته.

الخيوط كلها بيد آفيري. إذا ودَّت إخبار الشرطة عن مكوثها في قبو ماريون كوك طوال وقت اختفائها، لن تواجهها أدنى مشكلة، على عكسها. هي المرأة البالغة المسؤولة، وآفيري فتاةٌ صغيرةٌ في التاسعة من عمرها، مما ينبغي على ماريون إدراكه جيدًا. يجب ألا يسمح الكبار للفتيات المفقودات بالاختباء في أقبية منازلهم، والعالم كله يبحث عنهن.

تدري آفيري ذلك منذ البداية، غير أنّ ماريون على ما يبدو، تنبّهت له الآن فقط، ليست سريعة البديهة كما تصوّرت. حينما وافقت على مساعدتها دون تردّدٍ فوجئت، من الجائز عقلها بليدٌ.

اعتادت آفيري اللعب في الغابة خلف شارع سكنهم، وذات يوم مرّت بالقرب من الباحة الخلفية لمنزل ماريون التي حيّتها بمجرد رؤيتها. كانت وقتئذٍ بمفردها، تلعب وحدها، وعاملتها ماريون بطريقة لطيفة.

سألتها: «ألسِتِ ابنة الدكتور وولر؟».

دنتُ منها مؤكدةً: «بلى».

ابتسمت وقالت: «أدعى ماريون، وأنا ممرضةٌ في المشفى الذي يعمل به والدك».

قالت واهتمامها ينفد: «حسنٌ».

- أتريدان تناول البسكويت؟ خبزت بعضه لتوّي.

تروّت آفيري في قبول عرضها.

أردفت ماريون: «أضفتُ به قطع شوكولاتة».

قيل لها ألا تخاطب الغرباء، لكنّها تحبُّ البسكويت بقطع الشوكولاتة، وهذه المرأة ليست غريبةً فعلياً، فهي تجاورهم في السكن وتعمل مع أبيها في المشفى.

- نعم، أريد.

تبعتها آفيري إلى الداخل عبر باب المطبخ. منزل ماريون متواضعٌ بالمقارنة بمنزلها في مدخل البلدة. لفت انتباهها أن المرأة مهتمةٌ بمعرفة كل شيء عنها، سألتها عن مدرستها وعن عائلتها. استغربت آفيري قليلاً أسئلتها المبالغ فيها، إنّما هكذا يتصرف الكبار عادةً. يسألون كثيراً، على النقيض من الصغار. لم تمنع إجابتها، نادراً ما يُبدي أي أحد اهتماماً بالتحدّث إليها، لذلك أخبرتها عن أمها وأبيها، وكيف يتجادلان حول أمورها.

سألتها ماريون: «أحقاً يفعلان؟! ولماذا يتجادلان حول أموركِ؟».

ردّت آفيري: «لأنّ لديّ معضلاتٍ في السلوك».

قالت ماريون: «تبدين لي فتاةً لطيفةً جدّاً».

منذ ذلك الوقت، ترددتُ على منزل ماريون خلال الصيف، تتخذ طريقها من الغابة وراء المنازل حتى الفناء ومنه تعبر الباب الخلفي، من أجل تناول البسكويت. لم تُطَلِّع أحدًا على علاقتهم قط، قد تبدو مثيرةً للشفقة من دون أصدقاء في مثل عمرها. عندما احتاجت إلى الاختباء بمكانٍ لبعض الوقت، بعدما ضربها أبوها، كانت ماريون هي الوحيدة التي خطرت على بالها.

تتساءل إذا ما تزال فتاةً لطيفةً في نظرها، على الأغلب لا. تلتفت نحو ماريون التي لم تتحرك من جانبها على السرير.

تقول: «إنكِ تخافين من اكتشاف أمرنا».

تحدِّق إليها ماريون، قائلةً: «لن يُكتشف أمرنا».

تستغرب آفيري أن المرأة شديدة الثقة بنفسها.

تجمع ماريون الأطباق المتسخة وتحملها صاعدةً الدَّرج. تضع الصينية على المنضدة وبهدوءٍ تحرِّك قفل باب القبو. تُبقيه موصدًا طوال الوقت حتى لا تنسل آفيري إلى منزلها متجولةً بأرجائه، رغم أنها تعرف القواعد ولن تحاول الصعود وإلا رآها أحدٌ. ما تجهله أن الباب موصدٌ بقفلٍ.

تسند ظهرها إلى الباب. الفتاة التي بالأسفل حادةً الذكاء، لكنَّ عمرها تسع سنواتٍ فقط وتجهل الكثير من الأمور. لا تدري طبيعة وجودها هنا. ليست لدى آفيري المختبئة بالقبو، أدنى فكرةٍ عمَّا أوقعت نفسها فيه. تورَّطت بوضعٍ بعيدٍ عن صورتها.

لا تدري شيئًا عن هوسها بأبيها. في واقع الأمر، أُغْرِمت به منذ مدةٍ طويلةٍ، وشغل تفكيرها لأيامٍ وليالٍ. لا تبغى العيش إلا من أجل لقائه كل يومٍ في المشفى، واكتفت بما يُنعش خيالها أنَّهما وقعا في حبٍّ بعضهما، هي والطبيب الوسيم، لا يفرقهما شيءٌ، على الرغم من معرفتها أنه متزوجٌ ولديه أسرةٌ يعولها. إذ إنَّ العديد من الرجال الوسيمين، بمن فيهم الأطباء، يهجرون زوجاتهم وأسْرهم للزواج من امرأةٍ أخرى أصغر وأكثر جاذبيةً. لا تتوهم ما تراه في نفسها من جمالٍ تفتقده زوجته، بل لا وجه مقارنة بينهما، لقد رأت

زوجته بالمشفى في مناسباتٍ مختلفةٍ. حاولت لفت نظره إليها خلال العام المنصرم كله ومن قبله، غير أنه قابل كل محاولاتها بلا مبالاةٍ متناهيةٍ. خالته رجلاً متعقفاً، مخلصاً لزوجته، لن يَنقَادَ للإغراء رغم وسامته الأخاذة، مما زاد من حبّها له حدّ العبادة، وبات عصياً عليها استمالته.

حينما لمحت ابنته تلعب بالقرب من سور الفناء الخلفي، دعتها للدخول وأغرتها بالبسكويت. استرسلت معها في الحديث، لأنّها أرادت معرفة كل ما يخصّ الدكتور وولر وعائلته وتودّدت إلى ابنته، لكنّها لم تأتِ على ذكر صداقتهما لأيّ أحدٍ. ومن جانبها لم تخبر الدكتور وولر أنّها تتجاذب أطراف الحديث مع ابنته على نحوٍ منتظمٍ؛ قد يرتاب في ملاحظتها له.

أمكن لها الاستمرار على ذلك المنوال لأجلٍ غير معلوم، متصبّرةً بالأمال والأحلام، قانعةً بلقائه في المشفى، وبذهنها تعيش أحداثٍ مسلسلٍ دراميٍّ معه. ما ارتضتُ بغير ما قُسم لها لولا ذلك اليوم منذ أسبوعٍ، حين رآته مع نورا بلانشارد.

الفصل الخامس والثلاثون

كانت ماريون عند إحدى الخزائن الطبيّة، تجلب بعض المستلزمات من غرفة التخزين، عندما سمعت حركة شخص ينسلُّ بحذرٍ إلى الجانب الخارجي من الغرفة، تبعها صوت خطوات رجلٍ يُغلق الباب برفقٍ. سكنت مكانها هنيهةً، ثم تناهى إليها صوت الدكتور وولر عميقاً أجشاً، يهمس في نبرة إغواءٍ: «اقتربي مني».

تسمّرت حالماً سمعت امرأةً تتأوه، وصوت تقبيلٍ لا تخطئه الأذن، وكذا أنفاسٍ حادةٍ ولهائٍ ومزيدٍ من التأوهات، حتى شعرت بعالمها كله ينهار فوق رأسها. الدكتور وولر ليس برجلٍ متعفّفٍ ولا وفٍّ لزوجته، بل يخونها مع امرأةٍ غير ماريون.

اعتراها حنقٌ عارمٌ في تلك اللحظة. ارتضتْ بتهميش وجودها وعدم ملاحظته لها حتى حين تخاطبه، حاولت جهداً لجذب انتباهه، وها قد وجدته بين ذراعي امرأةٍ أخرى. ضاقت أنفاسها. أصرّت على معرفة مَنْ تكون المرأة، فتسللت خفيةً وراء الباب الموارب للخزانة واختلست النظر. رأت الدكتور وولر في عناقٍ حميميٍّ مع امرأةٍ تعرّفتها على الفور، إنّها نورا بلانشارد، المتطوعة بالمشفى وجارتها في الشارع السكني. لا جرم سينجذب إلى أجمل امرأةٍ حوله! قبعَت محلها صامتةً ذاهلةً، تراقبهما من فتحة باب الخزانة لعدة

دقائق عَصِيبة، حتى افترقا بأنفاسٍ متقطعةٍ، يبتسمان لبعضهما ويهندمان مظهرهما.

قال: «سأسبقك إلى الخروج».

أومأت له، فأضاف: «أراك فيما بعد».

قبلها قبلةً أخيرةً، وتأملها مطولاً ثم انصرف.

وقفت ماريون خلف الخزانة متصلبة الحركة، قليلة الحيلة، أتواجه نورا؟ تمنّت لو غادرت مكنها وصفعتها على وجهها، تغرز أظافرها القصيرة فيه، تشوّهه تاركةً فيه ندباتٍ لا تدُمّل. غمرتها مشاعر الغضب والغيرة، الخيبة والمهانة. راقبت المرأة الأخرى - مثالية الطلّة مرغوبة المعشر - وهي تسوي شعرها متمهلةً للحظاتٍ قبل خروجها. جمالها لافَتْ دون أدنى شك. دوماً ما تُشعرها رؤيةُ نورا بالضالّة، حتى كرهت نفسها. لم تستطع منافستها مما سبّب تعاستها. قال لها، أراك فيما بعد. واضحٌ أنّهما انغمسا في علاقةٍ غراميةٍ، والحب تأجج بينهما، عشقٌ جارِفٌ تخيلت نفسها تعيشه، إنّما بدلاً من تصوّره يترك زوجته وأسرته من أجلها، تراه يفعلها من أجل نورا بلانشارد.

لم تتحرك ماريون لمواجهتها. تجمّدت خلف باب الخزانة حتى خرجت نورا، بعدئذٍ انصرفت في منتصف مناوبتها لتعود إلى منزلها في حالة إعياء. هذا ما حدث قبل بضعة أيامٍ من مجيء آفيري عند المدخل الخلفي بأثر صفعَةٍ على وجهها. سمحت لها بالدخول وأصغت إلى قصتها عن ضرب والدها لها. استنكرت ما سردته، استغربت عودة والدها في الرابعة من بعد الظهر، في أثناء ساعات عمله. لكنّ الصفعة جليّة على وجهها، ولا يخفى غضبها الشديد من أبيها، فمالت إلى تصديق قصتها، إذ لم يغادر ماريون إحساسها بالحنق منه بعد.

شرحت لها آفيري خطتها الطفولية في الهروب والاختفاء لفترةٍ حتى يُعتقد أنّها اختُطفت، وطلبت منها المكوث في منزلها. أرادت لوالدها أن يندم على فعلته ويؤتّم باختطافها. تمنّت ماريون رؤية ويليام وولر يتعدّب مثلها،

إنَّما أَشدُّ ما تَمَنَّتْ هو إلحاق الأذى بنورا بلانشارد، ورأت في خطة الفتاة فرصة سانحة.

لذا وافقت على إقامتها معها، مختبئةً في القبو، وحذرتها من الصعود إلى أعلى وإلا لمحها أحدٌ من النوافذ، ومن ثم حبستها بالأسفل دون أن تدري، كأنها ساحرةٌ عجوزٌ شريرةٌ.

تنزل إليها في القبو من آنٍ لآخر، لتتابعاً معاً على التلفاز البحث المستمر عنها، وتشهدا سقوط الدكتور وولر من عليائه. تلذذت بمشاهدته يعاني، ربما أضعاف استمتاع آفيري. نال جزاءه المستحق على تجاهلها، على خيانتة لزوجته، على تفضيله عليها امرأةً أخرى أجمل منها. أعجبتها الفكرة العميقة لاختفاء آفيري وتأثيره على الدكتور وولر، وتكهنت بجره إلى الاستجواب من قبل الشرطة. تَمَنَّتْ أن تُفتَضَّح علاقته الغرامية مع نورا، مما سيحطم حياته كلياً، يدمر زواج نورا وحياة أسرتها، ويهدم عيشتها المُترَفَّة. لكن الأسوأ لم يأت بعد؛ رأت راين بلانشارد يقود سيارته متجهاً شمالاً يومذاك، قبيل مجيء آفيري إلى منزلها من الباب الخلفي. فطنت إلى إمكانية استغلال ذلك على نحوٍ ينتزع قلب نورا من صدرها.

انتظرت حتى تشهد معاناة ويليام لدرجةٍ تشفي غليلها، ثم لجأت إلى هاتفٍ مسبقٍ الدفع لتتصل بخط البلاغات، وتدَّعي رؤية آفيري وولر تستقل سيارة راين بلانشارد. ولمَّا لم تُقدِّم الشرطة على اعتقاله في الحال، أعادت الاتصال مرةً أخرى وذكرت تفاصيلٍ إضافيةً بشأن أوصاف آفيري. كما أكدت على رغبتها في الحضور للإفادة بشخصها، ولم تُكن سوى كذبة. لا تريد المخاطرة بكشف هويتها بصفتها شاهدةً، حتى تفرغ من الفتاة.

من سوء حظها تعرَّفت الشرطة عليها قبل الوقت المراد، وأنقذتها قصتها الحاضرة بذهنها عن الزوج السابق المُسيء. والآن راين بلانشارد محتَجَرٌ، ولا جرم فقدت نورا صوابها.

عندما تستقر الأوضاع بالمنطقة، ستتخلص من آفيري، ووقتئذٍ ستكشف عن نفسها وتمسك بشهادتها حتى آخر نفسٍ بحياتها.

شاهدت أليس سيتن إلقاء القبض على راين بلانشارد عبر نشرة أخبار السابعة، لا تستطيع إنكار الارتياح الذي غمرها. لا تدري ابنتها جينا بما أتهم أخوها ديريك، تتمنى وزوجها بيتر ألا تعرف أبدًا. بما أن راين احتُجز، فقد يضع هذا نهاية لما يحدث.

لم تُعلم زوجها بما فعلته نهار اليوم. اكتفت بإخباره عن مجيء المحققة جالي حتى عتبة المنزل في الصباح، وتهديدها بإصدار مذكرة تفتيش، يتمنى كلاهما أن يُؤجل البت فيه، فما إن علمت باحتجاز راين بلانشارد، صاحب شعورها بالارتياح بعضُ الجزع.

لم تخبر زوجها بما فعلته بعدما غادرت جالي بسيارتها. انتابتها حالة من الجنون وقلبت المنزل رأسًا على عقب، بحثًا عن جثة الفتاة المفقودة. فتَّشت بكل الأنحاء: سرداب التوصيلات، غرفة التدفئة، العليّة، وبكل زاويةٍ قد تُخفى داخلها جثة، حتى سقيفة التخزين في الباحة الخلفية. لن تدع أحدًا يعلم ما فعلته مطلقًا، ستحمل ذلك السر معها حتى قبرها.

تخلج بشدّة مما أودى بها خيالها إليه. تخلج مما ظنّته في ابنها، مما ساورها من شكٍّ به ولو للحظة. تأملت من النافذة في لحظةٍ عابرةٍ من ذلك الصباح الجنوني المروع، ولاحظت سيارةً متوقفةً. ألقت نظرةً بعد حينٍ ورأتها لم تبرح محلها. أدركت أنها تُراقب، وتعمّق ذعرها. حالما انتهت من التفتيش بكل مكانٍ دون أي أثرٍ لجثّة، واطمأنّ بالها إلى أن الشرطة لن تجد شيئًا يفيد القضية، ارتاحت وانهمكت في تحضير قائمة المشتريات، وخرجت للتسوق. لا شيء قد يُعثر عليه، باتت متيقنةً.

ما دام راين محتجزًا، فلا داعي للخوف. تتفكر بوضع نورا بلانشارد التي تعرفها معرفةً سطحيةً، إذ ترتاد ابنتاهما المدرسة ذاتها. ما شعورها تجاه ما يجري؟ ما حال كل أسرتها في خضم تلك الظروف؟

تتفكر بابنها ديريك، تأثّر بلا ريب بهذا الوضع المقلق. طالهم القلق جميعًا. تطمئن نفسها أنه سيتخطى ذلك مع مرور الوقت. سينتهي كل ما يحدث، ولن يأتوا على ذكره مجددًا أبد الدهر.

الفصل السادس والثلاثون

تدور إيرين وولر بأرجاء المنزل كشبحٍ طليقٍ لم يهتدِ سبيله بعد. ارتاحت لما علمتُ بالقبض على راين. تتذكر وجهه حين هاجمته، لأنها حسبتَه مذنَّبًا. يجدر بها الثقة بأفراد الشرطة، وبعملهم الجاد. استطاعوا التوصل إلى شاهد عيان، تودُّ معرفة هويته. جُلُّ ما فهمته أنه يسكن بالقرب من هذه المنطقة، وربما في هذا الشارع عينه، وإلا كيف تمكَّن من رؤية ما أفاد به وكذا تعرَّف على السيارة؟ لماذا تُخفي الشرطة اسمه؟ تريد معرفته، ترغب في سؤاله عن انتظاره لوقتٍ طويلٍ حتى أبلغ عن مختطف ابنتها. من الواجب ألا تحمل تجاهه إلا العرفان من أجل إدلائه بما رأى، لكنَّها مستاءةٌ بشدَّةٍ من تأخره. لماذا لم يخبر الشرطة بما شهد فور رؤيته؟ أيوجد عذرٌ معقولٌ لفتاةٍ في التاسعة أن تركب سيارة شابٍّ كما حدث؟ حضرت الشرطة في غضون دقائق معدودة، بمجرد تلقي بلاغ اختفائها، وسرعان ما شرعت في بحثٍ شاملٍ عنها. ما الذي منعه من التواصل مع الشرطة ليخبرهم بما رأى؟! لو أبلغ في حينه لأنقذت ابنتها قبل فوات الأوان. تتحرَّق لمواجهته بذنبه، كما واجهت راين قبلاً، وتسأله، لماذا تأخرت؟!!

لن تتعافى الندوب ما لم تعد آفيري إلى المنزل. لحقَّ بابنها أدنى كبير، بل طال الأذى كلَّ أسرتها، كم سيُغيِّرهم ما أصابهم للأبد! تدرك كيف تغيَّرت بالفعل، وتغيَّرت نظرتها للحياة كلها.

يساورها القلق على مايكل، فتصعد إلى غرفته وتنقر على بابه، قبل فتحه. يجلس ابنها على السرير ومعه حاسوبه النقال، الذُّعر بادٍ على وجهه الشاحب. تسأله: «هل أجلب لك بعض الطعام؟».

- لا أريد.

- لم تتناول لقمةً من عشاءك.

- ولا أنت.

تقول متنهدة: «إذا حضّرتُ شطيرةً، هل تشاركني إياها؟».

- حسنٌ، لا مانع.

بale اطمأنَّ كما يبدو، وتنبّهت إلى مدى القلق الذي يساوره بشأن أمه، رغم كل ما يعانیه.

- رافقني، ريثما أحضّر لنا شطيرةً بالجبن المدخن.

يحبُّ هذه الشطائر.

يسترخي ويليام وولر في المقعد الوحيد بحجرة الفندق، مُحمِّلًا إلى الجدران المُصمّنة. يعجز عن كبح ذهنه السارح في راين بلانشارد وما يُحتمل أنه فعله بأفيري، يتفكر بكل الطرق التي من الجائز أنه استخدمها في أذية ابنته، حتى تخلّص منها. يجدر به مواجهة الحقيقة، قد لا تعود أفيري إلى المنزل أبدًا. ينهمر في بكاءٍ حارٍّ مغطياً وجهه بيديه.

ما إن تبين وجهه لخاطفها المجهول، ساءت الأمور إلى حدٍّ رهيبٍ. تقدّم شخصٌ للإدلاء بشهادته، مما يؤكد صحة الخبر، لكنّ يتساءل عن هويته والإصرار على إخفاء اسمه. حدّق إلى التلفاز في انزعاجٍ وحيرةٍ إذ يرى الشرطة تعتقل راين. بدا الفتى حسنَ المظهر، فتّى عاديًّا تمامًا!

يروح فكره إلى نورا. لا يحمّلها أي ذنبٍ، لا يستطيع لوّمها على شيءٍ. يتصرف الأبناء كيفما يتراءى لهم، على الرغم مما يبذله الوالدان من جهدٍ واهتمامٍ. يدرك ذلك من خبرته مع أفيري. جاهد مع إيرين بكل قوتها حتى

يُغِدِّقَا عَلَى ابْنَتِهِمَا بِالْحَبِّ وَالرَّعَايَةِ، غَيْرَ أَنَّ طَبِيعَتَهَا عَنِيدَةٌ وَلَا سَبِيلَ لِتَبْدِيلِهَا، لَا يَسْعَمُهُمَا سِوَى الرَّجَاءِ فِي حَثُّهَا نَحْوَ الطَّرِيقِ الْأَصْلَحَ لَهَا. أَمَّا ابْنُهُ مَائِكِلُ، فَلَا شَيْءَ يَعْيِبُهُ. تَرَبَّى كِلَاهُمَا مَعَ الْوَالِدَيْنِ نَفْسِيهِمَا، وَفِي الْمَنْزَلِ نَفْسُهُ، لَكِنَّمَا مُخْتَلِفَانِ تَمَامَ الْاِخْتِلَافِ.

لَا تَسْتَحِقُ نُورًا وَلَا زَوْجَهَا اللَّوْمُ أَنَّ ابْنَهُمَا مَتَحَرَّشٌ بِالصِّغَارِ أَوْ خَاطِفٌ وَقَاتِلٌ مُخْتَلٌ، لَمْ يَنْشِئَاهُ لِيَصِيرْ هَكَذَا. يَقْتَنَعُ وَيَلِيَامُ أَنَّهَا فِطْرَتُهُ الَّتِي وُلِدَ عَلَيْهَا. رَغْمَ حُبِّهِ لِنُورًا، تَحُولُ بَيْنَهُمَا أَمْتَعَةٌ ثَقِيلَةٌ. عِنْدَ هَذِهِ الْخَاطِرَةِ، يَنْفَجِرُ فِي ضَحِكٍ طَوِيلٍ مَرِيرٍ. أَمْتَعَةٌ ثَقِيلَةٌ! هَذَا أَدَقُّ وَصْفٍ مُمْكِنٍ.

أَمْسَكَ بِهَا زَوْجَهَا وَابْنَهَا يُؤْخَذُ بَعِيدًا عَنْهَا. أَبَتْ نُورًا أَنْ تَتْرَكَهُ، فِي صِرَاحٍ وَعَوِيلٍ. حَثُّهَا ضَبَاطُ الشَّرْطَةِ عَلَى إِفْلَاتٍ وَلِدَهَا بِلَطْفٍ فِي الْبَدَايَةِ، ثُمَّ اضْطَرُّوا إِلَى الْقُوَّةِ.

حَالَمَا اخْتَفَى مِنْ أَمَامِ عَيْنَيْهَا، وَنُزِلَ بِهِ إِلَى الْحَبْسِ، انْزَلَقَتْ بَيْنَ ذِرَاعَيْ زَوْجَهَا كَجَسَدٍ هَامِدٍ. خَارَتْ قَوَاهَا فَأَسْنَدَهَا حَتَّى أَقْرَبَ مَقْعَدٍ. تَوَقَّفَ نَوَاحِيهَا وَتَمَلَّكَهَا الذَّهُولُ.

يَحَاوِلُ أُولَيفِرُ فُولِرَ جَذْبِ انْتِبَاهِهَا، يَحَاوِلُ إِعَادَتَهَا إِلَى وَعِيهَا. يُوَكِّدُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَمْ تَنْتَهِ، وَسِيرَجُ رَايْنِ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي غُضُونِ يَوْمٍ أَوْ اثْنَيْنِ عَلَى الْأَكْثَرِ. تُجَاهِدُ حَتَّى تَسْتَوْعِبَ مَا يَقُولُهُ الْمَحَامِي. يَخْبِرُهَا أَنَّ بَابَ الْأَمَلِ مَفْتُوحٌ أَمَامَهُمْ. يَقُولُ فُولِرُ: «إِلَّا إِذَا ظَهَرَتْ أَدَلَّةٌ مَادِيَّةٌ، لَنْ تَبْقِيَ الشَّرْطَةُ مَحْبُوسًا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ».

تَسْأَلُ وَذَهْنَهَا مُتَبَلِّدٌ: «أَيُّ أَدَلَّةٍ مَادِيَّةٍ؟».

لَقَدْ فَتَّشَ الْمَنْزَلَ كُلَّهُ، وَسَيَارَةَ رَايْنِ مَتَحَفِّظٌ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُعَثِّرْ عَلَى شَيْءٍ عَلَى حَدِّ عِلْمِهَا.

يَجِيبُهَا فُولِرُ بِلَطْفٍ وَحَذَرٍ: «إِذَا وَجَدْتَ جَثَّتَهَا».

تَنْكَمِشُ فَرْعَةً مَتَشْنِجَةً فِي مَقْعَدِهَا. وَإِذْ تَجِدُ نَفْسَهَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى تَتَمَنَّى أَلَّا يُعَثِّرَ عَلَى جَثَّةِ الْفَتَاةِ أَبَدًا.

يسأل آل بجديّة، ووجهٍ شديدٍ الشحوب: «مَن الشاهد؟».

يقول المحامي: «لا أعرف، لم تُنَبَس عنه كلمةٌ».

يطول بهم الحديث لبعض الوقت، ثم يتطرقون إلى مناقشة أتعاب المحاماة. ما إن انتهوا، يساعدها آل حتى تنهض على قدميها متجهين صوب السيارة ليعودا إلى المنزل. الليل أوشكتُ ظلمتُه. لا تحتمل الذهاب وترك ابنها في الحبس، كيف سيصمد وحده؟ يخترقان بصعوبةٍ عُصبةَ الصحفيين المتقربين خارج مخفر الشرطة. تداري وجهها بيدها إذ يتزاحمون حولها، والضباط يحاولون إفساح الطريق لهما. بعد لأي، استطاعا النفاذ إلى سيارة آل وغلّقا الأبواب. يتحرك آل بالسيارة، ويعمُّ صمتٌ عميقٌ أجوف.

لم تنبس ببنت شفةٍ في طريق العودة، وذهنها تتلاعب به الهواجس المفجعة. تستنكر أن راين قد يقتل فتاةً صغيرةً، على الرغم من التياح قلبها المفزع أنه ربما فعلها. تشعر بالعجز أمام كل ما يجري. ترمق آل بطرف عينيها، إذ يقود السيارة مركزًا نظره على الطريق ويدها تمسكان المقود بقوة، يميل وجهه إلى شحوبٍ رهيبٍ كلما انعكست أضواء الطريق عليه. تتساءل عمّا يشغل تفكيره، أيعتقد أن ابنهما مذنبٌ؟ أم يعلم ما لا تعلمه؟ لم يزل ما يكتمه عنها يورقها ذهنيًا. هل تشبّع آل برغبةٍ انتقاميةٍ وألحق الأذى بابنة ويليام عن عمدٍ، مما جلب عليهم المصائب؟

تهتف بنبرةٍ خافتةٍ: «آل؟».

الفصل السابع والثلاثون

لا يبدو أنه سمعها.

تُكرر بنبرة حازمة نوعًا ما: «آل؟».

يردُّ باقتضابٍ: «ماذا تريدان؟».

آن لها التحدُّث، لا وقت للتراجع. الكلام محشورٌ بحلقها مثل بقايا طعامٍ غير مهضومٍ. تزدرد ريقها بقلقٍ، وتطهّر حلقها.

- هل تظنُّ راين أخذها بسيارته؟

يلتفت نحوها ناظرًا إليها.

- ويلاه! كيف تسألين سؤالًا كهذا؟

- لا جرم أنه راودك السؤال نفسه.

- لم يراودني أي سؤالٍ بهذا الشكل.

يقولها باقتناعٍ كأنَّه واثقٌ من نفسه تمامًا.

يُردف: «لا يمكنه ارتكاب فعلٍ بهذه البشاعة، ويتوجب عليك الوثوق به، فأنتِ أمه».

تتجاهل نقده الضمني لها، قائلةً: «أدرك ذلك، لكنُ أعتقد أنني احتجت إلى سماعه منك».

ثم تضيف، واعيةً لنبرتها المرتعدة: «أردت فحسب... لا أخال أوليفر مؤمنًا ببراءته».

تمرُّ هنيهةً صامتةً. يقطعها آل بقوله: «إنه محام، لن يعير اهتمامًا إلا لعمله».

تقول نورا: «لكن أرى أن وجهة نظره مختلفة».

يقول بغلظة: «مهما تكن وجهة نظره، سيبدل أفضل ما في وسعه من أجل راين».

هل تجرؤ على البوح له بما يشغل تفكيرها؟

تشرع في الكلام بنبرة حزينّة باكية: «أنا المذنبة في كل ما يحدث». يسكت آل. لا جرم يوافق على اعترافها، فإيمانه شديدٌ بغضب الربّ على المذنب.

تعلم أن غيظه محتدمٌ حيال علاقتها الغرامية، إنّما إلى أي درجة يعتريه الغضب؟ وإلام دفعه غضبه آنفًا؟ عبر الزجاج الأمامي، تُحْمَلَق في ظلمة الليل التي تزداد سوادًا، وإلى المركبات العابرة على الجهة المقابلة.

- إنني آسفة، يا آل، آسفة على علاقتي مع ويليام، وعلى كل ما سببته لك.

يعلق بنبرة فظة: «أتأسفين الآن فقط؟! لم تشعري بالأسف قبلًا!».

يقود صامتًا للحظات، ثم يندفع قائلاً: «أتعلمين بم أفكر؟ أضنٌ وولر هو الذي أبلغ بتلك الشهادة، حتى يُبعد الشبهة عنه».

تميل في مقعدها بجواره محدّقةً إليه، وتحتج: «محض هراء! مستحيل أن يفعلها، لا يمكنه أذيتي بتلك الطريقة، كما يُقال إن امرأةً هي التي أبلغت الشرطة».

يتوهج آل من الحق.

- ربما أجبر زوجته على الإبلاغ.

ما تزال مركّزةً ناظرها عليه في استنكارٍ، لدرجة الاستهزاء من قوله.

- ولم قد تشغل الشرطة بحماقة لا طائل منها؟! لا تبتغي إلا عودة ابنتها!
وهو ما يريده أيضًا! يُستبعد أنها الشاهدة!

يسألها متهمًا: «أما زلتِ تحسبينه بريئًا؟! عن نفسي لا أراه كذلك. أعتقد أنه قتل ابنته، وفي الغالب هو ذاته المنحرف الذي تحرّش بها». يستعر غضبها، فتنهمه: «أنت الذي تحفّزت بضراوة لعدّ ويليام قاتل ابنته منذ البداية. تتوق إلى رؤيته وراء القضبان، وهكذا لن يفرقنا أحد، أليس صحيحًا؟».

تجاوزت كل الحدود. تكره هذا الرجل، ويليام هو من تحبه. تستنكر أن ويليام قد يقتل ابنته، لم قد يُقدّم على فعل كهذا؟ إنّما في ضوء ذعرها المتصاعد، تُدرك دافع آل المحتمل وراء توقه الشديد، يرغب في عقابها وويليام على ما جمعهما معًا. هل تمادى إلى ذلك الحد؟ راقبها بسيارته من وراء حاوية القمامة، في أثناء وجودها مع ويليام بالنزل بعد ظهيرة كل ثلاثاء، لمدة أسابيع! وبعدئذٍ يرجع إلى المنزل متظاهرًا بجهله. تُرى ماذا فعل أيضًا وهي في غفلة تامة؟

يصلان إلى شارع سكنهما، ومن ثم ينعطف آل بقسوة إلى ممر المرأب ويبطل المحرك. تستجمع شجاعتها هامسةً: «أأنت من فعلها؟».

- ماذا؟!!

تصيح: «هل خطفت أفيري كي تعاقبني وويليام؟ فيزج في السجن، وأتعظ من درس لا يُنسى؟ ولم تحسب حساب أن يشهد أحدهم كذبًا برؤيتها تركب سيارة راين. حدث ما لم تتوقعه قط. تبدو واثقًا للغاية من عدم اصطحابها بسيارة راين! كيف تشعر وابننا محتجز في جريمة أنت فاعلها؟!».

قالت ما لديها باندفاع شديد وجنونٍ، حتى تداخلت الكلمات ببعضها، وفجأةً، تشعر بلطمة قوية على وجهها. أذهلتها الصفعة حتى دار وجهها ناحية النافذة، وانعقد لسانها.

يقول بوحشية: «أخُرسِي فمك اللعين! بَمَ تتفوهين أيتها الفاجرة!».

تلقت نحوه ثانية، بوجهٍ محتقنٍ وصوتٍ حادٍّ قاسٍ: «هل فعلتها؟».

يحدِّق إليها.

- لا أستطيع التصديق أنك تتساءلين حقًا.

تتقرب إجابته، حتى ينطق بصوتٍ خفيضٍ خفيفٍ: «لا، لم أخطفها. لكن صرنا كما أرى، نعرف ما تحسبيني عليه. ترين بي مقدرةً على قتل ابنة عشيقك، مقدرةً على قتل طفلة، في حين تؤمنين ببراءته وبأنه لن يُقدِّم على إيذاؤها. في أي منزلة وضعتني يا نورا؟».

مال صوته تدريجيًّا إلى الصراخ في وجهها داخل السيارة في درب منزلها، ويكرر: «في أي منزلةٍ حقيرة وضعتني يا نورا؟».

بينما يُحْمَلُ في زوجته في غضبٍ مستعِرٍ إذ تلتصق خوفًا بباب مقعدها. يودُّ لو ينهال عليها ضربًا، إنَّما يتمالك نفسه. صفعها بالفعل، ولم يضرب امرأةً بحياته. لم يشتعل غضبه هكذا من قبل، حتى في أثناء انتظارها خلف حاوية القمامة عند النزل. هذه المرأة، هذه الزوجة التي أحبها في يومٍ من الأيام، لم تتم بين ذراعي رجلٍ آخر فحسب، لم تقع في غرام رجلٍ آخر فحسب، بل وتتهمه بالحق الأذى بفتاةٍ صغيرة، لمجرد رغبةٍ في تدمير سعادتها.

كيف ساء حالهما إلى هذا الحد؟

يقول بغتة: «اخرجي من السيارة».

تفتح الباب وتنزل بسرعة، تنفذ بجلدها، ثم تصفعه خلفها. تهول مبتعدة وهي تفتش عن مفتاح المنزل بحقيبة يدها، دون إلقاء نظرةٍ ورائها.

يرجع بالسيارة تاركًا ممر المرأب في صريرٍ حادٍّ للعجلات، معتدلًا في اتجاه الشارع، والغضب يعمي عينيه. لا ينبغي له القيادة على هذه الحال، لكنَّه لا يثق فيما قد يندفع إليه لو بقي مع زوجته وحدهما في المنزل، حيث تربَّى ابناهما.

كيف سيؤثر ذلك على ابنيهما؟

يخرج من البلدة لينطلق على الطريق السريع، وينشج باكياً. بالكاد يرى الطريق من بين دموعه. ابنه محتجَزٌ لدى الشرطة، لا يثق ببراءته مثلما تظاهر

أمام نورا. لا يدري إذا ما استقلت آفيري سيارته أم لا. لا يستوعب الأمر برمته. إن فعلت، فلا شك أنها محض حادثة. من المحتمل أنه قصد إسداء خدمة لها فحسب، ووقع أمر ما، لا يدري ما قد يكون، لكن راين لم يعمد إلى إيدائها حتمًا. لا يمكن أنه تعمّد قتلها. لذلك يرتعب وينكر كل شيء، هذه طريقة راين في مجابهة مصائبه. رغم ذلك يحبّه مهما فعل. ابنه ليس وحشًا أبدًا.

بيد أنه يمقت زوجته. يظن الآن إلى مدى البغض الذي استفحل داخله منذ فترة. يكرهها بنخوة متأججة خالصة، إلى حدّ قتلها. مُحال أن ابنه وحش، إنما يدرك في نفسه للتو -إذ يقود بسرعة جنونية على الطريق المظلم- مقدرةً كامنةً به على ارتكاب فعلٍ موحشٍ.

تقف جالي بدورها عند مطعم طلباتٍ بالسيارة، منتظرةً شطيرة البرجر والبطاطس المقلية، في طريق عودتها إلى عملها. وإذ يطن هاتفها. تجد المتصل، إيرين وولر. للحظةٍ ينتابها إحساسٌ بالذنب؛ لم تعرج عليها طوال النهار، لشدة انشغالها. تكلمت في الصباح الباكر مع أليس سيتن على ظنّ أن آفيري ربما مختبئةً بزاوية ما في منزلها، تلاه اكتشاف هوية الشاهدة، ثم اصطحاب راين إلى قسم الشرطة. عذمت على مهاتفتها أكثر من مرةٍ خلال النهار، وفي كل مرةٍ يعرقلها شيء ما. تردّد عليها.

- المحققة جالي؟

- مرحبًا يا إيرين، أعذر عن عدم استطاعتي زيارتك اليوم، كنتُ سأهاتفك. تقول إيرين، إذ تجزم جالي من نبرتها أنها مستاءة: «انتظرتُ حتى تبلغيني بالتطورات».

تردّد بصراحةٍ حادة: «هل راين بلانشارد هو خاطفها؟».

تتنهد جالي.

- لم نتأكد بعد، إنه ينكر حتى اللحظة.

- من الشاهد؟

ينقبض قلبها، لهذا السبب عينه تتجنب إيرين وولر، توقعت سؤالها عن هوية الشاهدة، إنما لا يمكنها البوح لها باسمها، حتى لو كان من حقها، في وجهة نظر جالي.

- أخشى أنه لا يسعني إجابتك.

- لماذا؟

تتنهد جالي ثانيةً وتقول: «جُلُّ ما يمكنني قوله، أنها إجراءات مؤقتة، ولعذرٍ وجيه».

تقول إيرين: «هذه حُجةٌ واهية!».

تسكت هنيهةً، ثم تسأل: «هل تصدقين ذلك الشاهد؟ أحقُّ رأى آفيري تستقل سيارة الفتى؟».

تقول جالي، متهربةً من الإجابة: «الشاهد مصدرٌ موثوق».

تصيح إيرين: «ولماذا تأخر في الإدلاء بشهادته؟».

يتهاذى إلى سمعها الألم الموجه في نبرتها.

تجيبها وقد ألمَّ بها الضيق: «التأخير له سببٌ، إنما لا أستطيع إطلاعك عليه».

تقطع إيرين المكالمة بفضاظة.

الفصل الثامن والثلاثون

تمكث آفيري وحدها بحجرة القبو مستاءةً، لا يُسعدُها احتجاز راين بلانشارد. كل ما فعلته قصدت به أباها كي يعاني.

تسمع تحركات ماريون بالطابق الأعلى. تتمنى ذهابها من هنا، لكن ستبقى حتى تستتب أمورها وتصبح مستعدةً. هل تعلّم أبوها الدرس؟ هل عانى بما فيه الكفاية؟ باتت متأكدةً تمام التأكد أنه لن يسعى لضربها مجدداً أبداً، بعد ما أصابه. ربما حان الوقت لتنسلّ عائدةً، ويُعثر عليها تمشي في الطريق بمنتصف الليل.

سيُحدث ظهورها المفاجئ ضجةً كبرى، وسيتسابق الصحفيون لإجراء حديثٍ معها. قد يُطلب استضافتها في برنامجٍ حواريّ شهير، مثل «60 دقيقة»⁽¹⁾ أو «أوبرا»، وعندئذٍ سيُدفع المال الكثير. إن عُرض عليها مبلغ كبير، ستحرص على أخذه لنفسها، ولا يأخذ والداه منها شيئاً.

ستقول إن رجلاً هاجمها من الخلف، وغطّى عينيها فلم تستطع رؤيته، ودفعها بالقوة إلى داخل سيارةٍ وقادها لمسافةٍ طويلة. بعد حينٍ أخرجها من السيارة وتركها في قبو منزل، محبوسةً في الظلمة لوقتٍ طويل. لم تجد طريقةً لتحدد الوقت ولا لمعرفة ما يجري خارج ذلك المكان. إذ لبثت مرتعبةً.

(1) برنامجٌ تليفزيونيّ أميركيّ شهيرٌ يتحرى في القضايا الصعبة والتحقيقات الكبرى. (المترجمة).

لم تسمع صوت الرجل قط، ولم ترَ وجهه المغطى بقناعٍ لا يخلعه. سمح لها باستخدام الحمام في القبو وبعد كل مرة يعيدها إلى محبسها في الحجرة. ما تعرفت عليه، وما عرفت لمَ خطفها أو تركها ترحل فجأة. لم يؤذ جسدها قط، وبإمكان الشرطة التأكد أنها لم تُمس بسوء، وأنها لا تكذب. تريد الكل أن يصدقها.

ستدعي أن الخاطف غطى رأسها مرة أخرى، حملها إلى المقعد الخلفي بالسيارة، وقاد لمدة طويلة أخرى حتى أنزلها في الغابة، نزع غطاء الرأس، ثم طلب منها أن تنام ووجهها للأرض ولا تنهض إلا بعد الانتهاء من العد حتى خمسمائة. لما انتهت، سارت في الغابة حتى وجدت الطريق.

هل ستصدق قصتها؟ تعتقد أنها قابلة للتصديق. الشخص الوحيد الذي سينكرها غالباً هو أبوها. قد يخمن ما حدث حقيقةً، أنها هربت واختبأت في مكان ما، وكل هذه التفاصيل اختلقتها من خيالها. لكن بخلافها، لا يعلم أي أحد ما حدث بينهما في ذلك اليوم. لذا سيخشى أن تحكي ما صار، وسيحترس من الاقتراب منها. بدأت تدرك شدة ترقبها للعودة إلى المنزل منذ الآن.

سيتملك مايكل الغيرة من الاهتمام الذي ستنااله. سيبغضها، وسيغتاظ من حالهم إذ سينقلب كلياً. بيد أنها ستستمتع به.

ستشاهد أخبار الحادية عشرة، ومن ثم تتخذ قرارها. قد تدع ماريون تعلم اعتزامها المغادرة الليلة دون رجعة.

إيرين في قمة غضبها. غاضبة من العالم بأكمله، ناقمة على زوجها والمحقة جالي، والشاهد الغامض الذي عجز عن الإفادة بما رأى في حينه. تفاقم حنقها حتى صار جبلاً عتيذاً، ويبعث بها عزيمة وإرادة. تتوق إلى مواجهة الشاهد الغامض، تريد معرفة إذا ما يصدق جبال راين بلانشارد. لو تأكدت، فراين خطف ابنتها بلا شك وستدخر النصيب الأكبر من غضبها له.

تروح وتجيء في غرفة المعيشة، وذهنها منشغل بالمحققة جالي. ترفض إطلاعها على هوية الشاهد، ربما تتحسب منها بعد اعتدائها على راين بلانشارد.

في الغالب هو شخصٌ يسكن بمكانٍ قريبٍ حتى يرى ما يدَّعي أنه رآه، يعرف سيارة راين وميَّز آفيري فور رؤيتها. بالتأكيد يسكن في هذا الشارع نفسه. تفكر في كل ساكني شارع كونوت، قابلت الكثير منهم، وتبادلت حديثاً وجيزاً مع قلةٍ قليلةٍ، إنّما في الإجمال، لا تعرف أيّاً منهم. بوسعها زيارة كل المنازل، وسؤال أهلها من دون مقدماتٍ إذا ما أبلغوا الشرطة عن راين بلانشارد. لا جرم سيخبرها مَنْ فعلها بالحقيقة، إذا وعدته بعدم البوح بهويته أبداً. هي أمُّ الطفلة المفقودة، والعديد من الجيران آباءٌ وأمّهاتٌ. ستنتزع منهم الحقيقة لو تطلَّب الأمر.

تعود إلى نافذة غرفة المعيشة وتلقي نظرةً منها. من حقها أن تعلم، يجب أن تعرف ما جرى لابنتها. لن تقبّع مكتوفة الأيدي في منزلها الذي صار قبراً، تترقّب بلا جدوى. تصعد إلى الطابق الأعلى مجدداً لتطمئن على مايكل. تطرق باب غرفته.

تفتحه لتجد ابنها في وضعه المعتاد على سريره، محدّقاً إلى حاسوبه. تناول قدرًا من الطعام على الأقل. يحيرها ما يشاهده باهتمام لكنّ لن تسأله، لا رغبة لها في معرفة ذلك البتة. هي لعبةٌ إلكترونيةٌ غالباً أو خبرٌ يتعلق باختفاء آفيري. يبدو وحيداً ضائعاً، لا تحتل رؤيته على هذا الحال، وإذ تدرك أنه يجدر بهما مناقشة وضع أبيه، ومصير عائلته. قد لا يبقى سواهما في النهاية. لم يَجِن الوقت المناسب للخوض في هذا الأمر بعد.

تقول: «سأخرج قليلاً».

يسألها، رافعاً عينيه عن شاشة حاسوبه: «إلى أين ستذهبين؟».

تتفكر في كذبة بيضاء، لكنّ تتذكر ما حدث بالمرة السابقة، عندما أخبرته عن ذهابها إلى أبيها في الفندق، حتى فضح أمرها الصحفيون بنشر صورٍ عديدةٍ لها منكبةً على راين بلانشارد الملقى على الأرض بمنزله.

لهذا تعترف: «سأذهب لسؤال الجيران عن آفيري».

لم يحاول إقناعها بالعدول عن الفكرة كما توقعت.

يسأل: «أتريديني أن أرافقك؟»

نُهلّت حتى كاد قلبها ينفطر تأثراً. يعتريه القلقُ عليها، يرغب في حمايتها. تدرك لحظتها أنّها قد تكون آخر مَنْ بقيَ له، لا يمكن أن تُعرضه للتشتت والإحباط.

- لا، أعتقد من الواجب مكوث أحدنا في المنزل إذا ما...
يقول: «حسنٌ، كما تشائين».

يعيد ناظره إلى الشاشة. كل حركاته تنطق باليأس.

توصد الباب وتتخذ طريقها نازلةً الدرج. تأخذ معطفها وتسكن مكانها في البهو للحظاتٍ، تُحمَلُ في البقعة الفارغة التي عُلقَت بها سترة آفيري الجينز، حتى أخذها الفريق الجنائي. من ثم تخطو إلى الخارج ولا تجد أحداً بانتظارها. رحل مراسلو الصحافة. تقف وحيدةً في ذلك الصمت المطبق قليلاً، وينتابها شعورٌ بأنّها هُجرتُ من الجميع. الأجواء كئيبةٌ وخاملةٌ. تُغلق الباب خلفها بالمفتاح وتقرر البدء من الطرف المقابل، منزل أليس سيتن. لديها حدسٌ أنه ما دام ديريك سيتن مشتبهًا بتقربه من آفيري، فلن تتورع والدته عن مهاتفة الشرطة للإبلاغ عن شخصٍ غيره، سواء فعلها حقاً، أو لغرضٍ آخر.

الفصل التاسع والثلاثون

تسمع أليس سيتين طرقاً على الباب ولا تحرك ساكناً. باتت تقلقها الطرقات المتكررة مؤخراً على بابها. يخفق قلبها بسرعة، لا تريد فتحه أيّاً يكن الطارق. تنظر إلى ساعة يدها، اقترب الوقت من التاسعة ليلاً، ولا تنتظر أحداً. ماذا لو أنّها الشرطة؟ طريقة أخرى على الباب. تنهض عن الأريكة، إذ حاولت التلهي بقراءة كتاب، وتذهب لتفتح في رهبة.

تتحير وترتبك لدى رؤية إيرين وولر واقفة على عتبة منزلها. طلّتها متماشية تماماً مع ما يُتوقع أن تبدو عليه امرأة فقدت ابنتها: متلبدة الشعر، متكدرة الوجه، فاقدةً للاتزان. لم تعرف ما يمكنها قوله لها.

تقول: «إيرين؟».

تطلب إيرين: «أيمكنني الدخول؟».

تميل نبرتها إلى التعقل.

تتذكر أليس بقلق كيف اقتحمت هذه المرأة منزل عائلة بلانشارد يوم أمس، واعتدت جسدياً على راين. ويروح ذهنها إلى مايكل ابن إيرين الذي رأى ديريك في بيت الشجرة مع آفيري، واشتبه بتصرف ديريك. ترجع خطوة فجائيةً متوجّسةً. لم جاءت إيرين إلى هنا؟ لا تستطيع التكهّن بما قد تفعله. تلقّي نظرة خلفها على أمل أن تجد زوجها بظهرها. لكنّه بالطابق الأعلى.

تقول إيرين باتزان: «أودُّ التحدُّثَ إليك، وإلى زوجكِ، إذا سمحتما لي».

إذا ما أتت لذلك حقًا، ماذا بإمكان أليس فعله؟ لا يسعها رد هذه المرأة المسكينة خائبةً. اعتادت بنتاهما اللعب معًا، وتبدو في حالة أقرب إلى السكينة الآن. تشير لها لتدخل وتغلق الباب بصمتٍ، ثم تقودها إلى غرفة المعيشة. ديريك بغرفة نومه منكبًا على حاسوبه واضعًا سماعات الأذن، لذا لن ينتبه لما يجري. كذا زوجها وابنتها بالأعلى، لكن يكفي أن تصيح حتى يهرع ليجدتها مهرولاً.

تقول أليس: «بيتر مشغولٌ بمكالمة عملٍ في الطابق الأعلى حاليًا».

تشير لها حتى تستريح على الأريكة وتقعّد قبالتها، وبينهما منضدة القهوة كتلة مصمتة.

تردّف: «يؤسفني كثيرًا ما حدث لابنتكِ آفيري. كيف تصبرين على هذا الوضع؟».

سؤالٌ غبيٌّ، لكنّها مضطربةٌ مما يجعل كلامها متخبطًا.

تقول إيرين وبصوتها لمحّة من المرارة: «مثلما يُتوقّع من أي أمّ في وضعي».

تمرّ هنيهةً مربكةً، لتقول إيرين بعدها: «أرغب في سؤالك، فيما بيني وبينكِ باسم أمومتنا، هل أنتِ من شهد بروية آفيري تركب سيارة راين بلانشارد؟».

تأخذها الدهشة.

- تقصدينني أنا؟ لا. لمَ تعتقدين ذلك؟

- أو رآها زوجكِ؟

- يا إلهي، لا. لم يرَ أيُّ منّا شيئًا.

تصدقها بلا شكٍّ، إذ يشوب وجهها غلبة الإحباط.

تقول إيرين: «لا أدري من الشاهد، ويرفض المحققان إخباري».

- لماذا لا يخبرانكِ؟

تهزُّ إيرين رأسها في حيرة.

- لا أعرف. قالت لي المحققة جالي إن بالأمر عذراً منطقياً، لكنها لا تستطيع إخباري بهويته. أحتاج إلى معرفته والتأكد مما إذا أدلى بشهادةٍ حَقَّةٍ.

تلمح أليس دموعاً تترقرق بعيني المرأة، وتشعر بعينيها تنزع للدمع تأثراً بها. ما تعيشه هذه الأم وضعٌ مروّع. ترتخي أعصابها قليلاً، يريحا أن إيرين لم تأتِ لسؤالها عن ديريك، حسبما ترى.

تقول متعاطفة: «لِكِ حَقٌّ فيما تسعين له. إذا صحَّ أن آفيري استقلت سيارة راين...».

تتلجلج محرجةً، وتتابع: «من الواضح أن الشرطة تأخذ تلك الشهادة على محمل الصدق، وإلا لما أَلَقَت القبض على راين».

ينعكس على وجه إيرين تعبيرٌ يوحي بعدم اكتراثها بما تحسبه الشرطة. تقول إيرين: «سأطرق كل المنازل في هذا الشارع حتى أجد الشخص الذي أدلى بالبلاغ. وحينما أجده سأعرف إن كذب بقوله».

تسألها أليس متشككةً: «وكيف ستعرفين؟».

لا تجيبها إيرين، لكن تقول: «وجَّهت الشرطة الأسئلة إلى ديريك، أليس كذلك؟».

يقشعر بدنهما. تردُّ في نبرةٍ دفاعيةٍ: «بلى، كانت أسئلةٌ اعتياديةٌ».

تَحْمَلُ إيرين في عينيها مباشرةً.

- تظنُّ الشرطة أنه عامل ابنتي بطريقةٍ مشينة.

تكتنف أليس حرارةً، قائلةً: «لا، لم يفعل».

تقول إيرين بحرارةٍ من نوعٍ آخر: «أتفهم كيف تزعجكِ هذه المسألة. إنَّما تصوِّري شعوري في المقابل».

تنهض عن الأريكة بوجهٍ كئيبٍ، وتُرِدِف: «لا نعرف أبناءنا كيفما نزعم أنَّنا نعرفهم. نجهل ما يفعلونه بكل دقيقةٍ تمضي بأيامهم، ولا يسعنا المعرفة أبداً».

تقف أليس بدورها، مصرّةً بصوتٍ خفيضٍ: «لم يلمسها ديريك قط».

تقودها إلى الباب، وتراقبها مبتعدةً على الدرب جهة اليسار حتى يمر المرأب الخاص بالمنزل المجاور. أخذت على عاتقها البحث عن الشاهد جديدًا، تعزم البحث عن الحقيقة بنفسها.

يذرع ويليام وولر حجرة الفندق الضيقة، مُثقلًا بالحسرة والندم، محاصرًا في موقفٍ لا يُحسد عليه. يرغب في تحسين الأحوال، والسبيل مستحيلٌ. انحطّت مكانته الاجتماعية. حتى لو أُدين راين بتهمة الاختطاف، سيظلُّ دومًا الدكتور وولر سيئ السمعة، الطبيب الذي كذب على الشرطة حين اختفت ابنته. أما إذا أُعفي عن راين، فما مصير ويليام؟ ستصاحبه غمامةٌ لا تنقشع لما بقي من حياته، ولن يتزحزح عددٌ ضخمٌ من الناس عن رأيهم أنه قتل ابنته الصغيرة.

انتهى زواجه، إنّما الأسوأ هو تحطُّم علاقته مع ابنه دون أملٍ في إصلاحها. يرتمي ويليام على السرير، يذرف الدمع على خسارة ابنته، وابنه.. وزوجته أيضًا.

لن تعود الأمور بينه وإيرين إلى مجاريها أبدًا، لكنّ يجب عليه السعي لترميم علاقته بمايكل. يتمنى العودة إلى المنزل وتبادل الكلام معه، غير أنه لا يرغب في مواجهة إيرين، كما لا يظنُّ أنّها ستسمح له بالدخول. يمكنه الاتصال به على هاتفه الخليوي. يبعث له برسالةٍ أولًا، ليخبره أنه سيتصل به من رقمٍ جديدٍ.

تتوتر أعصابه وهاتف ابنه يرنُّ. يستمر الرنين لعدة مراتٍ. يهّم ويليام بإنهاء الاتصال مُحبطًا، وإذ يفتح مايكل الخط، دون قول شيءٍ.

يقول ويليام: «مايكل؟».

- نعم.

يعجز عن الكلام فجأةً. يسأله بعد لحظاتٍ: «هل أنت بخير؟».

- نعم.

لا ينم صوته عن أنه بخير، بل ضائعٌ ومجروحٌ. يعي ويليام أن القدر الأكبر من اللوم يقع على عاتقه حيال ما ينتاب ابنه.

يقول ويليام: «إنني آسف، يا مايكل. متأسفٌ على كل شيء».

يتملكُ صوتهُ النشيحُ وابنه صامتٌ: «تعرف أنني أحبك، أليس كذلك؟ أحبك كما أنت. ارتكبتُ الأخطاء، لا مجال للإنكار. رغم هذا، أرجو أن أكون بجانبك، يا مايكل. فأنا أبوك».

تنقطع المكالمة. أغلق ابنه الخط في وجهه.

تكتلت بمعدتها شظيرة البرجر والبطاطس المقلية اللتان التهمتاهما. هكذا الحال دائماً مع مثل تلك القضايا، لا طعام سوى الوجبات السريعة، ولا نوم كافٍ، ولا وقت للتمرين البدني كذلك، مما يصعبُ الحفاظ على الذهن يقظاً. تتفكر في محادثتها الهاتفية مع إيرين وولر منذ قليل، وتتنهد في إرهاقٍ. من العسير التيقنُ مما إذا تُدلي ماريون كوك بالحقيقة، أم أنه مجرد سعي وراء سراپ؟ هل الفتى المحبوس بالزنزانة في القبو بريء؟ هل يضيع وقتٌ ثمينٌ من بين أيديهم، والمذنب الحقيقي لاذ بالفرار؟

تسحب حاسوب التتبع المثبت بالسيارة، وتُدقق في خلفية ماريون كوك. امرأةٌ مطلقةٌ، ليس لها أبناء. تُجري بحثاً عن زوجها السابق، «جريج كليج»، لم يبرح مسكنه في بوسطن ولم يتزوج مرةً أخرى. يعمل في مجال تكنولوجيا المعلومات، مُدانٌ في تهمةٍ اعتداءٍ وجهتها إليه زوجته السابقة. تتعمق في البحث وتصل إلى أمرٍ مسجلٍ بعدم التعرض، أصدرته ضده. في هذا الشأن على الأقل، صدقتُ ماريون كوك في قولها.

تنزوي نورا في المنزل المظلم، متفكرةً بابنها المحبوس وحيداً في زنزانة. تبیت فايت عند صديقتها سامنثا. اتفقت مع والدّة صديقتها حتى تأتي لاصطحابها، حينما ذهب في إثر راين إلى مخفر الشرطة برفقة زوجها

بعد الظهيرة. كيف انقلب عالمها إلى سوادٍ حالكٍ! مرتعبةٌ على راين، مرتعبةٌ على نفسها. تخاف من زوجها، ووجهها يؤلمها من الصفعة.

يا ترى متى سيرجع الليلة؟ وعندما يرجع، ماذا سيحدث لها؟
تودُّ الاطمئنان إلى عودة كل الأمور إلى نصابها الصحيح، غير أنَّها تخلَّت عن ذلك الوهم منذ مدةٍ قريبة. منذ اختفاء آفيري وولر، وكل شيءٍ يتداعى. لو لم تُرسل الطفلة إلى منزلها مبكرًا عن موعتها، لَمَا وصل حالهم إلى ما يعيشونه الآن.

لو اتخذت قرار إنهاء زواجها التعيس، مثلما فعلت ملايين النساء قبلها، لو طلبت الطلاق من زوجها، وويليام انفصل عن زوجته، لتزوَّجا، لعاشا حياةً سعيدةً معًا، لتمكَّنَّا من تحقيق ما تمنَّياه معًا. العيش في أسرة ربائب من زيجاتٍ سابقةٍ، وضعُ اعتياديٍّ، إنَّما بعد ما صار...

لا يمكنها التفكير بويليام دون شائبة إحباطٍ، والندم يغمرها من رأسها حتى أخمص قدميها. تخال أفعالهما هي نواة كل الذعر الذي يحيط بهما. في آخر محادثةٍ بينهما عبر الهاتف، شعرتُ من صوته باضطراب أعصابه. قال لها إنه يحبها، وحُبِس ابنها بتهمة قتل ابنته. ماذا لو بقلب ويليام ضغينةً تعمي حبه لها؟ ماذا لو أن زوجها له يدٌ في تلك الجريمة؟

يتوجب عليها حزم أغراضها والرحيل، لكنَّ لا مكان آخر لتذهب إليه، وابناها بحاجةٍ إليها. كما ينتابها شعورٌ بأنَّها تستحق مهما تحمله لها الأيام. ما تتوق إليه بهذه اللحظة، هي الحقيقة. ستسعى لمعرفة ما وقع لآفيري وولر، تحت أي ظرفٍ من الظروف.

لذا تترقب عودة زوجها إلى المنزل.

الفصل الأربعون

تواصل إيرين طريقها بسلاسة وثباتٍ ملتزمةً الجانب الشرقي للشارع، تحافظ على مسافةٍ آمنةٍ من منزل عائلة بلانشارد. تطرق الأبواب، تصبر على نظرات الذعر والشفقة التي تلقاها. يقابلها بعض الناس بلطفٍ صافٍ ويرجون مساعدتها، والبعض الآخر يرفض مخاطبتها كما لو تحمل مرضاً مُعدياً. لكنْ لم يعترف أيُّ منهم أنَّه الشاهد المجهول حتى اللحظة، ولم يتبدَّ الكذب على أحدهم، كيفما ترى. تصل إلى نهاية الشارع فتنتقل إلى الجانب الآخر. تلمح اسم «عائلة وينتر» مرسوماً على صندوق بريد المنزل التالي. لا تعرف أي فردٍ من هذه العائلة، وما سمعت عنهم قبلاً. تطرق الباب.

لمَّا فُتِح الباب، يتضح لها من تعبيرات المرأة التي فتحتة أنَّها لم تتعرَّف عليها. كيف ووجهها منتشرٌ بكل أوساط الصحافة والإعلام؟ تسألها: «أُسمحين لي بالدخول والتحدُّث إليك قليلاً من فضلك؟ أدعى إيرين وولر».

تتردد المرأة ثم تقول: «أعرفكِ، آسفةٌ لمصائبكِ. تفضلي، أنا جوين».

تبدو إحدى الجيران اللطفاء. تقودها إلى غرفة المعيشة إذ يسترخي فتى مراهقٌ وسيمٌ الملامح على مقعدٍ وثيرٍ وبيده جهازٌ لوحيٌّ.

تسأل أمه: «هلاً تركتنا بمفردنا، يا آدم؟».

يرفع بصره متحاشيًا النظر في عيني إيرين، ويغادر الغرفة بهدوء.
حالما بقيتا بمفردهما واتخذتا مقعديهما، تقول جوين: «أعلم سبب
مجيئك إلينا».

تبادلها إيرين النظرات وقلبها يخفق. أتراها وجدت الشاهد المجهول؟
ثم تردف: «لكنني أؤكد لك أن لا علاقة بين آدم وابنتك. هذه محض إشاعة
ابتدعها شخص ما لأن طبيعته مختلفة؛ آدم متوحد. كما حضر أحد من
الشرطة وتأكد أن لا دخل له بما حدث».

فُوجئت إيرين.

- يا إلهي، لم أعلم. أتصور مدى صعوبة تربية ابنٍ يعاني التوحد.
تقرُّ جوين: «شديدة الصعوبة».

وإذ تجد إيرين نفسها تقول: «أواجه صعوبة شديدة مع آفيري أيضًا».

لم تفضِ عمدًا، خرج الكلام منها من دون حساب.

تُردف كابحةً رغبتها في البكاء: «رغم معضلاتها السلوكية وعنادها
الشديد، أتمنى عودتها فوق أي اعتبار».

تقول جوين: «لك حق فيما تشعرين. أنت أمها، وتحبينها بغض النظر عن
صعوبة الحال».

تدخل إيرين بصلب الموضوع: «يدعي شاهد مجهول أنه رأى آفيري تُؤخذ
بسيارة راين بلانشارد».

- عرفت من الأخبار.

- هل أنت من رآها؟

- أنا؟ لا، لم أر شيئاً قط.

ثم تضيف برفق مائلةً للأمام: «تريدين معرفة من الشاهد كي تسأليه عما
رأى بنفسك. لو كنت مكانك لفعلتُ مثلك. أتمنى مساعدتك إذا باستطاعتي
ذلك».

يتبدى الصدق في قولها، فتومئ إيرين متفهمّة.

تسأل جوين: «هل أحضر لك فنجان شاي؟».

تهزُّ إيرين رأسها وتنهض من فورها.

- يجب أن أجد ذلك الشاهد. أحتاج إلى التأكد من صحّة ما قال.

تقف جوين وينتر معها، وتقول: «إذا ما رغبت في تبادل الكلام مع أحدٍ، فإنّني موجودة». قد ترتاحين بوجود صديقة تسكن على مقربة منك.

يقبع آل بلانشارد في سيارته المتوقفة خلف حاوية القمامة في الباحة الخلفية لفندق النسائم، من دون كل الأماكن. لم يترأ في ذهنه مكانٌ غيره ليذهب إليه. انطلق بأقصى سرعة على الطريق مبتعداً عن البلدة، وقلبه أشدُّ سواداً من قطع الليل الفاحم، وما إن لمح النزل، ظنّه يناديه. تشمله حالة غريبة مريحة لوجوده في البقعة التي تردد عليها مراتٍ عديدة، البقعة التي ابتدأ منها كل شيء بالانهيار. بقعة مألوفة وشبه آمنة. يشعر بها بنوع من الحنين؛ عندما اعتاد تمضية فترة ما بعد الظهر وراء الحاوية، عرف بخيانة زوجته فقط، لم يعلم أن ابنه سيُتهم بجريمتي خطف وقتل فتاة صغيرة، وأن زوجته ستشك بقدرة على ارتكاب مثل تلك الجرائم الشنعاء. تطول مدة مكوثه، شاردًا في ظلام الليل تارةً، ومنهمراً في البكاء على المقود تارةً أخرى. يفكر متيبساً من البرد، فيما يجب عليه فعله. يعتقد أنه أوشك على فقدان عقله، ما يؤدُّ فعله هو العودة إلى المنزل ووضع يديه الضخمتين حول عنق نورا الطويل الجميل، ويضغط حتى ترحل. يتخيل عينيها متسعَتين تُحْمَلَق إليه متوسّلةً، إذ يسلب منها الحياة. بعدئذٍ يحملها إلى السيارة ويحضرها إلى هنا، ليلقيها في حاوية القمامة. لا يدري ما قد يفعله بعدها، ذهنه مُعَمَّم، يتعذر عليه رؤية ما يلي إلقاء جثتها في حاوية القمامة التي شهدت على أفعالها المخزية، وشعوره بالعار. هذه الحاوية هي المكان الذي تستحقه.

ماريون بالمطبخ، تصبُّ لنفسها فنجان شاي، وإذ تسمع طرقاً على الباب، فتجمد محلها. أتراها الشرطة تكرر زيارتها؟ مصابيح المنزل مضاءة، لا يسعها التظاهر بعدم وجودها. تترك الشاي على منضدة المطبخ وتتحرك نحو الباب الأمامي. تفتحه، لم تأت الشرطة، بل جاءت الأسوأ منها.

تسأل إيرين وولر، مرتجفةً على عتبة الباب، ووجهها الشاحب ينعكس عليه ضوء المدخل بقسوة. تشعر ماريون بالدماء تنحسر عن وجهها. يستحيل وجود إيرين وولر هنا، وابنتها في القبو.

تسأل إيرين، ناظرةً إليها ملياً: «هل أنت بخير؟».

تستدعي ماريون حنكة الممرضة وتستجمع شتات نفسها.

تعاملني مع الأمر كحالة طارئة، بل إنها حالة طارئة فعلاً. يمكنك التغلب على هذه المشكلة.

تقول رافعةً يدها إلى جبهتها: «آسفة، أعاني ضغط دم منخفض ونهضت بسرعة لأفتح الباب. للحظة حسبت أنه سيغمي عليّ».

تردد إيرين: «أسمحين لي بالدخول؟».

تحاول ماريون إثناؤها عن الدخول.

- امم.. كنتُ على وشك تجهيز حوض الاستحمام.

لكن إيرين لم تفهم المغزى، تقف ثابتة العزم محدقةً إليها.

- إنمّا بالطبع، يمكنكِ الدخول لبعض الوقت.

تفسح ماريون لها المجال لتدخل وتقودها إلى المطبخ بالجهة الخلفية للمنزل. إذا ما حافظتا على صوتيهما منخفضاً، فلن تدري أفيري بمجيء أمها أبداً. تُقنع ماريون نفسها أنّها حتى لو انتبهت إلى وجود أمها بالطابق الأعلى، فلن تفصح عن وجودها بالأسفل، ستلتزم بالخطّة.

إنمّا ما العمل إذا ارتأت مخالفتها؟

يقع المطبخ في الجهة الخلفية، فوق الحجرة التي تختبئ بها أفيري، أن تسمع صوتيهما من هنا احتمالٌ ضئيلٌ. لا تعرض ماريون على إيرين أن تعدّ لها فنجان شاي. تلتفت عيناها دون قصدٍ إلى الباب المؤدي للقبو، فتصرف ناظرها بعيداً بسرعة، وتسحب كرسيّاً من أجل إيرين.

تقول بصوتٍ خافتٍ: «تعرفْتُكِ من دون شكّ. أنتِ زوجة الدكتور وولر، والدة الفتاة المفقودة».

الفصل الحادي والأربعون

تركز ماريون ناظرَها على إيرين، وعلى باب القبو خلفها في آنٍ واحدٍ، ما بيدها حيلةً. يتملُّكها الفزع بغتةً أن مقبض الباب قد يُدار، رغم أنه مقفلٌ. ربما تناهى إلى آفيري صوت أمها عند عتبة الباب، كما سمعت ضابطي الشرطة حين جاءا. يكتنف ماريون خوفٌ هوسيٌ وعيناها تراقبان الباب، قد يرتجُ وتصدر من ورائه خبطاتٌ إذا حاولت الفتاة الصعود إلى المطبخ، أو مناداة ماريون.

تسأل إيرين بنبرة قلقَةٍ: «أأنتِ بخيرٍ جدًّا؟ تبدين كمن رأى شبحًا».

تقول ماريون، وهي تبعد بصرها عن الباب خلفها، وتسلمه على وجه إيرين وحدها: «في الواقع، لا أشعر أنني بصحةٍ جيدة».

تكبت خوفها بصعوبةٍ، يجب ألا تدعها تستشعر توتر أعصابها. ينبغي عليها التماسك وإخراج إيرين من المنزل بأسرع وقتٍ ممكنٍ. حتى لو انتبهت آفيري إلى صوت أمها عند عتبة الباب، ستبقى بحجرتها ملتزمة الصمت. لن تفسد كل ما وصلنا إليه الآن، على الرغم من أنها ستصرُّ على معرفة تفاصيل الكلام الذي دار بينها وبين أمها.

الأمر الآخر الذي يُحير بالها هو معرفة إيرين بعلاقة زوجها الغرامية مع نورا بلانشارد، من عدمها. تتشابه مع إيرين في نبذ كليتهما بقسوةٍ من قبل رجلٍ واحدٍ. فضَّل نورا بلانشارد عليهما. تتفرس بوجه إيرين، قوامها، يديها،

تخطُّ مقارناتٍ بينهما لا مفر منها. لم تتجاوز إيرين مصيبتها بعد، ولم تزل منزعةً. من الواضح، أضرتّها هذه المحنة ضررًا بالغًا.

تقول إيرين: «لن يطول بقائي. أريد سؤالك فحسب عن أمرٍ ما».

تجاهد لتركز فيما تقوله المرأة. عمّ تريد سؤالها؟

- بشأن ماذا؟

- هل أنتِ مَنْ أبلغ عن رؤية آفيري تستقل سيارة راين بلانشارد؟

تجفل ماريون من الدهشة، وقلبها تتسارع دقاته. هذا ما لم تتوقعه.

تحقق إيرين إليها وتعيد سؤالها بصوتٍ عالٍ متشككٍ: «هل فعلتِ؟».

تقول ماريون: «لا، لستُ أنا».

تظنُّ نبرتها مقنعةً، دومًا ما أجادت الكذب، لكنّها غير مترنّة في هذه اللحظة، ومتفاجئةً. كما تعجز عن إغفال آفيري المختبئة في القبو.

تركز إيرين عينيها عليها.

- بل أنتِ مَنْ فعلها، اتصلتِ بالشرطة لتبلغني عن راين.

رباه! تراها تنهض ويحتك كرسيها بالأرضية في صريرٍ حادّ.

تتهمها: «أنتِ تكذبين. يمكنني الجزم بذلك. لماذا تكذبين؟».

يرتفع صوتها، تقفز ماريون على قدميها متراجعةً إلى الوراء حتى اصطدم ظهرها بالمنضدة، إذ تتقدم إيرين نحوها، وقد صارت أشبه بامرأة ممسوسة. تتذكر كيف هاجمت راين في منزله، بسبب ما شهدت به.

تحتجُّ ماريون: «لم أفعل».

يجدر بها التعامل مع الموقف وإخراج هذه المرأة من هنا.

لكن إيرين ترتاب في قولها حسبما يتضح.

- لماذا تنكرين؟

بينما تبادلها النظرات، تحاول إمعان التفكير. تبتغي حقاً الإعلان عن هويتها بصفقتها الشاهدة ما إن ترحل أفيري. ستستمتع بكذبتها، تتوق لها بفارغ الصبر.

تنطق بصوتٍ مسموعٍ بالكاد: «حسنٌ، أعترف بأنني الشاهدة». تسألها إيرين: «ولماذا أنكرتِ؟ هل صحيحٌ ما رأيته؟ هل أخذتِ ابنتي في تلك السيارة؟».

صوتها مرتفعٌ بشدةٍ وأكثر شراسةً. تشدّ ماريون شجاعتها، يجب أن تتمسك بقصتها. تقول متعمدةً الحفاظ على صوتها خافتاً: «لم أرد الإعلان عن نفسي لأنني أختبئ من زوجي السابق المتعسف. قد يقتلني إن عرف مكاني». تدرك ماريون إلى أي مدى بلغت قدرتها على الإقناع، حتى باتت مقتنعةً جداً برغبة زوجها في قتلها.

تُردف بالنبرة الخافتة ذاتها، وعيناها بعيني إيرين: «وإجابتي هي نعم، رأيتُ أفيري تركب سيارة راين يوم اختفائها. هذه هي الحقيقة». توقعت أن تهدأ المرأة وتفرض ثورتها. ما إن تعرف ستغادر. إنّما لم تفعل.

- هل أنتِ متأكدةٌ من أنّها أفيري؟
- متأكدةٌ تماماً.

تصيح إيرين: «وما الذي أحرّك كل هذا الوقت حتى تُبلّغي عمّا رأيت، حالما علمتِ باختفاء أفيري؟! عرف الجميع باختفائها! ورغم ذلك انتظرتِ لأكثر من يومٍ لتفعلني شيئاً!».

تنفخ أوداجها من الغضب، والرداذ يتناثر من فمها. تخالها ماريون ستعتدي عليها ضرباً. تأزم موقفها كثيراً، لذا تنزع إلى استعطافها.

- أخبرتكِ أنني كنتُ مذعورةً من زوجي...
تنفض إيرين رأسها، رافضةً حجتها.

- لا! أمكنك الإبلاغ على الفور، دون الإدلاء باسمك. لم يجدر بك التأخر.
لعاتت ابنتي إلي الآن، لو أبلغت في حينه!
تسيل دموعها، تصرخ وتنتحب.

تواصل: «لكنك لم تفعلي! وإذا ابنتي.. رحلت عن العالم، فأنت وحدك
المسؤولة!».

تقول ماريون بامتعاض موجع: «اخرجي من منزلي!».
تتوق إلى مغادرتها في التو.

ترمقها إيرين بسخط للمرة الأخيرة، ثم تغادر باندفاع.

توصد ماريون الباب بعد خروجها، وقلبها يتخبط بين الضلوع. تعود
أدراجها إلى المطبخ، تستند إلى المنضدة، قابضة بقوة على طرفها. تُحْمَلَق
في باب القبو. أسمعَت آفيري ما جرى؟ ربما وصلها كل ما قيل حتى أعتاب
حجرتها بالأسفل.

الفصل الثاني والأربعون

آفيري واقفةٌ خلف باب المطبخ، على العتبة الصغيرة أعلى درج القبو. تعرف أن ماريون بالداخل، بالجهة الأخرى من الباب، على مسافة بضعة خطواتٍ منها. استمعت إلى كل ما جرى. حالما انتبهت إلى طرُق الباب وميّزت صوت أمها، تتبعت خطوات الأقدام فوق رأسها حتى خفتت لدى وصولهما إلى المطبخ، ففهمت آفيري أن ماريون لا تريد لها سماع حوارهما، وتساءلت عن السبب.

ربما افترضت ماريون أنها ستمكث في الظلمة بحجرتها، دون الإتيان بحركة، دون رغبةٍ في العثور عليها. لكن آفيري أرادت معرفة ما يجري، لذا انسلت بهدوءٍ من الحجرة وصعدت الدَّرَج المغطى بالسجاد، لتتنصَّت من وراء الباب.

أذهلها ما سمعت. ماريون هي التي أبلغت عن رؤيتها تركب سيارة راين بلانشارد، مما أبعد الشُّبهة عن أبيها. هذا كذب! يستبدُّ بها الحنق على ماريون. لماذا فعلت ذلك؟

لم تتخذ قرارها بعد إذا ما ستظهر أمامها بغتةً، وتضرب كل الخطط التي وُضعت بعرض الحائط.

غادرت أمها، ولم تزل واقفةً خلف الباب في غيظٍ مضطرم، تتفكر فيما يمكنها فعله. قد تفتح الباب الآن وتفاجئ ماريون أنها استمعت إلى حديثهما،

ولتري كيف ستعذر نفسها. هذا ما تريد فعله، غير أنه سيتطلب منها قدرًا هائلًا من العزيمة، لذا تعود إلى حجرة نومها في الأسفل بصمتٍ.

يرنُّ هاتف ويليام وولر على منضدة السرير بحجرة الفندق. يحدِّق إليه متوجسًا ثم يمسكه.

- نعم؟

- ويليام؟

إنَّها زوجته، وينمُّ صوتها عن انزعاجٍ.

- ما الخطب؟ هل عُثِرَ عليها؟

- لا، لكنني عرفتُ مَنْ الشاهد.

هل أخبرتها الشرطة؟ لقد رفض المحققان إفادته بشيءٍ.

يسألها على استعجالٍ: «مَنْ هو؟».

- ماريون كوك، التي تسكن بشارعنا.

يتكئ بظهره على السرير. ماريون كوك! من المربك، والصاعق اكتشاف أن الشاهد المجهول، امرأةٌ يعرفها.

- كيف توصَّلتِ إلى ذلك؟

ينصتُ منبهراً بما تقصه عليه. ما فعلته يفوق كثيرًا ما حاول فعله.

تقول إيرين: «أنكرتُ في البداية، ثم اعترفتُ بأنَّها الشاهدة، مؤكِّدةً على إفادتها حيال رؤيتها آفيري تركب سيارة الفتى. لا جرم أنَّ الشرطة تصدقها وإلا لما أُلقيَ القبض عليه. لكن يا ويليام...».

تنشج باكيةً، وتتابع: «كيف أمكنها الانتظار كل هذا الوقت حتى تبلغ الشرطة؟ لقد رآته يخطفها. لو لم تتأخر في الاتصال...».

يُمعِن ويليام التفكير في الأمر ويجدها محقَّةً. لو علما مبكرًا، لتمكَّنَّا من إنقاذها في الوقت المناسب. بيدَّ أنه يدرك الآن.. يدرك كلاهما، بعد فوات أوان العثور عليها.

يتغلغل الحق بداخله متماشياً مع شعور زوجته، حتى استغلق عليه الكلام.

- ويليام، أسمعني؟

يرتعش صوته قائلاً: «لا أستوعب، إنها ممرضة في المشفى».

كما لو طعنه شخص يراه على نحوٍ اعتياديٍّ في ظهره. علمت باختطاف ابنته في سيارة راين ولم تنبس ببنت شفةٍ إلا بعد مضي أكثر من يومٍ، على الرغم من انتشار الخبر بكل وسائل الصحافة وعُرف أن والدَيها يبحثان عنها، حتى الشرطة اشتبهت في إلحاقه الأذى بابنته. لماذا لم تتفوه بشيءٍ مما رأيته؟ يتوجب على ماريون الإجابة على ذلك. لو صدق قولها وراين خطف ابنته... تدور الغرفة به.

تبكي في أسى، قائلة: «لم أعرف أنها تعمل معك في المشفى، لم تذكر ذلك قط. إذا لم ينطق الفتى، لن نعلم ما حدث لها أبداً».

حالما أنهت المكالمة، يضع الهاتف موضعه، وذهنه مضطربٌ. تحسب إيرين بلاغ ماريون صادقاً. لم قد تخلق قصةً كذلك؟ لكنّ يتمنى ألا يُعتدَّ بشهادتها؛ إن صحَّ ادعاؤها، فابنته على الأرجح ماتت.

ظنَّ أفيري، في بادئ الأمر، هربت من المنزل؛ هو الوحيد بخلافها الذي يعلم بصفعتها بقوةٍ في ذلك اليوم، حتى اختلَّ توازنها ووقعت أرضاً. ينتابه خزيٌّ عميقٌ عند تفكيره بما فعل. يتذكر خروجه إلى سيارته، ثم ترده في العودة إليها ليترجَّها مرةً أخرى حتى تسامحه، لكنَّه لم يُعد. هو وحده الذي يدري كم بلغ حنقها منه وقتئذٍ، وإلى أي مدًى قد ترغب في الانتقام. لذا افترض هروبها، إنّما مع مرور الوقت ولا أثر لها، أخذت ظنونه الأولية في التضاؤل رويداً.

تحوّل خوفه من ظهورها وإخبارها للجميع عن ضربه لها، إلى خوفٍ من حقيقة اختطافها فيُعتقل ظلمًا بتهمة قتل. إنّما آل لوضعٍ أشدَّ سوءاً، إذ يُرجَّح أن من خطفها وقتلها، هو ابن المرأة التي يعشقها.

تميل ماريون بظهرها إلى منضدة المطبخ، متشبثةً بطرفها بإحكام لمدة طويلة. انفلت الموقف من سيطرتها، تعالت أصوات صياحهما. تحاول استرجاع ما قالته، إنما كل ما جرى مُلتبكٌ بعقلها. هل وصل إلى سمع آفيري كل ما قيل؟ لا مفرً من النزول ومواجهة الفتاة، وكذا تساؤلاتها، طلباتها، وذكائها الجاف. تدرك أنه كلما طال بقاءها وحدها بالأسفل، يتضاعف غضبها وجزعها. لكن عليها التفكير أولاً فيما ستفعل. تفتح الثلاجة وتمسك بزجاجة نبيذ أبيض مفتوحة، تصبُّ كأساً وتتجرعها سريعاً. ينبغي عليها مجابهة آفيري. كلما تأخرت، ازداد الوضع صعوبةً.

تسمع آفيري باب المطبخ بالأعلى يُفتح. تركت باب حجرتها مفتوحاً مترقبةً مجيئها. يلمُّ بها مزاجٌ عكرٌ، وطال انتظارها. تفكرت ماريون غالباً فيما ستقوله لها. تجلس في سريرها، مع قُرب موعد أخبار الحادية عشرة مساءً. تدلف ماريون إلى الحجرة وتقف قبالتها عاقدةً ذراعيها. تقول: «جاءت والدتك إلى المنزل».

تبذل جهداً للتصرف بطريقةٍ عاديةٍ، على الرغم من أنها لن تنخدع بما تفعله.

تقول آفيري بعدم اكتراثٍ: «أعرف، ماذا أرادت؟». يلوح الارتياح عليها قليلاً، وتقعّد على طرف السرير. - تروح وتجيء بالشارع كله، تتقفى أثر الشخص الذي أبلغ عن راين بلانشارد. ترفض الشرطة الإفصاح عن هويته.

تحذقُ إليها آفيري.

- سمعتُ صياحاً بالأعلى.

تومئ ماريون بالإيجاب.

- كانت والدتك مستاءةً بشدةٍ، واستشاط غضبها من الشرطة لعدم قيامها بواجبها كما ينبغي. فقدت عقلها من القلق.

تحيد آفيري ببصرها عنها منتبهةً إلى التلفاز.

- ستبدأ الأخبار في غضون دقائق.

تمسك بجهاز التحكم عن بُعد وتشغله، لكنّ تبقّيه على الوضع الصامت حتى بداية البثّ.

تقول: «فكرتُ بالمغادرة هذه الليلة».

بيدَ أنّها ترغب في معاقبة ماريون، فتضيف: «وتراجعتُ لمّا سمعتُك تقولين إنكِ التي أبلغتِ عن راين بلانشارد».

ثم تلتفت لمواجهتها ناظرةً إليها باستهزاء، يستبدُّ بها الغضب والاستعلاء.

- أظننتِ أنّي لن أسمع حديثكما؟ أظننتيني سألزم حجرتي بالأسفل مثل فتاةٍ صغيرةٍ مطيعةٍ؟ لقد وقفت خلف باب المطبخ وأنصتُ إلى كل كلمةٍ.

تدنو من وجه ماريون مائلةً للأمام، وتهمس مجدداً: «كل كلمة».

تراجع ولمّا لم تنطق ماريون، صاحت بها: «لماذا فعلتِ ذلك؟!».

واستدارت ممسكةً بالمصباح الصغير على منضدة السرير، لتقفزه إلى الحائط، فيتهشّم بعنفٍ، وتفاوت الضربة التلفاز بفارقٍ ضئيلٍ. ومع هذا، تلبث ماريون مكانها في هدوءٍ مستقرّ.

تقول بعد هنيهةٍ صمّت: «أردتُ الثأر من والدته».

تستنطقها آفيري: «لماذا؟».

تقول ماريون: «لأنّني أكرهها. تطوّعت في المشفى وتعاملتُ كأنّها الأفضل بين الجميع، وليست حتى بمرمّضةٍ. جعلت كل الأطباء كالخاتم في إصبعها».

- لماذا؟

تريد معرفة كيف تستطيع تلك المرأة إجبار الآخرين على تنفيذ أيّما تطلبه.

- لأنّها جميلةٌ، ما من سببٍ آخر.

تسألها: «هل فعلتُ كذلك مع أبي؟».

تقول ماريون بمرارةٍ: «نعم، والدك على رأسهم».

تتفهم آفيري الوضع. إنها غيورة، لهذا فعلت ما فعلته. لكن لا يعجبها تدخل ماريون في خططها.

تسألها: «هل تنام تلك المرأة مع أبي؟».

تنظر نحوها ماريون في اندهاش كأنما تستغرب قول فتاة، في التاسعة من العمر، لمثل هذا الكلام. عمرها تسعة أعوام بالفعل لكنها تعرف الكثير، وتعرف ما يفعله الكبار مع بعضهم.

- نعم.

تواصل آفيري استجوابها: «كيف اكتشفتِ؟».

- رأيتهما معاً في المشفى. لكن لم يعلما بوجودي.

تستوعب آفيري ما سمعته في بالها، ثم تقول بعد هنيهة: «ستراجعين عن أقوالك».

- عمّ تتكلمين؟

- ستذهبين إلى الشرطة وتعترفين أنكِ اختلقتِ ما قلتِ، بشأن رؤيتي أركب بسيارة راين.

- لا يمكنني فعل ذلك.

- يمكنكِ، وستفعلين.

الفصل الثالث والأربعون

تُحْمَلُق ماريون إلى الفتاة الجالسة على السرير، التي تحسب كل الخيوط بيدها، تحركها كيفما تشاء.

تكرر ماريون: «لا يمكنني».

تقول أفيري ناظرةً إليها بغضبٍ: «يتوجب عليكِ وإلا سنضطر لتغيير الخطة. وعدت أن تساعدني يا ماريون، لكن ما فعلته لم يساعدني. لقد استغللتني، لهذا أخبري الشرطة أنك كذبت فيما قلته عن راين، وإلا سأخبرها أين مكثت حقيقةً طوال المدة الماضية».

تنظر إليها ماريون مذهولةً أن فتاةً في مثل عمرها الصغير تخالها بلهاء، لدرجة وضع نفسها تحت إمرة طفلةٍ مغرورة، ذات نزعةٍ انتقاميةٍ.

تُبعد أفيري بصرها عنها، وتلغي الوضع الصامت للتلفاز. بينما تبدأ نشرة الأخبار إذ تلتفت نحوها وبعينيهما نظرةً حادةً.

- يا للروعة عندما أشاهد ما ستفعلينه بالأخبار، كي أتأكد من أنك فعلته حقًا. لأنني لم أعد أثق بك، كيف أثق بك مجددًا؟

تقول ماريون بعد هنيهةٍ، وهي تقف: «حسنٌ، تمنيت رؤيتها تتعذّب فحسب، مثلما أردت رؤية والدك يتألّم».

بيد أن آفيري وجهت انتباهها إلى التلفاز، ولم تبال بالنظر إليها. لن تبقى
لمتابعة نشرة الأخبار معها، تغادر الحجرة صاعدةً الدَّرج، ثم توصل الباب
بالقفل في خفوتٍ بعد خروجها.

لن تنفي الشهادة التي أدلت بها لدى الشرطة، لا الآن ولا مستقبلاً. يا لك
من فتاةٍ صغيرةٍ مسكينةٍ يا آفيري!
مسكينةٌ وحمقاء!

تتناهى إلى سمع راين جلبةٌ في طريقها إليه، يُحْمَلُ مبهوتاً إلى القضبان
الحديدية التي تشكل جدار الزنزانة أمام ناظره.
يجرُّ الحارس رجلاً غاضباً مخموراً باتجاه الزنانات.
يصيح الرجل المخمور: «أبعد يديك القدرتين عني».
يقول الحارس: «كُفَّ عن التذمر».

يُبَاغِتُهُ تخوفٌ من احتمالية وضع الحارس لذاك الغوغائي المخمور
في الزنزانة معه. غير أنه يدفعه للأمام متجاوزاً زنزانتَه ليضعه في أخرى
خالية بجواره، إذ يستمر الرجل في السبِّ بصوتٍ مغمِغٍ عالٍ. يتنفس راين
الصعداء، ليدرك أن هذا الوضع لا يُذكر مقارنةً بالسجن الحقيقي، بل سيفوقه
سوءاً أضعافاً مضاعفةً.

أُخِذَ كل شيءٍ منه، حتى رباط حذائه، فلا يبقى لديه ما يُعِينُهُ على قتل
نفسه. لكن ربما تَبَقَّتْ وسيلةٌ ممكنةٌ.

تعتقد الشرطة أنه قتل طفلةً، ويخشى اعتقادَ المحامي بذلك أيضاً، كذا لا
يعرف ما تحسبه أمه وأبوه. يمتلكه رعبٌ شديدٌ ولم يُعد يقوى على الصراخ
طلباً لمن يصدقه.

تأخر الوقت. الليلة صافيةٌ وباردةٌ، والقمر الهلالي ناصع البياض في قلب
السماء السوداء القاتمة. لا يدري آل كم لبث منزوياً في السيارة المتجمدة

خلف حاوية القمامة، سارحًا بفكرة قتل زوجته. يعرف كيف يمكنه فعلها، بيديه المجردتين، ويعرف كيف سيتصرّف بجثتها. يعلم أنّها في المنزل الآن وحدها، لن تستطيع التصدي له، ولمّا ينتهي منها، سيحمل جثتها عبر المطبخ ويضعها بصندوق السيارة التي سيوقفها في المرأب، وبابه موصدًا. من السخرية أن العديد من المنازل متصلةٌ بها مرائب، مما يجعل التخلص من أي جثة في الخفاء أمرًا في منتهى السهولة. بعدئذٍ سيجلبها إلى هذه البقعة. يُحتمل أن يراه أحدٌ في أثناء إخراجها من صندوق السيارة، وإلقائها في الحاوية، وهنا تكمن المخاطرة. لن يلفّ جثتها ببطّانية. لكن لا يدري كيف سينجو بفعلته؛ لم يصل بفكره إلى هذه النقطة، ولا يكثرث. سيذهب كل شيء أدراج الرياح على أي حال. يروح ذهنه إلى ما قالته زوجته عنه، وارتياها في أنه قتل طفلة. يستحيل أن يؤذي طفلًا بريئًا، إنّما بإمكانه خنق زوجته. ربما رأت فيه ما لم يدركه عن نفسه.

يدير المفتاح لتشغيل المحرك بيدٍ مرتجفة، ويقود السيارة مغادرًا بقعته خلف الحاوية منعطفًا إلى الجهة الأمامية من النزل، قاصدًا الانطلاق منها إلى الطريق السريع، ليعود إلى ستانهوب وزوجته الزّانية، وإذ يضغط المكابح بغتةً تضيق أنفاسه بحدّة، يحرك السيارة إلى باحة الوقوف الخالية، وكامل جسده ينتفض.

يلبث بسيارته مرتجفًا كورقة شجرٍ، فيمّ يفكر؟ لا يمكنه قتل زوجته. يكاد يفقد عقله، لقد شطح فكره إلى هواجس مستحيلة.

يدفع باب السيارة، ويسير عابرًا الدرب المرصوف حتى اللافتة المضاءة بالنئون حيث مكتب الاستقبال بالنزل، ويطلب حجرة. لم تزل يداه مرتجفتين إذ يُسدّد المبلغ المطلوب ويستلم المفتاح، ويفطن إلى جهل المرأة الجالسة خلف المكتب بكل الضجة التي تدور بذهنه. كاد يحذرهما من الغرباء، يحذرهما من أناسٍ مثله.

تدور آفيري بتململٍ في حجرة القبو الصغيرة، نافذة الصبر، مستاءةً. البقاء مختبئةً طيلة تلك الفترة أصعب مما تصوّرت. خرجت ماريون منذ مدةٍ طويلة، هل يستغرق إخبار الشرطة أنها كذبت كل هذا الوقت؟

تحتضن بين جنباتها الحنق والإحساس بالغدر. غفلتها ماريون وأبلغت عن راين دون الإفصاح عن هويتها، ولم تتوقع أن تكتشف آفيري فعلتها.

تذرع الحجرة، والغضب على ماريون يستعر. ربما ستضطر إلى تغيير قصتها، فلتقل إنها احتجرت هنا غصبًا، واستطاعت الهرب من ماريون. يوجد سببٌ فعليٌّ وراء كذبها على الشرطة، إذ تُضمر الحقد والأذية لنورا بلانشارد منذ البداية. ستدّعي أنها خطفتها وحبسها في القبو حتى تُلصق التهمة بابن نورا، ولمّا جاءت لزيارتها في ذلك اليوم من أجل تناول البسكويت ومبادلتهما المودة، كما اعتادت فيما سبق، استدرجتها إلى القبو وضربتها على رأسها بشيء أفقدها الوعي، ومن ثم صارت سجيناً لديها في حجرة القبو. لا يخفى أنها غيورةٌ من نورا بلانشارد الجميلة، وأنها مغرمةٌ بأبيها. هكذا تكتمل الأجزاء، ويمكنها إقناع الجميع بقصتها. لا يدري أحدٌ أنهما على صلةٍ قويةٍ ببعضهما، يمكنها القول إن ماريون خططت لما يجري منذ البدء، عندما دعته لتناول البسكويت في منزلها طوال الصيف، وسألته أسئلةً عديدةً عن أبيها، منتظرةً قدوم الوقت المناسب لتنفيذ خطتها.

هذه أفضل بكثيرٍ من قصتها الأولى التي فكّرت في استخدامها.

تدور في الحجرة الضيقة حول الجوانب الثلاثة للسريّر بلا توقفٍ.

لكنّ ما العمل إن باحت ماريون بالحقيقة وقالت إن خطة الاختطاف كلها من تدبير آفيري؟ تتمعن في هذه المسألة. سيُنكر الجميع قولها طبعًا. كيف لفتاةٍ صغيرةٍ في التاسعة التخطيط لأمر كهذا؟ وعندما يعرفون أن ماريون أبلغت كذبًا عن راين ولم تؤخّذ بسيارته الحمقاء، سيصدقون آفيري، وليس ماريون، لا سيما حين تخبرهم عن هوسها بأبيها وحقدتها على نورا، حتى خافت على حياتها منها. لا يعينها ما قد يحدث لها، لقد غدرت بها.

بإمكانها الهرب الليلة، قبل عودة ماريون من الخارج. ربما علبها فعل ذلك فوراً.

تنسلُّ من الحجرة إلى بهو القبو. المكان شديد الظلمة لكنَّ يمكنها تحسس طريقها صاعدةً الدَّرَج. تعلم أن ماريون لم تُعد إلى المنزل بعد، وإلا لسمعت خطوات قَدَميها. عند أعلى الدَّرَج، تحرك مقبض الباب لتدخل المطبخ، ولا يدور. الباب مُقفل! أمرٌ غير متوقَّع، تثور ثائرتها ذاهلةً. لقد حبستها ماريون! كيف تجرؤ! مكثت طوال فترة اختبائها في القبو ملتزمةً الهدوء، محافظةً على القواعد المتفق عليها، ولم يخطر ببالها أن تفعل ماريون ذلك قط. تحاول إدارة المقبض مراتٍ ومراتٍ، في استماتةٍ، وتستمر بركل الباب في غيظٍ عارمٍ. لماذا أقفلت ماريون الباب؟ لم يجدر بها قفله. ربما فقدت الثقة بها منذ أن هددتها بإخبار الحقيقة للشرطة.

تستدير نازلةً الدَّرَج ضاربةً قَدَميها بقوةٍ على الدرجات.

ينسدل ظلام الليل، ويروح ذهنها إلى التساؤل إذا ما تحتجزها ماريون بالفعل. ماذا لو انتابها الذعر؟ ماذا لو لم تُعد إلى منزلها قط؟ ربما أخذت حقيبتها وجواز سفرها وهربت بسيارتها، ولن تذهب إلى الشرطة مطلقاً. يشتعل بعقلها غضبٌ محمومٌ، ماذا لو استقلت طائرةً متجهةً لمكانٍ بعيدٍ، وتركتها هنا وحيدةً كلياً، لتموت من العطش والجوع؟ لا تستطيع الخروج. تنزع إلى الصراخ طلباً لنجدها، وتخبط كفيها على النافذة المسدودة بالألواح، وتبكي، حتى تعبت، ولا أحد يأتي.

وإذ تسمع صوت سيارةٍ تنعطف إلى ممر المرأب، بابها يُفَتَّح ثم يُصَفَع بقوةٍ. تنزوي أفيري في الحجرة، وأنفاسها المتسارعة من الذعر تعود لوتيرتها الطبيعية تدريجياً. تدلف إلى الحمام الصغير وتغسل وجهها، حتى لا تلمح ماريون آثار بكاءٍ عليه.

تُقْنِع أفيري نفسها، ها قد عادت ماريون، لا تقصد أذيتها قط. هي امرأةٌ ناضجةٌ، وتتولى رعايتها منذ فترةٍ. ماريون ممرضةٌ، وظيفتها مساعدة الناس. ما فعلته مجرد غلطةٍ غبيةٍ أنانيةٍ، لن تكررهما.

الفصل الرابع والأربعون

تدخل ماريون المنزل. كافأت نفسها بتناول حلوى دسمة في مطعمها المفضل الذي يفتح طيلة الليل، وأطالت مكوثها به، منهمكة في قراءة كتاب. أراحها الابتعاد لفترة عن الأجواء الخانقة هنا.

توصد الباب الأمامي خلفها وتتجه نحو المطبخ. تُلقِي حقيبة يدها على المنضدة، تأخّر الوقت كثيرًا، إنه قبيل الثانية صباحًا. تتمنى الذهاب إلى غرفة نومها والتدثّر في سريرها، غير أن آفيري تتوقع بلا ريب إعلامها بما حدث. تحدّق إلى باب القبو في تأفّف، ثم تفكّ قفله في خفوتٍ، ناظرةً إلى أسفل الدرج وتتمهل حتى تتعود عيناها الظلمة.

تنزل الدّرج ببطءٍ متمسكةً بحاجزه، على أمل أن تجد آفيري غرقت في نومٍ عميقٍ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- ماريون، أهذه أنتِ؟

يصلها صوت الطفلة في الظلام. تَبّا!

- نعم، لقد عدت.

تتحسس طريقها نحو الحجرة. الباب مفتوحٌ. تتوقّف عنده للحظاتٍ، ريثما تضيء آفيري المصباح على المنضدة الأخرى الأقرب إليها. تراها جالسةً باعتدالٍ مستندةً إلى ظهر السرير، والفتحة الصغيرة للمصباح تضيء وجهها

من ذقنها، مما يضفي عليها لمحةً مخيفةً، كأنَّها طفلةٌ ملعونةٌ في فيلم رعبٍ.
يعكس وجهها تكدُّراً وسخطاً، ووعيداً.

تستجوبها آفيري: «هل أخبرتِ الشرطة؟».

تنهاوى ماريون متراخيةً على طرف السرير.

- نعم.

تُجبرها آفيري على سرد كل تفاصيل الوقت الذي قضته في مخفر الشرطة،
وتجيبها مختلقةً كل تفصيلاً تخبرها إياها. تُحسن تلك الأمور، تتمكن من
الكذب باحترافيةٍ دائماً. على أي حال، تبدو آفيري راضيةً بما سمعت.
تقول الفتاة نازرةً إليها بعينيها الزرقاوين الحادتين: «عظيم، لا تُقدِّمي
على تكرار ما فعلته مجدداً».

تقول ماريون بصدقٍ: «لن أكررها، أعدكِ».

ينبغي لها الحفاظ على أسلوبها اللطيف معها، حتى تحين اللحظة
المنتظرة. ومن ثم تنهض عن السرير.

تقول الفتاة: «وكذلك لا توصدي الباب بالقفل بعد ذهابكِ مرةً أخرى».

سحقاً! لقد حاولت الخروج، واكتشفت الأمر.

تومئ ماريون برأسها.

- كيفما تشائين، لن أفعل. آسفةٌ، إنَّها مجرد عادةٍ. طابت ليلتكِ.

تعود أدراجها إلى الطابق الأعلى، ترتدي منامتها وتندسُّ في سريرها.
بالطبع أوصدت باب القبو بالقفل؛ إنه مزيتٌ جيداً وصوته مكتومٌ تماماً.
اكتشفت آفيري مسألة الباب المغلق بالقفل، لكنَّ ما من داعٍ للقلق. لن
تستطيع الصعود للطابق الأعلى أو الهروب من القبو. وثقت بها الفتاة، جاءت
إلى منزلها باحثةً عن صديقةٍ قريبة، بيدَ أنَّها وقعت في الفخ.

أخطأت آفيري خطأً فادحاً.

لن تدعها ماريون تتمتع بالحياة، ويظهر أنَّها لم تظن لهذه الحقيقة بعد،
مما يثير السخرية. لن تسمح لها بإطلاع أحدٍ على بقائها هنا طوال الفترة

الفائتة، لا سيما وقد علمت بأنها حبيسةٌ لديها، مختطفةٌ بالأحرى. قد يؤول مصيرها إلى السجن لأعوامٍ وأعوامٍ، لن تحتل وضعًا كهذا.

ما إن ترحل آفيري، ستسير كل الظروف في الطريق الذي رسمته.

يظنُّ الجميع بالفعل أنها ماتت، وتجهل الشرطة مكانها واقتنعت بشهادة ماريون جِيال ما رآته. يمكنها الجزم بتصديق الشرطة لروايتها. لذا لن تتراجع عن أقوالها مطلقًا، ستقسم على رؤية آفيري تُؤخذ بسيارة راين حتى تُدفن بقبرها. جُلُّ ما عليها فعله هو التخلص من الفتاة، ثم ستفصح عن هويتها وتشهد علانيةً بما رآته. سيدرك الناس شجاعتها حين يعذرون تأخر بلاغها، ويُنصتون إلى قصتها عن زوجها السابق المؤذي.

في الحقيقة، لم يمسهها زوجها السابق بسوءٍ قط. على الرغم من ذلك، وجَّهت له اتهامين بالتعدي عليها، وأُثبت تعرض جسدها لإصاباتٍ بالغة، وصدَّقتها السلطات المعنية في المرتين. حينما قال لها إن زواجهما انتهى، أرادت تحطيمه، ولجأت لتلك الطريقة، ولم تساورها لحظة ندمٍ.

لن يطيق ويليام النظر إلى نورا بعد الآن، وستتدمر حياة نورا المثالية. قد يتسنَّى لويليام أن يقع في غرامها، قد تجمعهما هذه الظروف معًا. تسرح بقصةٍ خياليةٍ لطيفةٍ، إذ يقطع ويليام علاقته بنورا، وينفصل عن زوجته، وعندئذٍ سيراهما بعينٍ جديدةٍ...

من ثم يعود ذهنها إلى الواقع العملي، يجب التخلص من آفيري، وإخفاء أي أثرٍ لها. ستلقُها في أكياس قمامةٍ وتضعها بصندوق سيارتها آخر الليل. لم تُفرض عليها أي مراقبةٍ إذ إنها ليست بوضع اشتباهٍ. ستقصد أرضًا خاليةً وتلقي جثتها هناك. سترتدي قفازًا طبيًا وملابس يسهل التخلص منها بعد انتهائها، وستلقيهم بمكانٍ آخر.

المنزل في حدِّ ذاته معضلةٌ أخرى. ستحتاج إلى عدة أيامٍ حتى تنظف القبو. ستغسل أغطية السرير، ستفرك كل الأسطح، وستكنس السجاد مراتٍ عديدةً، ثم سترمي حقيبة الكنس في مكانٍ بعيدٍ. كما ستضطر إلى مسح الدَّرج فرُّكًا أيضًا، لأن آفيري اعتادت الصعود إلى مطبخها لتتناول البسكويت

خلال الصيف الماضي، حينما حثَّتها على مشاركتها معلوماتٍ عن أبيها. أمامها الكثير لإتمامه. كيف ستضمن أنها لم تغفل أمرًا ما؟ لكنَّ حينئذٍ، لن يُجرى تفتيشٌ لمنزلها بأيِّ حالٍ. عندما يُعثر على جثتها، ما الذي سيجعل منزلها مُرجَّحًا للتفتيش؟ لم تجمعها أيُّ صلةٍ بأفيري، إنها مجرد شاهدةٍ رأت الفتاة تستقل سيارة أحد الأشخاص.

تدرك ماريون أنها امرأةٌ حقوق، لكنَّها لا تميل إلى العنف نهائيًّا، ولذلك ماطلت حتى تصل إلى مرادها. العنيفة هي أفيري، سيُثار غضبها سريعًا وستقاومها بشدَّة. لذا ارتأت أن الوسيلة الفضلى هي إعطاؤها مخدَّرًا أولًا. ستدس جرعةً منه في طعامها. لديها حبوبٌ منومةٌ في خزانتها الطبية ستُفقدُها الوعي. تلتهم الفتاة الطعام مثل خنزيرٍ شره؛ وحالما يدخل معدتها، ستُسلب منها أيُّ قدرةٍ على المقاومة.

ستخنقها في أثناء نومها، ثم ستنزِع عنها ثيابها وباستخدام الذراع اليدوية للمكنسة ستمسح جسدها بعناية، كي تزيل أي شعيراتٍ أو أليافٍ عالقةٍ به. ستبتُّ في خطتها غدًا، وفي مساء الغد، بعد حلول الظلام، ستتخلص من الجثة. حان الأوان. انتظرت طويلًا حتى تقل تحركات الشرطة بالمنطقة، ولا تظن أن بإمكانها احتمال هذه الفتاة الصغيرة المزعجة في منزلها ليومٍ إضافيٍّ.

تستلقي أفيري مستيقظةٌ في الظلام، متسائلةٌ عمَّا يشغل تفكيرَ ماريون في سريرها بالغرفة التي تعلوها مباشرةً. ما زالت مستيقظةً تفكر مثلها، دون أدنى شكٍّ. لا تثق إحداهما بالأخرى. غدرتُ بها ماريون، ولذا تستحق ما سيحدث لها.

ينشغل ذهن أفيري بوضع خططها الجديدة. لمَّا يحين الوقت، لن تتسلل عائدةً من جهة الغابة وتظهر بقصة الخاطف الغريب كيفما اتفقتُ معها سابقًا. لديها قصةٌ مختلفةٌ الآن. ستقول إن ماريون اختطفتها وحبسها رغمًا عنها، لكنَّ تمكنت من الهرب، ستُصدِّق بسهولة. لن تستطيع ماريون الحيلولة دون حدوث ذلك، لأن كل ورق اللعب بين يدي أفيري.

الفصل الخامس والأربعون

في الصباح التالي، تفتح ماريون الكبسولات المنوَّمة، واحدةً تلو الأخرى، تفرغ محتوياتها في كوب حليبٍ موضوعٍ على منضدة المطبخ. ستتخلص من الأغلفة لاحقًا. يعتريها بعض القلق من تذوق آفيري طعم الحبوب، إنَّما لن تنتبه إذا تناولت الحليب مع الخبز المحمص بزبدة الفول السوداني. تحضّر لها وجبة الفطور نفسها كل صباحٍ منذ مجيئها إلى هنا، ولا تُبقي من طعامها أي شيء. تتطلع ماريون إلى اليوم الذي لن تُجبر فيه على تحضير وجبةٍ لطفلةٍ مزعجة. تبتغي البقاء وحدها في منزلها كما اعتادت، تتمنى عودة حياتها لسابق عهدها.

تذوّب محتويات الكبسولة الأخيرة في كوب الحليب، ثم تفتح قفل باب القبو وتحمل طبق الخبز المحمص وكوب الحليب بحذرٍ، نازلةً الدَّرج. تصل إلى الحجرة وتدفع الباب بقدمها لتتسع فتحته.

تتأمل آفيري للحظاتٍ، تبدو فتاةً طبيعيةً، لكن تعلم ماريون أنَّها على النقيض تمامًا. وإنَّ تدرك، أنَّها ليست طبيعيةً مثلها. تتشارك كلتاها في رقصة موتٍ مريعة⁽¹⁾.

(1) إذا تصوَّرت أموأتًا بهياكل عظمية يتراقصون طربًا فوق قبورهم، يستدعون الأحياء في الليل من سباتهم ليسوقوهم إلى حتفهم، لا فرق بين عزيزٍ وضيعٍ، عليمٍ وسفيهٍ، كبيرٍ وصغيرٍ.. فقد رأيت التعبير المجازي لرقصة الموت مجسدًا في دُهنك، ووضعت

حان الوقت لإنهاء هذا الوضع. تناول آفيري كوب الحليب.

تشاهد آفيري نشرة أخبار الصباح بمفردها، وهي تتناول الفطور. تركتها ماريون سريعاً، قائلةً إن لديها ما تفعله.

لا يُذكر بالأخبار أيُّ مما يخص الشاهد الغامض وتراجعته عن أقواله، أو عن إطلاق سراح راين بلانشارد. حسبما يُقال في النشرة، فإنه لم يزل محبوساً، ومشتبهً به في جريمة اختطافها. ما السبب؟

يتسارع عقلها. يجدر بالشرطة الإفراج عن راين بلانشارد، فور اعتراف ماريون باختلاقها ما رآته، كما أكدت لها الليلة الماضية. لكن ربما لم تفعل، لم تذهب البارحة إلى قسم الشرطة قط.

يتضح الوضع لها على نحوٍ مفاجئ، في البدء اعتبرته احتمالاً، إنّما الآن صار يقيناً. لم تخبر ماريون الشرطة بشيء! كذبت عليها مجدداً! لم تُرد التراجع عن شهادتها، ولذلك لم تفعل. كذبت عليها مرةً أخرى، لأنها تسعى إلى إلقاء اللوم على راين بلانشارد حيال اختفائها. يجب على ماريون الفهم أنه بمجرد ظهورها، ستعلم الشرطة أنها لم...

يكاد قلبها يتوقف.

تضع كوب الحليب الذي ابتلعت نصفه، يغمرها الارتياح والخوف فجأة. تفكر وقلبها يخفق بقوة، في باب المطبخ، أهو مُقفل؟ تتسلل صاعدةً الدّرج وتحاول فتحه بهدوء. المقبض عالق، أوصدته ماريون بالقفل مجدداً. إنّها محبوسة، ولا أحد يدري بوجودها هنا. لا سبيل للخروج من هذا القبو إلا إذا سمحت لها ماريون، وهي لن تفعل، أبداً.

يدك على الموروث الإنساني الأوروبي وفلسفة الموت، حتميته وسطوته، منذ نهاية العصور الوسطى المظلمة. بهذه الرمزية المروعة واجه الناس قديماً الفقر والفقد، طغيان السلطة والطاعون، فالكل أمام الموت سواءً، لا يختار أحدُ موته ولا يقدر على الوقوف في وجهه، وتحذيه رقصة لا تنتهي. (المترجمة).

يزعج جالي أمرٌ ما وهي تجلب قدح قهوةٍ آخر من استراحة قسم الشرطة. ينهشها قلقٌ تجهل مصدره، كما لو سقط طرف خيطٍ منها سهوًا في أثناء التحريات، ولا تجد إليه سبيلًا. ما هو؟

تعود إلى غرفة مكتبها وترتمي على مقعدها.. وإذ يطرأ ببالها ما ضاع منها. تبحث عنه على الحاسوب، وها هو أمام ناظرَيها ما اطلعت عليه قبلاً بشأن ماريون كوك الشاهدة الموثوق بها، المرتعدة من زوجها. مسألة خوفها من زوجها قابلةٌ للتصديق للغاية. لدى زوجها إدانتان بالاعتداء ضده، بالإضافة إلى أمرٍ بعدم التعرض. وإذ تحدّق إلى المعلومة الظاهرة أمامها على الشاشة، لم توليها اهتمامًا كافيًا المرة السابقة. عاشت ماريون وعملت خلال سنوات زواجها في بوسطن، بيدَ أنَّها نشأت في ستانفورد، حيث سكن والداها. ما دامت تخاف من العثور على مكانها، لماذا عادت إلى مسقط رأسها، إلى البلدة التي عاش فيها والداها؟ وإذا ما يرغب زوجها السابق في إيجادها، لن تواجهه أدنى معضلةٍ، إذ لم تغير اسمها. فماذا جعلها تُخفي هُويتها وقت الإبلاغ؟ هل كل ما شهدت به محض هراء؟ قضى الفتى حتى اللحظة ليلةً كاملةً اعتمادًا على إفادتها الخطيئة. ماذا لو أنَّها زائفةٌ؟ تقفز على قدميها وتبحث عن بلدسو، تخبره بما أثار قلقها. يومئ برأسه، وجبينه يتجدد في خطّين عميقين. يؤيدها قائلًا: «اذهبي لسؤالها. تعمّقي بجذور هذه المسألة».

بالأعلى، تشغل ماريون نفسها بعدة أمورٍ متجولةً بأرجاء المنزل، ريثما يأخذ المخدّر المنوم مفعوله. ثم تقعد بجانب طاولة المطبخ، تثبت ناظرَيها على باب القبو تارةً وإلى الساعة المعلقة فوق الموقد تارةً أخرى. كم من الوقت سيستغرق المخدّر حتى تفقد آفيري وعيها كليًا؟ إذ لا تريد النزول إليها قبل تمام غرضها. جلبت حبلًا من المرأب، ويقبع على الطاولة أمامها، كأنّه يُحْمَلَق إليها. سيتوجب عليها التخلص منه أيضًا.

تزعّم أنه الوقت المناسب لتفقدها، تشدّ همتها وتحلّ قفل الباب.

تفتحه وإذ تخطو إلى عتبة الدَّرَج رافعةً ذراعها لتحرك مفتاح الضوء، تباغتها دفعةً عنيفةً من الخلف على ورُكَّيها فتتكفئ على وجهها.

تصطدم ماريون بأسفل الدَّرَج. بينما تسقط، يحدث كل شيء بسرعةٍ متباطئةٍ ورؤيةٍ ضبابيةٍ، لكنه جليٌّ بما يكفي بالنسبة إليها. يدور بذهنها أن آفيري تفوّت عليها، تتدحرج على الدَّرَج مذهولةً، حانقةً، عاجزةً، ورأسها وجذعها يتهشمان، تدرك أن الباب خلفها مفتوحٌ. كيف لم تأخذ حذرهما؟ ترتطم مؤخرة رأسها بقسوةٍ بقاعدة القائم الحادة، عند نهاية الدَّرَج، يرتد جذعها لتستلقي على ظهرها، منصعةً ومتوجعةً. ترفع بصرها نحو السقف، مبهوتةً، مذعورةً من فرار الفتاة. مكتبة سُر من قرأ

لكنها لم تهرب بعد. تقف شامخة فوقها، تبتسم لها ابتسامةً مخيفةً بوجهٍ مُتغضّنٍ. الآن فقط، تيقّنت ماريون أن آفيري مؤذيةٌ بحقٍّ، لا تعرف أي حدودٍ أخلاقيةٍ أبدًا. الآن فقط، تعتقد أن الفتاة قادرةٌ على فعل أي شيء، عقلها جافٌ، بليدُ الشعور، أنانيٌّ مثل شخصٍ مختلٍّ. وفي ذلك، هما متشابهتان. في لحظتها الأخيرة، إذ تشعر بالدم يرشح من مؤخرة عنقها، تعترف ماريون بفوز آفيري.

تحتفي آفيري بلحظة انتصارها، تُمتّع نظرها بالرعب المطل من عيني ماريون والضوء فيهما يخبو. تفتنها بحيرة الدماء الآخذة في الاتساع تحت رأسها. لم تشهد أحدًا يموت أمام ناظريها من قبل. تميل عليها حتى تتأكد، عيناها مفتوحتان، لكن أنفاسها توقفت. ماريون ماتت.

ترى آفيري الحبل الذي انفلت من يد ماريون، مما يثبت صحة تفكيرها. أرادت ماريون قتلها. ما زال الأمر صعبَ الاستيعاب.

بيد أنها نهايةٌ مثاليةٌ. تسقط ماريون من الدَّرَج وتموت، في أثناء محاولتها الهروب. يمكنها الركض خارجةً إلى الشارع الآن، تركض صارخةً طلبًا للنجدة. لن تفكر الشرطة في اتهامها بجريمة قتلٍ، إنه مجرد دفاعٍ عن النفس. كما أنها الفتاة ذات التسعة أعوام التي اختُطفت. سيقف الجميع بصفها.

تجول بنظرها فيما حولها للمرة الأخيرة، تاركة كل شيء على حاله، وتهرول صاعدة الدّرج حتى الباب المفتوح. تجد نفسها في المطبخ المألوف لها، ترصد شريط أقراص فارغاً لدواءٍ منومٍ، مُلقًى على المنضدة.

نعم! هذا مثاليّ. سيصدق الجميع أن ماريون احتجزتها بقبورها، ووضعت لها مخدراً بالطعام، تجهيزاً لقتلها، لأن كل التفاصيل حقيقية. تتمهل عند الباب الأمامي حتى تضبط هندامها في المرأة المعلقة عند البهو. مظهرها حسنٌ، لن يقنعهم.

تعدّل من تعبيرات وجهها كي يبدو عليه الخوف والذُّعر، وتفتح الباب.. تجفل لدى رؤية امرأةٍ تتقدم على درب المنزل. تجمد المرأة مكانها، كأنما رأت شبحاً.

الفصل السادس والأربعون

بُهِتَ جالي. تميّز آفيري وولر التي يغمى عليها، فتهرع للحيلولة دون سقوطها أرضاً. قلبها يخفق بشدّة. تنظر عبر الباب المفتوح خلف الفتاة، ماذا حدث هنا؟ أين ماريون؟ هل بصحبتها آخرون بالداخل؟ تسحب جهازها اللاسلكي وتستدعي قوات الدعم والإسعاف. ثم تهاتف بلدسو. تفتح آفيري عينَيها بجفنين مرتجفين وتُحَمِّق نحوها.

تقول جالي وجسد الفتاة الضئيل مستندٌ على ذراعيها: «آفيري، أوجد أحدٌ بالداخل؟».

تنطق آفيري بصعوبة: «دفعْتُها إلى أسفل الدّرج».

ثم ترتجف عيناها ثانيةً وتغمضهما.

تتوقف سيارة الدورية بصريّرٍ حادٍّ أمام المنزل، خلفها عربة الإسعاف، وتتسارع الأفكار بذهنها. مكثت آفيري طيلة تلك المدة في هذا المنزل، في شارع سكنها نفسه. فات عليهم هذا الاحتمال جميعاً. تلمُّ بها حالةٌ من الاستنكار وإحساسٌ مريعٌ بالفشل. خذلت الشرطة هذه الفتاة، إنّما ها هي حيةٌ تُرزَق لم تتأذَّ، ولا يرجع الشكر لأيّ جهدٍ شرطيّ.

يهرول الضباط في زيهم الرسمي على الدرجات الأمامية، وتوجه لهم التعليمات بتأمين الموقع، ريثما يصل باقي فريق الدعم. ينحني طاقم

الإسعاف على آفيري وتتركها جالي بين أيديهم. يعود الضباط إليها بشرفة المدخل لإعلامها بتمام التأمين، وبوجود جثة امرأة في القبو.

يصل بلدسو ويأمر أحد الضباط ليحضر إيرين وولر من منزلها في طرف الشارع إلى موقعهم، ويتدبر أمر إرسال ضابط آخر إلى ويليام وولر. يجري كل شيء بسرعة خاطفة، أمّا بالنسبة إليها، كل ما حولها بطيء الوتيرة، كما لو خرجت لتوها من انفجارٍ، مبهوثة ومشوشة، وحولها أصوات خافتة مكتومة.

تصل إيرين برفقة مايكل إذ ينهمك المسعفون في فحص آفيري، تدفعهم إلى الورا لترتمي باندفاع على ابنتها، منتحبة.

تصيح باكية، محتضنة ابنتها بقوة: «آفيري! آفيري!».

تضمها كأنّها لن تتركها تفلت من بين ذراعيها أبد الدهر.

يراقبها مايكل بطرف عينه، والدموع تنهمر على وجهه الشاحب.

تحسّ جالي بعينيها تغرورقان بدورها، وتستشعر التأثر نابعا من بلدسو وكل الآخرين على مقربة منها. اختفت الفتاة لأربعة أيام، وراح غالبيتهم إلى التسليم باحتمال موتها. الربّ وحده يعلم كيف صمدت. انتهت أزمة أسرتها بسعادة، بعودتها سالمة إلى أحضانهم.

بعد قليل وصل ويليام. يجثو على ركبتيه بجانب زوجته باكية، متفحصا ابنته من كثب. يتبدّى عدم التصديق على ملامح والديها أن ابنتهما على قيد الحياة.

يدنو منها بلدسو بعد حين ويستأذنها بلطفٍ للتحديث إلى ابنتهما. يتراجعان، وهما يومئان برأسيهما في صمت. يشوب الامتعاض وجه آفيري حيال إجبارها على إفلات يد أمها من قبضتها.

يقعد بلدسو مقرفصا بجوارها ويقول: «أيمكنك إخبارنا بما حدث، يا آفيري؟».

تتحرك جالي مقتربة لتنصت.

تومئ الفتاة موافقة، ويساعدونها على الجلوس. تتلجلج عند البدء مستصعبة النطق، حسبما يبدو، وحالما عبرت من فمها الكلمات، خرجت هيستيرية.

- اختطففتني! حبستني في القبو! اعتزمت على قتلي لكنني دفعتها إلى أسفل الدَّرج! يشدُّ لهاث الفتاة.

تقول جالي: «لا تخافي يا آفيري، لن تؤذيك أبداً. لقد ماتت». تنظر جالي إلى والديها والصدمة بادية عليهما. توضح لهما: «الخاطفة هي ماريون كوك».

يقاوم ويليام هجمة غثيان مفاجئة. ماريون كوك هي التي فعلتها! ماريون كوك هي التي احتجرت ابنته منذ البداية! يعجز عن الاستيعاب. كيف أمكنها التصرف بهذه الوحشية؟

يحدِّق إلى ابنته المصدومة. ماتت ماريون. ماتت متأثرةً بسقوطها من الدَّرج.. يحتاج إلى عدة لحظات ليهضم ما سمع. ابنته الصغيرة قتلت إنساناً! لا يطيق التصور، يُقنع نفسه أن حياتها تعرَّضت للخطر، وهذا يكفي عذراً لما فعلته.

ترقب إيرين ابنتها، وراحة بالها بظهورها لا تشوبها أدنى شائبة تأثراً بحقيقة موت ماريون. دفعتها آفيري من أعلى الدَّرج مما تسبَّب في مقتلها. تسترجع إيرين بذاكرتها وقت زيارتها هذا المنزل ليلة البارحة، بينما ابنتها محبوسة في القبو، وإذ يعترئها شعورٌ بالإعياء.

فعلت آفيري ما توجَّب عليها فعله. ابنتها مناضلة، لم تستسلم لوضعها. وفي ذلك تشبه أمها كثيراً. إنَّما ما لا تستطيع فهمه، لماذا خطفت ماريون ابنتها؟

تشاهد جالي المسعفين يحملون آفيري إلى العربة. يتجمهر في الشارع حشدٌ غفيرٌ من الصحافة والمتفرجين، كلُّ مبهورٌ بالحدث. ستتحدَّث وبلدسو

إلى أفيري، كما ينبغي، بعد تمام الكشف عليها في المشفى، إذ يجب عليهما الاهتمام بأمير آخر. تلقي جالي نظرة تجاه بلدسو وهو يُخرج هاتفه مستدعيًا الفريق الجنائي.

تستدير وتدخل إلى المنزل بخطواتٍ متثاقلة. هذا ما سقط عنها سهوًا، هذا ما فاتهم جميعًا. ستُعَدُّ هذه القضية أكبر زلة في مسيرتها المهنية. لماذا غفل عنهما التقصي عن خلفية ماريون كوك بوقتٍ مبكرٍ؟ بدت لهما شاهدة موثوقًا بأقوالها، رأت أفيري تستقل سيارة راين بلانشارد، والفتاة محتجزةٌ لديها في القبو طوال تلك المدة. لو أمكنها المجيء مبكرًا قليلًا، لتغيّر الوضع كله.

افتُرض دافع التحرش منذ بدء التحريات لأن غالبية القضايا المشابهة تنسم بطابعٍ منحرفٍ، إذ يختطف رجلٌ فتاةً صغيرةً، يعتدي عليها جسديًا ثم يقتلها. لم تتصور، ولم يشك أي أحدٍ، أن ماريون كوك اختطفت الفتاة. يرتدي بلدسو زوجي قفازٍ من اللاتكس وتفعل المثل.

تتفكر في مدى تأثير الفتاة بالمحنة التي خبرتها، من التعرض للخطف وقتل إنسانٍ غصبًا بغرض النجاة. ربما ستُضاف إلى قائمة اضطراباتها السلوكية، اضطرابات ما بعد الصدمة.

غرفة المعيشة مرتبةٌ بعناية، فيتوجهان نحو المطبخ. يلمح بلدسو من فوره شريطًا فارغًا لوصفةٍ دوائيةٍ منومةٍ، على منضدة المطبخ.

- انظري إلى هذا.

- خدّرتها عن عمدٍ.

يوميّ مصدّقًا على قولها، ويجول ببصره في أرجاء المطبخ. تقع أعينهما في آنٍ واحدٍ على الباب المفتوح المفضي إلى القبو. يحرك بلدسو مفتاح المصباح، فيشع الضوء فوق الدّرج. يشاهدان الجسد الهامد في القاع، وينزلان ببطءٍ صامتَيْن حتى مرقد ماريون كوك، دون الاقتراب أكثر من اللازم، دون تحريك شيءٍ من مكانه.

يتمتم بلدسو: «رباه!».

تستوعب جالي التفاصيل كافة، وترى حبلاً مُلقًى على الأرض.

- كأنما خدرتها ماريون، قاصدةً خنقها.

يلتفتان من فورهما نحو الصوت الآتي من أعلى الدَّرج، ليعلن وصول فريق البحث الجنائي.

الفصل السابع والأربعون

إيرين وولر في المشفى حيث يعمل زوجها، وعملت ماريون كوك. تنتظر ريثما ينتهي الطبيب والممرضات من فحص ابنتها.

انشرح صدرها لعودة ابنتها سالمة وبلا أدنى أذى، ظاهرياً على الأقل، ولم تتضرر على النحو الرهيب الذي توجّست منه. على الرغم من هذا سيصيبها الضرر نتيجة ما مرّت به، ستعاني بفضاعة، ولذا سيتوجب عليها ملازمتها والعمل جاهدة لمساعدتها في تجاوز محنتها. لا تعرف إذا ما سيبقى ويليام على صلة وثيقة بهم ويمد يد العون لابنتهما. انتهى زواجهما، لكنّه سيبقى والد آفيري. ينبغي له الالتفات إلى دوره، رغم أنه كالعادة سيقع نصيب الأسد من تربية ابنيهما على عاتقها، وبالأخصّ رعاية ابنتهما مضطربة السلوك. تحيط مايكل بذراعها وهما متجاوران على كرسيّين بلاستيكيّين منتظرين في الرواق. يبدو ابنها قد أزيح عبء ثقيل عن كاهله.

ترفع عينيها لتتنظر إلى زوجها الجالس إزاءها على صفٍّ مماثلٍ من الكراسي البلاستيكية، يتكئ بمرفقيه على ركبتيه وينكفي للأسفل، شاردًا بالأرضية. تخاذل الطبيب العظيم ذائع الصيت، يعكف في مكانه مترقبًا في حين ينكبّ زملاؤه على عملهم. تحدّق إليه في محاولة الوصول لفهم معقول لكل ما حدث، تحاول استنباط دافع ماريون كوك إلى خطف ابنتهما.

يستشعر ويليام نظرات زوجته المنصبة نحوه، لكن لا يقدر على مبادلاتها النظر. لا يستوعب ما حدث. ماريون ماتت، ولن تعود لتخبرهم بما أرادت فعله. بعد قليل، يخرج الطبيب إلى الرواق ويشير لهما ليقتربا. ينهض ويليام على قدميه بخفة، يتبع الطبيب ومعه إيرين إلى غرفة بعيدة في نهاية الرواق، ويبقى مايكل مكانه في انتظارهما.

يقعد الطبيب ويطلب منهما أن يستريحا على المقعدين المقابلين له. يزدرد ويليام ريقه بتوتر، خشية ما سيلقيه على مسامعه.

يقول الطبيب: «حالتها الجسمانية ممتازة، من الواضح أنها حصلت على تغذية جيدة وماءٍ بقدرٍ معتدل. لا تظهر عليها أي آثار إيذاء أو اعتداءٍ جسديٍّ بأي صورة، غير أنها تعاني صدمةً حادةً جرّاء ما عاشته، لذا يتوجب عليكما مراجعة طبيبٍ اختصاصيٍّ، ويمكنني اقتراح بعض الأسماء لكما».

يتمتم ويليام: «أشرك».

تومئ إيرين بجواره مؤيدةً.

- نعم، نشرك جزيلًا، هل بإمكانها الذهاب إلى المنزل؟

- بالطبع، أعتقد أنه أفضل مكانٍ لها.

انتشر الخبر بكل الأوساط، عرف الجميع بهروب آفيري وولر من خاطفتها. يتربح خروجها مع أسرتها حشدٌ كبيرٌ أمام المشفى، تكبت شعورها بالانتصار مجبرةً لأقصى حدٍّ. يغمرها إحساسٌ أنها بطلةٌ وتتمنى أن يشيد الجميع ببطولتها. لكن ماريون ماتت، ولا يمكنها الخروج من المشفى مرفوعة الرأس، مسرورةً مما فعلته، بعد التجربة التي مرّت بها. لا يتوقع الناس منها ذلك، يترقبون رؤية طفلةٍ مصدومةٍ مشدوهةٍ، لم تغادرها رجفةٌ الخوف بعد، ستحرص على إعطائهم الصورة التي يسعون لها.

توصلهم سيارة شرطةٍ إلى منزلهم، مما يثير حماسها. رافقها بعض الأفراد حتى قعدت في الخلف بسيارة الدورية إلى جانب أمها، يتبعهما أبوها وبصحبه مايكل في سيارةٍ أخرى. يطاردهم الصحفيون في أثناء مغادرة

المشفى، فتستدير آفيري ناظرةً إليهم من النافذة الخلفية لأطول مدةٍ ممكنةٍ، لأن انفرادها مع أمها يزعجها. لا تريدها أن تكشف ما تخفيه، على الرغم من أن أمها تحبها وتأخذ تصرفاتها على المحمل الجيد دومًا حتى عندما لا يجدر بها ذلك، وأبوها لا يفعل مثلها. لذا يجب عليها الاحتراز منه، فإنه خائفٌ منها، وتودُّ أن يستمر خوفه منها.

لا تحدّثها أمها طوال طريق العودة، تقبض بإحكامٍ على يدها ولا ترفع بصرها عنها، كما لو تعجز عن تصديق رؤيتها أمام عينَيها. تلتزم آفيري الصمت والتباكِي وتدع أمها تمسك يدها، رغم أنه أمرٌ لا تطيقه بالعادة.

ما إن وصلا إلى المنزل، تُقاد وأمها باهتمامٍ بالغٍ إلى الداخل سريعًا من قبل ضباطٍ بزيمهم الشرطي، تحلّقوا حولها مثل كنزٍ ثمينٍ. جاء صحفيون إلى هنا أيضًا، منتظرين عودتها. آفيري أول من يدخل بعدما فتحت أمها الباب بالمفتاح. مضت أربعة أيام منذ تسالت خارجةً من باب الفناء وفاجأت ماريون عند بابها الخلفي. تشعر كأنه عمرٌ طويلٌ. تدخل أمها في إثرها، كما يصل أبوها وأخوها ويدلف جميعهم إلى المطبخ، ويلبث معهم في المنزل شرطيان. يتظاهر أبوها بالسرور غير أنه يرمقها بقلقٍ. تعلم آفيري أنه يتذكر آخر لقاءٍ جمعهما بهذا المطبخ، حينما صفعها بقوةٍ حتى وقعت على الأرض. يتساءل حتمًا إذا ما ستبوح بما جرى بينهما، ربما تفعل. تحاول إعلامه بموقفها من خلال نظراتها إليه، فيشيع عنها بوجهه.

تسأل آفيري الشرطيّين: «لماذا لم تذهبا بعد؟».

يجيب أحدهما: «يجب علينا البقاء معكم حتى وصول المحقق بلدسو والمحققة جالي».

لا يعجبها ذلك، تبتغي بعض الخصوصية، تحتاج إلى وقتٍ للراحة، لكن ما بيدها غير الانتظار. المحققان على وشك الوصول، ويتوجب عليها الاستعداد للقائهما.

يعود مايكل من المشفى في سيارةٍ دوريةٍ مع أبيه الذي جلس صامتًا، على غير المتوقع. ارتاح ارتياحًا لا يُوصف لدى العثور على آفيري، أن لأمه

العودة إلى طبيعتها. انتابه قلق رهيبٌ عليها، لم يغادره كله بعد، فالمرأة التي اختطفت آفيري ماتت. يتخوف من تأثير ما حدث على حياتهم.

ما إن دخلوا إلى المنزل، تغيّرت الأجواء على نحوٍ غريب. تمنوا جميعًا رجوع آفيري، والآن ها هي بينهم، لكنهم يتصرفون كمن يمشي على قشر بيض، ولا يساعد وجود الشرطيّين معهم في تحسين الوضع مطلقًا. وجدوا أنفسهم محاصرين في المطبخ.

تسأل أمه كأنما تحاول كسر حاجز التوتر: «أتريدون تناول بعض الطعام، يا آفيري؟».

تقعد آفيري على أحد كراسي طاولة المطبخ، كما لو خارت قواها فجأةً ولا تستطيع الوقوف، تقول: «لا مانع».

الوضع كله في نظره مربكٌ للغاية، لا يدري أحدهم ما عليه قوله أو فعله، بعد الأحداث الغريبة التي عاشوها.

- سأحضّر لكِ خبزًا محمصًا مع البيض، أيعجبك ذلك؟

- لا بأس.

يلمح مايكل كيف ينظر أبوه إلى آفيري وبعينيّه شائبةٌ خوفٍ. لم يره ينظر إليها بهذه الطريقة من قبل. يتساءل في سريره عما وراء هذه النظرة.

تطلب آفيري وأمه تبدأ في قلي البيض: «أيمكنني تناول البسكويت؟».

تردّ أمه: «ألا ترين أنه من الأفضل تناول البيض أولًا؟».

تصرّ أختها: «أريد تناول البسكويت الآن».

تجلب أمه عبوة البسكويت من الخزانة وتعطيها إياها. يحدّق مايكل إلى آفيري، وتبادلته التحديق إذ تأكل البسكويت بفوضويةٍ صاخبةٍ، من العبوة مباشرةً، ولا تمدّ له يدها بواحدةٍ.

يقول مايكل بصراحةٍ: «تسرّني عودتك».

تنظر إليه كأنّها لا تصدقه.

وإذ يدرك أنّها لا تفهم مشاعر الحبّ حقًا!

الفصل الثامن والأربعون

أليس سِيتِن مستاءةٌ. تقف في غرفة المعيشة، مختلِسةً النظر من النافذة إلى مسكن عائِلة وولر على الجهة المقابلة. تتجمهر الصحافة أمام منزلهم ومعهم جمْعٌ كبيرٌ من الناس. تلمح لافتةً مصنوعةً يدويًا من لوحٍ ورقِيٍّ مقوَّى، وعليها عبارةٌ هتافٍ: **مرحبًا بعودتك يا آفيري.**

لا جرم أنَّها الوحيدة التي لا تشعر بالسرور إزاء العثور على آفيري على قيد الحياة، وعودتها إلى منزلها سالمةً من أي أذى.

حالما سمعت بالأخبار عن ظهورها، استنكرت. كانت بالخارج حينما عُثِرَ على الفتاة عند منزل ماريون كوك، لذا لم تشهد أيًّا مما حدث بأَم عينيها، عرفت كل التفاصيل لاحقًا، من ثرثرة الجيران بعد عودتها برفقة جينا من صف الباليه. رأت حينذاك هرجًا ومرجًا في الشارع وعرفت كامل أجزاء القصة التي لا تُصدَّق.

تَحْمَلُ عبر النافذة سارحةً، ماريون كوك هي خاطفتها؟! لا تستوعب هذه التفصيلة أيضًا. افترضت مثلما خطر بأذهان معظم الناس، أن الفتاة خطفها وقتلها رجلٌ مجهولٌ، إذ انتابها خوفٌ على سلامة ابنتها.

لم تعرف عن ماريون كوك إلا شكلها، والآن هي امرأةٌ ميتةٌ. ما الذي دفعها إلى خطف آفيري؟

ما شعرت به فور سماعها عن إيجاد آفيري حية تُرزق، لم يكن الارتياح ولا السعادة، مما يبعث على الحرج. اعتقدت الفتاة ماتت، واعتبرته أمرًا يقينياً مفروغاً منه، بقسوة آثمة. لأنه لو مسّها ديريك بسوء، سواء بدرجة طفيفة أو أنه بريء من الأساس، لن تأتي لتخبر أحداً بما وقع بينهما. لا يمكنها التكهّن بتصرفات آفيري أبداً. الفتاة شأنها مريبٌ. كما تقول ابنتها جينا إنها كثيرة الكذب.

تحدّق نحو المنزل المقابل بأعصابٍ متوترةٍ، تحاول الشعور بالبهجة من أجل إيرين، لكن ذهنها مضطربٌ. هل ستتابع الشرطة التحري وراء قصتها عن الرفيق الأكبر سنّاً؟ أم ستتغاضى عن المسألة برمتها؟ لا يبدو على إيرين أنّها ستتخطى الأمر. قد تعترف آفيري باختلاقها تلك القصة، وتوضح أنّها لم تقصد ديريك. وقد تخبر الشرطة بأمرٍ آخر، أمرٍ شنيعٍ غير حقيقيٍّ. يدنو بيتر من خلفها بهدوءٍ واضعاً يديه على كتفيها.

يقول كما لو يقرأ أفكارها: «لا تقلقي، يُستبعد أن ديريك مسّ الفتاة بأي سوء. لا نملك غير الابتهاج من أجل عودتها سالمةً».

الأجواء في مسكن عائلة بلانشارد احتفاليةٌ، إذ أُخلي سبيل راين وعاد إلى منزله. بالكاد يستوعبون هذا التحول المفاجئ في أوضاعهم. إنّما في الخفاء، يقبع همٌ بئسٌ.

رجع آل في الصباح. لم توجه نورا كلمةً إلى زوجها منذ عودته. لا تخامره قطرة ندمٍ على لطمها. تنتبه إلى نظراته إليها بين الفينة والأخرى، بتعبيرٍ مشمئزٍّ، أو ربما مُحذّرٍ، ليست واثقةً من مغزى تعبيراته؛ لم تعد قادرةً على فهمه مؤخرًا، ولا تطبيق الوجود بقربه. إنّها خائفةٌ من زوجها.

حينما وقع الأمر، كانت برفقة ابنتها وآل، جالسين بالمطبخ، إذ عادت فايت لتوها بعد قضاء الليلة الماضية لدى عائلة صديقتها سامنثا. لاحظوا جلباً في الشارع وحضوراً كثيفاً لسيارات الشرطة، وانطلقت صفاراتٌ مدويةٌ ثم جاءت عربة الإسعاف. شاهدوا حدوث كل ذلك من مسافةٍ بعيدةٍ.

وسرعان ما أُفْرِجَ عن راين وأُرْسِلَ إلى المنزل. كاد يُغْمَى على نورا من فرط سعادتها، وانهارت في شكرٍ صامتٍ انفعاليٍّ للربِّ.

مرَّت ساعاتٌ منذ اكتشفت أن ماريون كوك هي التي احتجزت آفيري طوال الفترة الفائتة. لم يُصَب زوجها الفتاة المسكينة بأي ضررٍ، وبعدها اتضحت لها الحقيقة، من اللامعقول أنَّها اشتبهت فيه حقًّا. بالتأكيد طار عقلها بسبب خوفها على ابنها، والذنب الذي تحمله. عجزت عن التفكير بطريقةٍ سليمةٍ، ولمَّا ضاق زوجها ذرعًا، لطمها على وجهها، حينما اتهمته بقتل طفلةٍ! لم يكن زوجها هو الذنب الذي تقمَّص وداعة حملٍ، بل ماريون الممرضة. عملت معها على نحوٍ اعتياديٍّ بالمشفى، ولم تدرِ ما تضره، ولم يخطر على بال أحدٍ.

حتى اللحظة، لم يُذكر بالأخبار دافع ماريون المُحتمل وراء فعلتها، كل ما يُتداول هي الحقائق المعروفة: حُبِسَت آفيري في قبو منزل ماريون كوك، هربت الفتاة وماتت ماريون.

بيدَ أنَّها تعرف السبب.

أُغرِمت ماريون بويليام. عرفت نورا منذ مدةٍ طويلةٍ، لمحتة في تصرفاتها حين وجودها بالقرب منه، رأت كيف تنظر إليه عندما حسبت أن لا أحد منتبه لها. وقطعًا، اكتشفت ماريون بطريقةٍ ما، أن ويليام وقع في حبِّ نورا، لذلك خطفت ابنته لتُلقي باللائمة على ابنها. ماريون هي الوحش معدوم الرحمة وليس زوجها. إنَّما نورا هي المُلامة. لولا خيانتها الزوجية، لولا خطيئتها، لما فُكِّرَت في خطف الطفلة.

كلما وقعت عيناها على زوجها تتساءل إذا ما يدور بذهنه الأمر عينه، أنَّها محور الكارثة على نحوٍ ما. بيدَ أنه لا يقترب منها، ولا يريح باله ملقيًا الحقيقة في وجهها حيال خطئها المريع بحقه، بدلًا من تجنبها.

تُحيرُها المسألة كلها، ماذا لو نجحت ماريون فيما صَبَّتْ له؟ ماذا لو قتلت آفيري؟ ما عُثِرَ على الفتاة قط، ما رُفِع الاشتباه عن راين، ولا حتى عن ويليام، لتحطمت حياتهم جميعًا، ولما استردت إيرين اتزانها. صُممت خطة ماريون بمثالية كي تُخَرَّب عليها أي بصيص سعادةٍ تجمعها مع ويليام. كم كانت ماريون خبيثةً! وكم بلغ البغض الذي كنَّته لهما!

الفصل التاسع والأربعون

تنقر جالي زر التسجيل المصوّر، وتبدأ الجلسة. تتخذ وبلدسو مقعديهما المعتادين بغرفة المعيشة، وآفيري جالسة إزاءهما على الأريكة، ووالداها على كلا جانبيها. أخذًا في الاعتبار سنها الصغيرة، قررا إجراء الاستجواب في منزلها بدلًا من قسم الشرطة. طُلب من مايكل التزام غرفة نومه بالطابق الأعلى، وصعد عن طيب خاطر. لا تعرف جالي إذا ما ينوي استراق السمع إلى حديثهم من زاوية خفية، قد تفعل لو أنها في مكانه.

يستهل بلدسو بالقول: «أتفهم صعوبة التساؤل في الوقت الحالي بالنسبة إليك، يا آفيري، لكن من المهم أن تقصّي علينا كل ما صار معك منذ البداية، منذ بعد ظهيرة الثلاثاء. هل بوسعك فعل ذلك؟».

تومئ برأسها في شجاعة وتأخذ نفسًا عميقًا.

- حسنٌ. أخرجتني المعلمة بيرك من صف الكورال حتى أعود إلى المنزل. تتوقف فجأةً.

يحثها بلدسو على المتابعة قائلاً: «هل أتيت إلى المنزل مباشرة؟».

تومئ بالإيجاب.

- أيمكنك نطق إجابتك حتى يُسجّل قولك، من فضلك يا آفيري؟

تقول: «نعم. وجب عليّ انتظار مايكل لكنني لم أُرِدْ ذلك. لم تعطيني أُمِّي وأبِّي مفتاحًا خاصًا بي بعد، لكن يوجد مفتاحٌ تحت ممسحة الأقدام عند الباب الأمامي، أخبرني عنه مايكل. دخلتُ إلى المطبخ...».

تتوقف ثانيةً.

تعتقد جالي أن طريققتها أقرب إلى تعمُّد السرد البطيء لإثارة العجب. تحاول نبذ هذا التصور القاسي، إنَّما آفيري أمام ناظرَيْها، ولم تُعد مجرد فكرةٍ خياليَّةٍ تبحث عنها. تنتبه إلى عدم شعورها بالتعاطف مع الفتاة حقيقةً. إذ إن شأنها مُحيرٌ. من خلال ما شهدته، يتبين لها أن الفتاة تَلَفُ أُمِّها وأباها وأخاها الأكبر منها حول إصبعها الصغير، يخضعون بالكامل لإرادتها. عائلةٌ مريبةٌ! لاح بفكرها بعد ظهور الفتاة، أن لديهم ولا شك معضلاتٍ خاصةً بهم، مثل كثيرين غيرهم.

يحفزها بلدسو على المتابعة: «دخلتِ إلى المطبخ، وماذا حدث بعدها؟».

تخطف نظرةً جانبيةً إلى أبيها قائلةً: «جاء أبي إلى المنزل».

تلحظ جالي أن ويليام شبه جامدٍ في مجلسه، لا يلتفت ناظرًا إلى ابنته، رغم معرفتهم جميعًا بأمر لطمه لها على الوجه. تستشعر أن الفتاة تتكلم بأسلوبٍ دراميٍّ عن قصدٍ.

تقول: «تضايق من رؤيتي وسألني عمًّا أفعله هنا».

تسكت من جديدٍ.

يحثها بلدسو: «وبعد؟».

تسأل: «هل يجب أن أقول الحقيقة، حتى لو لم أرغب في قولها؟».

يقول بلدسو: «نعم، بكل تأكيد، يتوجب عليك قول الحقيقة».

تقول آفيري: «لقد ضربني بقوةٍ حتى أسقطتني الضربة على الأرض».

تسمع جالي شهيق إيرين، وهي ترقب ويليام خافضًا ناظرَيْه، دون أدنى محاولةٍ للإنكار.

تُردِف الفتاة: «ثم توسَّل إليَّ حتى لا أخبر أُمِّي بما فعل، ثم غادر المنزل».

يطبق صمْتُ فظيْعُ لحظتها.

يسألها بلدسو: «وماذا حدث بعدما غادر؟».

- بكيت، ثم خرجت من الباب الخلفي. عبرت البوابة إلى الغابة خلف منزلنا، ومشيتُ مع السور الطويل حتى منزل ماريون كوك. عرفتُها من قبل، كنا صديقتين.

يقاطعها بلدسو متعجبًا: «صديقتين؟!».

تومئ الفتاة برأسها.

- نعم. رأنتي بالغابة في أحد الأيام بالصيف الماضي ودعنتني لتناول البسكويت. تتردد ثم تستطرد: «ومنذ ذلك الوقت، أذهب لزيارتها، وتسألني العديد من الأسئلة عن أبي».

يقول بلدسو: «تابعي».

- في ذلك اليوم، ذهبتُ إلى منزلها وطرقتُ الباب الخلفي، كانت بالمطبخ ولمحتني، فسمحت لي بالدخول. قلتُ لها ما جرى لي وأعطتني وجبةً خفيفةً. استيقظت في حجرة نومٍ بالقبو، ولم أدِر كيف جئتُ إلى ذلك المكان.

تتمهل للحظاتٍ، ناظرةً إلى وجوههم جميعًا وهم يراقبونها.

- وبعد؟

- حاولتُ الخروج من القبو، لكن النوافذ كلها مسدودةٌ، والمنفذ الوحيد هو عبر الباب الذي بأعلى الدَّرَج، المؤدي إلى المطبخ، ووجدته مقفلاً. خبَّطت على الباب أكثر من مرةٍ ولم تأتِ لتفتحه.

تسكت هنيهةً.

يقول بلدسو: «وبالطبع خفتِ بشدَّة».

توافقه آفيري في جزعٍ: «خفتُ وارتعبت. لم أفهم لماذا تبقيني حبيسةً في القبو، حتى أطلعتني على وقوعها في حبِّ أبي، وعلى علاقته السرية بنورا بلانشارد، ولذلك قررت الانتقام منهما».

تسكت، كما لو تقدّر مدى تأثر مستمعيها بما قالته.

تواصل وكلماتها تتسارع وتيرتها: «رأتهما يتبادلان القُبْل في المشفى. تكرهها ماريون، إذ تتصرف بتكبرٍ رغم أنّها مجرد متطوعة. وقالت إن نورا حصلت على كل ما أرادته لأنّها رائعة الجمال، بما في ذلك أبي».

إذًا، فقد حملت ماريون شعلّة حبٍّ من طرفها تجاه الطبيب الوسيم. تتأمل إيرين، الصامدة على محنتها رغم وجهها الذي شحب لونه وامتنع لتوه. الوضع كله يأخذ مأخذًا مروّعًا، لا معقولًا. تعجز عن استيعاب ما يجري في هذه البلدة تمامًا.

تتابع أفيري: «كان بحجرة القبو تلفازٌ، جلستُ بجواري على السرير وسمحتُ لي بمشاهدة الأخبار من وقتٍ إلى آخر، هكذا عرفتُ ماذا جرى بالخارج. أخبرت الشرطة أنّها رأَتني أركب سيارة راين بلانشارد، كي يُلقى القبض عليه. رجوتها أن تسمح لي بالخروج، وأقسمتُ لها أنّي لن أبلغ أحدًا إذا فعلتُ».

بانَت الدموع في عيني الفتاة.

تُردِف متنهدة: «فهمتُ أنّها تنوي قتلي حتى يُلام راين على موتي. كانت أكبر مني وأكثر قوةً، واكتشفتُ أن الطريقة الوحيدة للهروب منها هي بمفاجأتها عند أعلى الدّرج ما إن تفتح الباب. لهذا انتظرتُ بأعلى الدّرج في الصباح، حتى لحظة فتحها الباب. لمّا فعلتُ، دفعتها بأقصى قوةٍ لديّ إلى أسفل الدّرج، ثم ركضتُ خارجةً من المنزل».

تضيف مخترقة الصمت: «حدث كل ذلك بسرعةٍ شديدة».

تتجلى للتو على أفيري ملامح بطلةٍ في عرضٍ مأساويٍّ، شاحبة الوجه مرتجفة، يستبدُّ بها الألم جرّاء فعلتها والفجيعة التي خبرتها.

ترقب جالي وبلدسو الفتاة، وكذلك والداها يحدّقان إليها من كثبٍ، يتبدّى جزعٌ رهيبٌ في وجه أمها، وربما أبوها يتملكه الذهول والهلع، لا يمكنها الجزم بحالته.

يكفهر وجه أفيري، قائلةً: «لم أقصد قتلها قط. أردتُ الفرار منها فحسب».

الفصل الخمسون

تُحْمَلُقُ إيرين في ابنتها معقودة اللسان، لا تقوى على النظر إلى زوجها. وقعت المصيبة بسببه وبسبب عشيقته نورا، والمرأة المنبوذة ماريون. يروح ذهنها إلى التفكير لا شعوريًا، أن لا علاقة لها بكل ما جرى، ولا علاقة لابنتها البريئة. من ثم تلتفت نحو ويليام وتوليه نظرةً مشبَّعةً بالبغض، إذ يحاول استيعاب ما جلبه على رؤوسهم. لن يجرؤ على النظر في عينيها.

تلومه على كل ما عاشوه، وحتى حُسن مظهره وجاذبيته، وطُرقه في المغازلة ليست بمنأى عن اللوم. أَحَبَّتْ ماريون كوك زوجها، في الوقت الذي أُغْرِمَ فيه بامرأةٍ أخرى، وأدى مثلث الحب التافه المقرف ذاك إلى ما هم فيه. لن تغفر له. تخشى أن تترك هذه الصدمة ندوبًا في نفس ابنتها لا تندمل أبدًا.

يستشعر ويليام الكراهية تخبطه أمواجًا متعاقبةً من جهة زوجته. يعرف أنه يستحق الكره، يستحق الكثير منه. إنَّما لا لوم عليه فيما فعلته ماريون. لا يمكن لشخصٍ عاقلٍ أن يحمِّله ذنب ما صار.

على أي حال، عادت آفيري سالمةً وانتهى الكابوس، لم يُعد الناس يرونه قاتلاً. إنَّما تجيش نفسه حِيال الحقيقة، لم يُقدِّم على فعلٍ قد يحضُّ ماريون نهائياً، لم يَدْرِ بما خالجه من شعورٍ. مَنْ يمكنه تصور ماريون، الممرضة الماهرة الخبيرة، قد ترتكب جريمة اختطافٍ؟ بل وأرادت قتل ابنته! اختلقت

اتهامًا لفتى بريء بالقتل، بدافع الحقد. كادت تلك المرأة تدمر حياة الكثيرين، بدافع الغيرة. الأمر مربعٌ. وضعتُ خطةً شيطانيةً، مُحَاكَةً بمثاليةٍ حتى تدفع كلاً منهم إلى العذاب، وتفرق بينه ونورا بافتعال شكٍّ متبادلٍ. لم تبالِ لو ماتت ابنته تحقيقًا لخطتها.

تزعجه الصداقة التي جمعت بينها وأفيري، يضايقه أن ابنته ذهبت إليها يوم اختفائها، بإرادتها. يجاهد نفسه متجاهلاً شكوكه حيال هذه المسألة، ينفذها كلها من رأسه.

فشلت خطة ماريون، وأفيري بخيرٍ وأمانٍ. بانث الحقيقة، لا دخل لراين في اختفاء ابنته. كما اتضح أن لا علاقة لويليام باختفائها أيضًا، أن له التنفس بحرية أخيرًا.

يتأهب المحققان للمغادرة، وإن يقول بلدسو: «سيُجرى تشريحٌ لجثة ماريون كوك. الوضع في غاية الوضوح».

صعدت أفيري إلى غرفتها لترتاح، أرهقت بعد كل ما شهدته، وبخاصة الاستجواب مع المحققين، على الرغم من انقضائه على ما يرام. الأمر الأهم أن ماريون ماتت، ولن تستطيع معارضة قصتها.

تصغي باهتمامٍ بالغٍ والمحققان مغادران المنزل. لم يرافقهما أبوها، يمكث مع أمها بغرفة المعيشة يتحادثان بصوتٍ خفيضٍ. أما مايكل فبغرفة نومه وبابها موصدٌ. تتسلل خفيةً إلى ردهة الطابق الأعلى، حيث يصعب رؤيتها، وتحاول الإنصات إلى ما يقوله والداها.

في البداية لم تلتقط كلامًا مفهوميًا، وبعد حين ارتفع صوتاهما في غفلةٍ منهما، كما يحدث دائمًا.

يقول أبوها: «ألا يساورك قلقٌ بشأنها؟».

تجيب أمها: «إنني قلقةٌ بشأنها قطعًا!».

يقول: «لا.. لا أعني ذلك».

- وما الذي تعنيه؟

تنتبه إلى خطواته المتجهة نحو أسفل الدَّرَج، فتختبئ عن مجال بصره. يتأكد غالبًا من أنها ليست واقفةً بالأعلى تتسمّع. ثم يتهادى إليها صوت خطواته عائدةً إلى غرفة المعيشة، فتنسل إلى موقعها السابق.

يُخَفِّض أبوها صوته، لكنّ تتمكن من سماعه يقول: «ما أعنيه، هل تصدقين ما قالته عمّا حدث معها، بالطريقة التي سردتها؟».

تسأله أمها في ذعرٍ: «ولمَ لا أفعل؟».

يقول أبوها بحدّة: «إنكِ تصدقين أيّما تقوله. دومًا ما تفعلين».

- أصدق أنك أوقعتها أرضًا!

يعترف بنبرةٍ محتدمةٍ محبّطة: «نعم، فعلت، ولا تعرفين ما ألمّ بي في ذلك الوقت، يا إيرين. كأنّها استفزتني عن عمدٍ، رغم علمي أنه لا عذر لما فعلته. انتابني الأسف في الحال، لم أشعر بذلك القدر من الخزي والندم بحياتي من قبل. كرهت نفسي حيال ما اقترفتُ، وما زلت أبغضها. رجوتُها حتى تغفر لي، أخبرتها أنّني أحبها ولم أقصد إيذاءها قط، ويتوجب عليّ إحسان التصرف. نزلتُ على ركبتيّ من أجلها، بحق الربّ!».

يشوب صوته المرارة: «غضت الطرف عن توسلاتي لها، ولم تنس أنّني طلبتُ منها ألا تخبركِ بما فعلت».

بعد لحظة صمتٍ يقول في ارتباكٍ: «ألا تحسبين أنّها.. تتلاعب بالتفاصيل؟».

تقول أمها في ازدراءٍ: «الأطفال يحتالون بطبيعتهم، يدبرون الحيل ابتغاء ما يريدون».

يقول: «ليس بالطريقة التي تتبعها، لا يفعل مايكل مثلاً».

ينبثق بعروق آفيري غضبها المألوف من أبيها.

تجابهه أمها: «أدرك أن ابنتنا صعبة المراس، ولا أدعي غير ذلك. يعلم الربُّ كم هي عنيدة ومتمردة، ولا تُحسن التعامل مع الآخرين، إنّما لا يعجبني ما يتضمنه قولك».

تسكت لثانية.

- كأنك ترمي إلى أن.. أن الأمور لم تحدث كيفما أخبرتنا.

- ماذا لو لم تحدث بتلك الكيفية؟

تناضل آفيري حتى تسمع صوته.

تردُّ أمها حانقة: «ما الذي تقوله؟ بعد كل ما مرّت به! أتُلقي باللائمة على الضحية؟! إنها طفلةٌ في التاسعة!».

تمضي هنيئةً دون كلمةٍ من أحدهما، ثم تُردِّف أمها: «أعتقد أنه حان وقت رحيلك».

- سأرحل.

يمكنها سماع حركته في البهو، سيتحتم عليها الرجوع إلى الورا حتى لا يلمحها لَمَّا يصل إلى الباب.

يقول أبوها: «اعلمي يا إيرين، أنني أحبُّ آفيري، هي ابنتي لكنني أخاف عليها. لا يمكنني الجزم بما تستطيع فعله. أرجو فقط.. أن تبقي على حذرك».

- اخرج!

تنسل آفيري عائدةً إلى غرفتها.

الفصل الحادي والخمسون

تلبث إيرين في مجلسها على الأريكة، لم تحرك ساكنًا منذ مغادرة زوجها. تتفكر في حياتهم بالماضي كأسرة، وكيف حالهم الآن.

تستقبح ما أشار إليه ويليام. تظنُّ أنه يحاول التمويه على ما فعل، يحاول إلقاء اللوم حِيال تصرفه المخزي، على ابنته. ضربها وينتابه الحرج والندم والأسف على نفسه، بعدما عرفت والمحققان إلى أي مدى بلغت قوة صفعته لها. لا يريحه أن غضب آفيري منه لم يهدأ، واستمر غضبها حتى باحت بحقيقة ما حدث. لا يساوره أي قلقٍ على الأغلب من احتمالية إدانته. لكنَّ يجب عليه القلق.

ابنتها متلعبةٌ، لأنها غفلت عن توسلاته لها بالغفران؟ أَيْحَظَر عليها الإغفال عن توسلاته؟ لماذا يظنُّ الرجال على الدوام أنَّهم يستحقون الغفران، ويجب أن ينالوه بمجرد طلبه؟ ربما ما يعتبره صائبًا، غير مقبولٍ في نظر ابنته، وفي نظرها والملايين من الفتيات والنساء الأخريات، في مثل وضعها. توسَّل إليها أن تغفر له، لا يهم! هل ستصلح توسلاته ما فعل؟ يأتي الآن ليسفِّه من قدر ابنته، إنك تصدقين أَيْمًا تقوله! وبم سيتحجج ما دام يرى العالم حوله من منظوره الذكوري؟ كأنَّ آفيري أجبرته على صفعها بطريقةٍ ما. على أي حال، نظرتها على النقيض من نظرتة كليًا، إذ إنَّ آفيري ضحيةٌ، وهو أمرٌ واضحٌ للعيان، وإيرين ضحيةٌ مثلها، ضحيةٌ خيانتة الزوجية وكل أكاذيبه الدنيئة.

كيف لم تلاحظ قدرته على الكذب قبلاً؟ يتجلى ذلك لها للتو. لم تزل غاضبةً من العالم كله، من زوجها وعشيقته، من المرأة المخبولة الميتة، التي أغرمت به حدّ الهوس. هم المسؤولون عمّا جرى، وتركّت هنا بصحبة فتاةٍ محطمةٍ أكثر مما كانت عليه، ولا حيلة بيدها غير قائمةٍ بأسماء أطباءٍ لدعمها؛ لن يوفر لهم ويليام مساعدةً تُذكر، حسبما تستشعر منه.

تقف على قدميها ببطء. حظيت بفرصةٍ للانفراد بآفيري بعد عناءٍ، ترغب في التحدّث إليها حديثاً خاصّاً، بعيداً عن عجرفة أي أحدٍ غير مرغوبٍ في وجوده. تشكُّ في استطاعتها حتّ ابنتها على مصارحتها بكل أريحية، إذ ينافي ميلها للكتمان. سيتطلب الأمر وقتاً ريثما تعتاد. تتساءل عمّا ينتظرها، أستجابها كوابيس؟ أستنطوي على نفسها؟ هل سيأتي رد فعلها غاضباً، عنيفاً؟ كيف ستتصرف وقت عودتها لصفوفها الدراسية؟ يا إلهي! سينبغي عليها في مرحلةٍ ما، الذهاب إلى المدرسة، حيث سيعرف الجميع ما وقع لها وما فعلته. يحسُن بهم الانتقال لحماية ابنتها من شيوخ أخبارها. هل ستجبر مايكل المسكين أن يهجر المكان الذي وجد فيه سعادته، يهجر أصدقاءه وفريقه؟ ربما يتطلع إلى إصلاح علاقته بأبيه كذلك.

بغته، تجتاحها كل تلك الهواجس دفعةً واحدةً، فتتهاوى على الدرجة السفلى من الدّرج، وقد استبدّ بها الإرهاق. تتذكر أن ابنتها على قيد الحياة وعادت إليها، وهو ما دعت يائسةً من أجله، ما من دافعٍ للأسف على حالها بعد الآن. عندما تصوّرت عودة آفيري، لم يَرُح ذهنها إلى أبعد من هذه اللحظة البهيجة إلى الوضع بالاعتبار ما سيتبع عودتها، إلى التفكير في القادم مستقبلاً. تنهض وتستأنف صعود الدّرج، متجهةً صوب غرفة آفيري. تدقُّ بخفةٍ على الباب وتفتحه.

تنظر آفيري إليها، وملامحها يشوبها التحفظ. تقول إيرين ملطفةً الأجواء: «كيف حالك؟ صرنا وحدنا. لا يوجد في المنزل غيرك ومايكل وأنا. رحل الآخرون جميعهم».

تدخل وتقعّد على السرير، في حين تومئ آفيري قائلةً: «جيد».

تخفق إيرين في كبح رغبتها، تدنو من ابنتها وتجذبها بين ذراعيها، تقبّل جبينها، في محاولةٍ للتخفيف عنها حسبما علمت أنه ما يجب فعله. تعرف أن لا فائدة سترجى منها، لكنّ ما بيدها حيلةٌ أخرى. تسمح آفيري لها باحتضانها، وهو ما لا يشبهها، لا بدّ أنّها أدركت حاجتها إليها. عاشت كلتاها تجربةً مريرةً.

تعانقها هامسةً لها من بين خصلات شعرها: «ستؤول الأمور إلى كل خير، يا آفيري. سيعود كل شيءٍ إلى نصابه الصحيح».

تُحيطها وتترقب ابنتها الصغيرة حتى تبكي، حتى تنفّس عن همومها. بيّد أنّها لا تفعل. ابنتها ساكنةٌ لم تتأثّر. أمها هي التي تبكي.

بعد هنيهةٍ تتراجع إيرين ناظرةً إلى ابنتها جافة العينين. ربما لم تفارقها الصدمة بعد، تحتاج إلى بعض الوقت. سيساعدها الأطباء إذا سمّحت لهم؛ امتنعت آفيري عن التعاون مع أي معالجٍ ذهبوا إليه. إنّما هذه العضلة مختلفة، تعرّضت لمحنةٍ فظيعةٍ.

تقول إيرين: «إنّني موجودةٌ من أجلك، يا آفيري، وأنتِ تعرفين. بأيّ وقتٍ ليلاً أو نهاراً، سأصغي إليك، وعند حاجتكِ إلى عناقٍ، أو.. إذا أردتِ الإفصاح عن شيءٍ لي... قد يريحكِ مشاركة ما بداخلكِ».

تقول آفيري، باقتضابٍ: «حسنٌ».

توافقها إيرين: «إذاً، اتفقنا».

يظهر جلياً أنّها ليست مستعدةً لفتح قلبها لها، ستأخذ وقتها، وإيرين لديها وقتٌ، لديها كل الوقت بالعالم من أجل ابنتها، لكنّ تودّ سؤالها عن أمرٍ يورقها.

- ذهبتُ إلى منزل ماريون ليلة أمس، حينما كنتُ في القبو.. هل علمتُ بوجودي، ولم تستطيعي الصراخ طلباً للنجدة؟

تهزُّ رأسها نفياً.

- داومتُ على إعطائي مخدّراً، في الغالب كنتُ نائمةً.

تومئ إيرين، قائلةً: «بالطبع. أحبك يا آفيري. لا تنسي ذلك أبداً. عندما اختفيت،...».

تنفجر في البكاء، فاقدة القدرة على نطق كلمات مفهومة. تربت ابنتها على كتفها بطريقة خرقاء، قائلةً: «لا بأس، لقد عدتُ، ستجري كل الأمور على ما يرام».

الكلمات وقّعها شديد الغرابة على لسان آفيري، تحجم إيرين عن البكاء من فورها وتحقق إليها. تومئ مؤيدة قولها.

- نعم، هذا ما سيحدث، ستؤول أحوالنا إلى كل خير، لصالحنا. للمرة الأولى تنطق بها بجديّة، إنّما تؤرقها مسألة عالقة. تردف: «أحتاج إلى أن تصارحيني، يا آفيري. هل ضايقت شخص ما سابقاً، فتى يكبرك سنّاً؟».

تشيح ابنتها بوجهها بعيداً عنها. - كفى كلاماً، لقد تعبت.

لا تريد إيرين إرغامها على التحدّث. تنهض عن السرير غير مطمئنة، وتقول: «كما تشائين، خذي قسطاً من الراحة».

تخرج من غرفة النوم، تبتعد في الرواق وتطرق باب غرفة مايكل. ينتظر معرفة ما أخبرتهم به آفيري، سينتشر ما قصّته بالأخبار عمّاً قريب، على أي حال. كالعادة، تجده جالساً على سريره وبين يديه حاسوبه.

ينزع سماعات الأذن، وتقعّد بجانبه على السرير. تسأله: «هل أنت بخير؟».

تنهمر دموعه فتجذبه إليها في عناق، هامسةً من بين خصلات شعره، كما فعلت مع أخته.

- لا تحزن، يا مايكل. سيعود كل شيء إلى نصابه الصحيح.

ابنها مرهف الحسّ، مقارنةً بأخته، وتعرف أنه بحاجة للإفصاح عمّا يساوره. مرّت كل تلك الظروف عليه بفضاعةٍ.

بعد حينٍ ينسحب من بين ذراعَيْها مجفّفًا عَيْنَيْه بكفّيه، وبملامح قلقٍ يقول: «ماذا سيحدث لها؟».

- لن يحدث لها شيءٌ. مقتل ماريون مجرد حادثةٍ، في أثناء محاولة أفيري الهروب. كانت حالة دفاعٍ عن النفس. عمرها تسعة أعوامٍ، لن يُوجّه لها أي عتابٍ، أو تُوضع موضع مساءلةٍ. ستبقى معنا هنا. ويجب علينا، نحن الاثنين، مساعدتها يا مايكل. تحتاج منّا إلى كل دعمٍ ممكنٍ. يُبعد بصره عنها، ويسألها بعد هنيهةٍ: «وماذا عن أبي؟».

تتخير كلماتها بعنايةٍ: «لن يعيش أبوك معنا من الآن فصاعدًا، إنّما بإمكانك مقابَلته حينما تشاء».

لا تلمح أي ردّة فعلٍ على قولها، لكنّه يقول: «سمعتُ.. ما قالتَه أفيري للمحقّقين. تسمّعتُ إلى استجوابها. الأمر كله خطؤه من البداية».

تبتلع إيرين ريقها. تؤدّ لو بوسعها موافقته. تقول: «ارتكب أبوك أفعالاً بغيضةً، لكنّ لا عتابٍ عليه فيما اقترفته ماريون. لم يتكهّن أن تخطف ماريون أخذك».

لا تدري إذا ما سيرغب مايكل في استمرار علاقته بأبيه، بعد ما جرى لهم، بعد ما عرفه عنه. لن تحاول التأثير على قراره مهما يَكُنْ.

مايكل وأفيري هما أقرب الناس إليها. أمرٌ بديهيٌّ، فمعظم وقتها تقضيه معهما. هي أمهما، الوالدة تحيطهما بالرعاية والتربية أكثر مما يفعل الوالد، وتعرف طباعهما أفضل من ويليّام.

الفصل الثاني والخمسون

- ماذا؟! -

انزعجت أفيري مما سمعت أمها تقوله للتو.

يتناولان الفطور على المائدة في الصباح التالي، من يوم الأحد. خلدت إلى نوم عميق في سريرها البارحة. ماكل آخر مَنْ يستيقظ ولم يلحق بهما بعد. بالخارج، ينتشر جمعٌ من الصحافة ومختلسي النظر الفضوليين منذ الأمس. نظرت بضع مراتٍ خلسةً من وراء ستائر نافذة غرفة المعيشة، على الرغم من مناداة أمها لها حتى تبتعد وتتجاهلهم، لا داعي للاكتراث لهم. قالت في عصبية، تجاهليهم وسيرحلون من تلقاء أنفسهم. لا تريد أن أفيري أن يذهبوا من هنا، رغم رحيل بعضهم بالفعل. اختفى الأشخاص الذين استقبلوها بحفاوةٍ بالرايات واللافتات، وبقي أناسٌ من الصحافة، يتوقون إلى إجراء حوارٍ، التقاط صورةٍ أو خبرٍ. تتوق إلى منحهم ما يريدون. تودُّ أن تكون محور الاهتمام، ترغب أن يعرفها الجميع، ويأتيها مالٌ وفيرٌ من وراء شهرتها. تتمنى السيطرة على زمام حياتها الخاصة، والآن تطلب أمها منها الاختباء!

تقول أمها: «أرى من الأفضل لنا الانتقال من البلدة. لن يريحك ارتياد المدرسة نفسها بعد ما مررت به».

تُعمل أفيري عقلها بسرعة، وتسألها: «ماذا عن عملي؟».

- يمكنني الحصول على عملٍ آخر.

- ما رأي مايكل؟

تومئ أمها.

- أفهم قصدك. تفكرت في أمره مطولاً، وأظنه سيوافق. لن يودّ العيش

في هذه الأجواء الجنونية أيضاً. ربما الانتقال هو الوضع الأمثل لثلاثتنا.

تقول آفيري: «تقصدان الأمثل لك».

تنصدم أمها بقولها، وتلحّ عليها: «لا، يا آفيري، هذه الفكرة من أجلك، من

أجل الوضع الأمثل لك، ولنا معك. يمكننا البدء بدايةً جديدة، حيث لا يعرفنا أحد».

تهزّ آفيري رأسها رافضةً.

- لا أبتغي الانتقال من هنا.

- كيف ذلك؟!

- ما أعنيه أن الصحافة ستتبعنا أينما نذهب.

تعارضها أمها: «إلا إذا أخفينا عنها أمر انتقالنا. ما دمنّا مصرّين على عدم

التحدّث إلى أحدٍ من الصحفيين، ستخمد حماستهم، وحينئذٍ سنمضي قدماً بحياتنا. قطعاً لا تريدين العيش وكل تحركاتك مرصودة».

ها هي تعود لسابق عهدها، تخبرني بما أريد، رغم جهلها بما أريد.

تقول وهي تمدّ يدها نحو شريحةٍ أخرى من الخبز المحمص: «لا يزعجني

ذلك».

تتأملها أمها ملياً متفكّرةً، تدرك ما يشغل عقلها. تتفكر في أنّها طفلةٌ لا

تعي ما تفعل، إنّما آفيري تعرف ما تفعله تمام المعرفة.

تردّف: «أعتقد من الأفضل أن أتحدّث إلى الصحافة».

تقول أمها باضطرابٍ: «ماذا؟ لا، يا آفيري. لا أراها فكرةً حسنةً».

- لماذا؟

- لأن.. لأنكِ طفلةً، وسيستغلونكِ لصالحهم. سيضيقون عليكِ حياتكِ ولن يتركوكِ لحالكِ. سيحرّفون كل أقوالكِ، ويذكرونها في غير سياقها. الصحافة قوةٌ جبّارةٌ، ليست لديكِ أدنى فكرةٍ عمّا بوسعها فعله. تضيف في أسمى: «مهما يكن ما ينشره عنكِ الصحفيون، سيلحق سيرتكِ للأبد. لا تريدان أن يعرفكِ الناس من خلال ما ينشرون». تقول آفيري: «لستُ خائفةٌ منهم. أعرف ما يجب قوله». تصرُّ أمها: «لكن.. لا.. لنفكر في هذا الموضوع برويّة، ما من داعٍ للاستعجال. قد يتغير رأيكِ بعد يومٍ أو يومين». تتدبر آفيري الفكرة، يمكنها الانتظار ليومٍ أو يومين. ربما التمهّل أفضل كثيرًا.

تغادر نورا المنزل، وتأخذ سيارتها بحجة شراء بعض الطلبات من البقالة. لا تذهب عادةً للتسوق صباح الآحاد، إنّما لم يتفوه أحدهم بالاعتراض. وآل حريصٌ على تجاهلها.

تنوق إلى الخروج من المنزل وأجوائه الخائفة. انتبه ابنها إلى وجود خلافٍ خطيرٍ بينها وبين أبيهما، لمحا الكدمة على وجهها، بيد أنّهما تحرّجا من سؤالها، مما عكّر الجو الاحتفالي برجوع راين، والعثور على آفيري على قيد الحياة. سيتوجب عليها إخبارهما بما جمعها مع ويليام، قبل أن يشاهداه على نشرات الأخبار. علمت أن الشرطة ستعقد مؤتمرًا صحافيًا في ظهيرة اليوم. ستُفصّل كل التفاصيل، بما فيها دافع ماريون لارتكاب فعلتها. سيعرف الجميع كل شيء، وتجيش نفسها.

تفكر بويليام. أين تُراه الآن؟ في منزله؟ تمرُّ من أمام مسكن أسرة وولر، وترى حشدًا متزاحمًا من الصحافة يحيط بالمنزل، مترقبًا حدوث تطوّر جديد. لا يمكنها التأكّد إذا ما يلبث ويليام بالداخل أم لا. لكن سيارته ليست هنا، ربما لم يسترجعها من الشرطة بعد، أو أنّها بالمرأب.

تقود إلى فندق إكسيلير، حيث تعلم أنه قضى بضع ليالٍ. هل هو بالداخل الآن؟ لا مراسلين متركزون أمام الفندق. توقف سيارتها جانبًا. هل ستجروا على الدخول؟ قد يفرض عليها تعليق لافتة الزنا على صدرها أينما توجهت؛ هذه البلدة أهلها متحفظون، يترددون على الكنيسة بانتظام. معتقداتهم وأحكامهم على الغير لا تتبدل. تعرف ذلك حق المعرفة، فهي واحدة منهم.

يجب عليها اتخاذ قرارٍ حاسمٍ حيال ما تبتغي فعله، ومن تريد أن تكون. لا تحتمل استمرار علاقتها بآل، بعد الشرخ الذي أصاب زواجهما. كلما تخيلته قابلاً في سيارته خلف حاوية النفايات عند النزل، داهمها التقزز فيضاً، وكلما تذكرت كيف يعود من بعدها إلى المنزل متظاهراً أن لا شيء خاطئ، منطوياً على ذاته كما عودهم، ينتابها الخوف. لم تعد تعرفه مطلقاً، ولا تدري ما يتوارى خلف الوجه المألوف الذي يُبديه.

البغض بينهما متبادلٌ، سيطال ابنيهما السُّم الذي يرشح من علاقتهما. ستتحسن أوضاعهم جميعاً إذا انفصلا، أما لو استمر بهما الحال هكذا، سيصيران نسختين مشوهتين من نفسيهما. ستُجبر على المغادرة، لعله يقترح أن يرحل بدلاً منها. من الأفضل لها البقاء في المنزل مع ابنيها. ما العمل إذا لم يُرد الرحيل؟ ماذا لو عاتبها لأنها امرأةٌ موصومةٌ بالعار، وطردها؟ إذا فعل، لن ترحل دون ابنيها. تستوقفها هذه النقطة. ماذا لو طلب الوصاية على ابنيه؟ هل سيتمكن من الحصول عليها؟ ليست خاليةً من الرذائل. هل تُمنح النساء الوصاية على أبنائهن إن كنَّ فاضلاتٍ بالضرورة؟ لا تعلم. يضطرب قلبها دُعرًا. عرف ويليام من دون شكٍّ، أن لا دخل لراين فيما وقع لابنته، وهي واثقةٌ أن ويليام لم يرتكب أي ذنبٍ، عدا وقوعه في حبّها. ما يفصلهما عن بعضهما هو الذنب والخزي.. والرأي العام. كيف ستحتمل نورا العيش مع الإدانة الجماهيرية، لو اختارت ويليام، بعد افتضاح حقيقة ما فعلته ماريون؟ وهل ستترك ابنيها من أجله؟

تطيل الجلوس بالسيارة، ومن ثم تشغل المحرك وتقود عائدةً إلى المنزل. لا تستطيع فعلها. لن تسعى لرؤية ويليام مجددًا. ينبغي لها وضع ابنيها على قمة أولوياتها في الوقت الحالي.

الفصل الثالث والخمسون

تغمر إيرين الفرحةُ برجوع ابنتها، وتلقي نظرةً نحوها لا شعوريًا بين الحين والآخر، لتطمئن نفسها على وجودها بالحقيقة. لكن الأحوال بينهما اختلفت عما ألفته سابقًا، تبدلت كليًا.

على الرغم من احتجابها عن الصحافة حتى اللحظة، تظهر أفيري بالصفحات الأولى، ليس فقط محليًا، بل وعلى مستوى البلاد. خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، ومنذ أن عقدت الشرطة المؤتمر الصحفي، تتزايد أعداد الصحفيين المحتشدين خارج المنزل، تنهال عليهم الطلبات لإجراء حواراتٍ حصرية، حتى إنه عُرضت عليهم مبالغ ماليةٌ لحجز أدوارٍ، كما سيؤلف عملٌ ما من قبل كاتبٍ ظلَّ بمساعدة أفيري، مقابل قدرٍ ضخمٍ من المال. يترنح عقلها حيال كل ذلك الإقبال. لا يروق لها ما يجري، ولا يروق لويليام الذي تتواصل معه من آنٍ لآخر عبر الهاتف. يبعث الوضع على الغثيان.

تخشى إيرين على ابنتها من هذه الحركة الإعلامية المسلطة عليها. الوضع شديد السوء، وما يزيده بلاءً رغبةُ أفيري في إجراء المقابلات وترحيبها بالمشاركة في تأليف الكتاب، رغم اعتراضها وويليام بشدة. إنه انتهاكٌ صارخٌ لخصوصيتهم، وإحراجٌ كبيرٌ. ماذا لو أن أفيري هي التي تتشوق لذلك؟ ينقص عليها هذا الهاجسُ بهجةَ رجوعها. إذا سمحا لها بفعل ما تريد، سيظنهم الناس والذين يسعيان وراء الانتفاع من مأساة ابنتهما. لكن كلما استمرت في

الرفض ازدادت ابنتها في العناد، مما أيقظ النضال المعتاد معها إنما مضاعفًا في القوة وعسيرًا، لدرجة أنها تواصلت مع أحد المحامين الجنائيين بالشركة التي تعمل بها، طلبًا للنصيحة.

تسير جالي في إثر بلدسو، يوم الإثنين بعد انقضاء معظم النهار، متجهين إلى قسم الطب الشرعي. جاء من أجل نتائج تشريح جثة ماريون كوك. يشقان طريقهما نحو المشرحة. لا تنزعج جالي من رائحة الجثث، معدتها قوية الاحتمال، بيد أنها تتخيل بلدسو لم يخبر عددًا كبيرًا من القضايا الجنائية مثلها. في شيكاغو، تُعرض عليها الجثث باستمرار. ترغب في مراقبة ردّة فعل بلدسو من باب الفضول.

المشرحة مشابهة لما ترددت عليه طويلاً، أرضيتها مبلّطة، النّقلات والمناضد من الفولاذ، والمكان كله مطهرٌ على درجة فائقة، ومعقّم، أقرب إلى غرفة عمليات، وهي ما عليه بالفعل باستثناء أن المريض ميت. لم يحضرا لرؤية الجثة؛ دعتهما الطبية الشرعية لمناقشة النتائج.

بعد التحيات الافتتاحية، يسألها بلدسو: «فيمَ تريدان استشارتنا؟».

تراه جالي مرتاح البال إلى حدٍّ بعيدٍ، وليس سريع الغثيان كما ظنّت.

تقول الطبية الشرعية مشيرةً لهما ليقتربا: «ألقيا نظرة».

تتأمل جالي ماريون كوك الهامدة، شديدة الشحوب، باردةً وبشرتها شمعيةً. تُزاح الملاءة كاشفةً ذراعيها ورأسها. تتذكر وقت استجواب تلك المرأة في قسم الشرطة، واتضح في الواقع أن آفيري محبوسةٌ بقبو منزلها. أقنعتهما بإصرارها المستميت أن الفتاة أخذت بسيارة راين بلانشارد. والآن، ها هي ميتةٌ أمامهما.

تشرح الطبية وهي تميل رأس ماريون مشيرةً نحو الجرح: «هذا هو سبب مقتلها. اخترق الحرف الحاد لقائم الدّرج مؤخرة رأسها».

تتمهل لثانية، وتترقبها جالي وبلدسو في اهتمامٍ.

تضيف: «على الأرجح، حدث الاصطدام في أثناء السقوط على الدَّرَج، إنما ليس بالضرورة».

يسأل بلدسو: «ماذا تقصدين؟».

- أعني أنني لست واثقة من السبب. السقطة شائكة. من المحتمل أن رأسها ارتطم بقوة مميتة عند الحافة بالضبط. لو حدث ذلك وهي بمفردها، لأصدرتُ حكمي على سبب الوفاة أنها نجمت عن حادثة، أي موتاً عرضياً. إنما لم تكن بمفردها وقت الوفاة وملابسات الحادثة غير طبيعية. يموت الناس جرّاء السقوط عن الدَّرَج، لكنه أمرٌ نادرُ الحدوث. بين كل مئة حادثة سقوط، تدرجاً من أعلى الدَّرَج إلى أسفله مما يخلف إصاباتٍ بالغة، قلةٌ قليلةٌ تؤدي لموتٍ محتمٍّ، بما يُعادل واحد بالمئة تقريباً.

يَعُمُّ الصمت للحظة، ثم تُردف: «سأصدر حكمي على سبب الوفاة أنه مبهمٌ، لأنني بصراحةٍ لا يمكنني الجزم يقيناً».

يقول بلدسو: «أتفهم موقفك. أشكرك للتوضيح».

تتبعه جالي خارجين من المشرحة. يتمشيان حتى السيارة صامتتين. لا يتحادثان حتى يركبا السيارة ويغلقا الأبواب.

تسأل جالي: «ما رأيك فيما سمعت؟».

يتراخى في مقعده متنهذاً.

تُردف: «هذه الفتاة تحيرني، بشأنها ما يثير الريبة».

يوافقها بلدسو: «أعرف ما تلمّحين إليه، إنها شديدة الـ... الغرابة على نحو ما».

يقبع في سكونٍ متفكراً ملياً، ثم يقول: «لا يُستبعد نزول آفيري إليها بأسفل الدَّرَج، لتضرب رأس ماريون في حافة القائم بعد سقوطها بالقرب منه».

تُمسك جالي عن الرد.

يُردف طارحًا الفكرة جانبًا: «لكنّها في التاسعة من العمر، يحقّ الربّ!». .

بعد هنيهة، تهزّ جالي رأسها محدّقةً إلى خارج النافذة أمامها.

- يا لها من قضيةٍ عجيبةٍ. لا يوجد أي دليلٍ دامغٍ ملموسٍ ضد راين بلانشارد، لم يكن ليُدان قط. ما الذي حسبته ماريون؟

- امرأةٌ مجنونةٌ! ألم تطلّعي على توقيت الوفاة والأدلة التي عُثِرَ عليها في تقارير البحث الجنائي؟ اطلّعتُ عليها بنفسِي. يفعل الناس أمورًا عجيبةً، لا يستوعبها عقلٌ. لو تسنّى لها وقتٌ كافٍ لدمّرت حياة الفتى وخنقته بهالة الفزع والخوف التي أحاطت به، ولحطّمت ويليام وولر معه، وفصلت بينه ونورا بلانشارد للأبد.

- أغلب الظن أنّها رأت راين يقود سيارته في نهاية الشارع، قبيل ظهور آفيري على باب منزلها الخلفي، وإلا فكيف استغلّت ما رآته؟ ماذا أمكنها فعله لو لم يضطر راين للتغيب عن عمله؟ شهدت تحركه بسيارته في الشارع يوم الاختفاء، في التوقيت الذي تأكّدنا منه. بعدئذٍ جاءتها آفيري عند الباب الخلفي، من دون سترتها وشعرها مصفّف في ضفيرةٍ واحدةٍ، فوجدت الفرصة سانحةً.

يوافقها بلدسو: «هذا صحيح».

تدير جالي المحرك لينطلقا.

الفصل الرابع والخمسون

تصل إيرين مخفر الشرطة قبيل مساء الإثنين باضطرابٍ شديدٍ، استجابةً لطلب المحققة جالي حضورها. تدخل حجرة الاستجواب وتجد ويليام قد سبقها في الحضور. تُرى ماذا تريد الشرطة منهما الآن؟

لن تحتاج إلى الانتظار طويلاً حتى تعرف، يطلعهما بلدسو بحرصٍ زائدٍ على نتائج تشريح الجثة، موضحاً أن الطبيبة الشرعية ستضع سبب الوفاة تحت بند المبهم بدلاً من نتيجة حادثةٍ عرضيةٍ.

تعارض إيرين: «ما الذي تقوله؟ السبب دفاعٌ عن النفس!».

يشرح بلدسو: «الدفاع عن النفس هو المبرر القانوني، أما الوفاة فترجع إلى أسبابٍ فعليةٍ. إذ حدثت الوفاة في ظروفٍ غير اعتياديةٍ، لا يُتاح أمام الطبيب الشرعي إلا حكمٌ واحدٌ، أنها نجمت إما عن حادثةٍ، قتلٍ عن عمدٍ، انتحارٍ، وإما لأسبابٍ مبهمَةٍ».

تَحْمَلُ إيرين في وجه المحقق، متوجسةً مما يرمى إليه تحديداً.

يستطرد: «في الحالة المعنية، لا يمكن للطبيبة الشرعية الجزم يقيناً مما إذا نتج الجرح المميت عن السقطة، أم جرّاء فعلٍ عقبها مباشرةً».

تستوعب إيرين لتوها.

تقول صراحةً بنبرة ثابتة، رغم ارتجافها: «لا أعترف بصحة ذلك. هل تلمح إلى تعمد آفيري إيذاء ماريون بعدما دفعتها إلى أسفل الدَّرَج لتهرب؟». تخطف نظرةً إلى ويليام، الساكن على مقعده، رغم أنه مبهُوتٌ ومهمومٌ كما يظهر عليه. لم ينتفض مدافعاً عن ابنتهما كيفما يجدر بالوالد، مما يثير غيظها.

يقول بلدسو: «لا تنزعجي، من فضلك. لن تُقدِّم أي اتهاماتٍ ضد ابنتكِ، لا يعتقد أحدٌ أنها فعلت أي شيءٍ غير دفعها من الدَّرَج والهروب». يعمُّ الصمت مشبَّعاً بالتوتر؛ لا يرغب أيُّ منهم في الكلام حسبما يبدو. بعد لأيٍ تسأل جالي: «كيف حالها؟».

المريب أن آفيري بخيرٍ منذ عودتها، مثل حالتها قبل الاختطاف تماماً: متقلبة المزاج، متطلبةٌ، غير متعاونةٍ، ومتسلطةٌ. لا فرق في تصرفاتها، باستثناء أنها لربما أكثر سعادةً ومرحاً. لم تنطو على ذاتها، أو تهاجمها الكوابيس، ولا بللت سريرها. ستسعى لتحديد موعدٍ مع طبيبٍ من القائمة التي بحوزتها، في أقرب وقتٍ، إنَّما ما يقلقها رفض آفيري المحتمل لزيارة أي طبيبٍ.

تردُّ إيرين: «في الواقع، لا أدري. تبدو بخيرٍ ظاهرياً، لكن ربما لم تزايلها الصدمة بعد».

تبخر الودُّ والاحترام المتبادل بينها وجالي الذي نشأ مع بداية التحريات. الخاتمة الباهرة لتلك الفاجعة لم ترجع إلى عمل الشرطة الجاد، تترك كلتاها ذلك. والآن، جاءت مسألة تقرير الوفاة. لا يمكنها منع نفسها من التفكير في أنه لو أتم المحققان عملهما على الوجه الأكمل، لعثرت الشرطة على آفيري قبل اضطرارها إلى دفع ماريون من أعلى الدرج. بيدَ أنها تحتكم إلى الأدب واللباقة ولن تبوح بما يجول بخاطرهما بصوتٍ عالٍ. يحيرها إذا ما تقدر جالي على قراءة أفكارها، إذ توحى تعبيراتها المتحسرة أنه بإمكانها.

تسألها جالي: «وماذا عن مايكل؟ كيف حاله؟».

تقرُّ إيرين: «صعبٌ عليه احتمال الوضع. صعبٌ علينا جميعاً».

تقولها وتنهض من فورها.

تحذرها جالي وهما مغادران.

- أبعديها عن طريق الصحفيين، قد يتمادون إلى درجة همجية.

يتبعها ويليام إلى حيث وقفت سيارتها، ويطلب منها على استحياء إيصاله إلى الفندق. يستقلان السيارة، وحُشِرَتْ بين مقعديهما الصراحة التي تكلم بها في آخر لقاء بينهما، مثل قنبلة على شفا الانفجار. تستشعر أنه يودُّ قول شيء ويحجم عنه. تدير المحرك متوجهة صوب الفندق، وما لبثا أن تجادلا. يرفض مسألة تحدُّث آفيري إلى الصحافة، مشدداً على قوله، لا سيما بالوقت الحالي! ويطلب منها ألا تسمح لها.

يثير حنقها، فتقول: «وكيف يفترض بي منعها؟ هل أحبسها في غرفة نومها؟ يخيم هؤلاء الصحفيون أمام المنزل».

يخبرها صمته أن لا فكرة لديه عن كيفية منعها مثلها، لم يتمكن من السيطرة على آفيري فيما مضى مطلقاً، هذه هي المشكلة. تتشبث بما تريد، ويعجزان عن التصدي لرغباتها. إذا ما أرادت التحدُّث إلى الصحافة، لن تتكبد سوى السير باتجاه الباب الأمامي وفتح فمها. لا تملك إيرين تقييدها عن الحركة.

تُوصِل ويليام إلى الفندق وتستأنف القيادة بطريق المنزل. يدور ذهنها بلا هواده. يحسب المحققان أن ابنتها تعمَّدت إيذاء ماريون بعد دفعها من الدَّرج، لو كان هذا ما حدث حقاً، قد تتفهم إيرين دافعها، وتغفر لها ما فعلت. احتجزتها تلك المرأة المخبولة مثل السجينة لعدة أيام، وخططت لقتلها. لا ريب خافت آفيري على حياتها، وصُدِّمَتْ، ليست مسؤولة عن تصرفاتها. إنَّها مجرد طفلة! لم يتجاهلان هذه الحقيقة؟ يقلقها كثيراً ما تظنه الشرطة بابتنتها، وهل يختلف عما يراه ويليام؟

وإذ تجد نفسها أمام باب جوين وينتر، من دون قصدٍ. تهمس في سريرتها أن جوين الوحيدة التي ستفهم ما يخامرها. تدرك جوين صعوبة الوضع

الذي تعيشه، على الرغم من احتمالية عدم صورتها لحجم الألم الذي تعانيه،
لو أنَّها بمكانها في هذه اللحظة.

تحببها جوين عند الباب وتدخلان إلى المطبخ، إذ تباشر جوين في تسخين
إبريق القهوة. لا تعلم إيرين ما جاء بها إلى هنا جدياً، عدا حاجتها لأحد
يسمعها، يستوعب ولو هامشياً المعضلة التي تعيشها. تخبر جوين مشقة
تربية طفلٍ صعب المراس، وكيفية التعامل مع مَنْ ينتقدون ويعاتبون.
تسألها جوين: «كيف حالك؟».

تُلاحظ ولا شك أنَّها ليست بخيرٍ على الإطلاق.

تحرّضها طيبتها على البكاء في نشيجٍ حادٍّ بغتةً، تغطي إيرين وجهها
بكفّيهما وهي تقعد على كرسيٍّ عند طاولة المطبخ، في محاولةٍ للسيطرة على
انفعالاتها لكنّ تفشل. تنهمر كل الدموع التي كبتت نزولها في المنزل، أمام
ابنيتها، وتصبها أمام هذه المرأة، التي تُعدُّ غريبةً.

تقول جوين، حالما رفعت إيرين بصرها إليها بعد حينٍ: «أراحك البكاء
كما أرى».

تناولها عبوة المناديل، وتقول إيرين محرّجةً: «آسفةٌ للغاية».

- لا داعيَ للأسف. لقد مررتِ بأحداثٍ عصيبةٍ، ولم تزايلكِ الصعاب بعد.
تومئ إيرين برأسها متشنجةً.

- لم يردّ بذهني أن تزداد الأمور صعوبةً.. ركزت اهتمامي على عودة
آفيري، ولم أتأهب لمواجهة أي تبعاتٍ.

- لا يسعكِ التأهب لتبعاتٍ بهذه الشدّة.

تضيف جوين شاردة الفكر: «حينما يمتزج الخير بالشر، تتحير الأذهان».
تومئ إيرين.

- هكذا الوضع بالضبط. طرأت من فرط الابتهاج برجع آفيري، إنّما...
الأمر شاقٌّ، كله شاقٌّ. كأنني محاصرةٌ في حوض سمكٍ.

تُنتَقَد منذ سنواتٍ عديدةٍ، من المعلمين وأولياء أمور الأطفال الآخرين، ومن الغرباء في المطاعم، على تصرفات آفيري. أقنعت نفسها مرارًا أن تصرفات ابنتها خارجةٌ عن إرادتها، أما مايكل فهو بحالٍ حسنٍ. وبذلت أقصى جهدها غير أن آفيري مَنيعةٌ. آفيري هي آفيري لا تتغير.

تقول جوين: «تحبين ابنتكِ، إنَّما يصعب عليكِ للغاية احتمالها في كثيرٍ من الأحيان. هل تُضَيِّقُ الصحافة عليكِ الخناق؟».

تومئ إيرين مجددًا. على طرف لسانها أن تبوح لها بما قالته الشرطة وبما يعتقدده ويليام، لكن لحظة الكلام انقضت.

تُرِدِّف جوين في محاولةٍ لمواساتها: «سيتركُ جميع الصحفيين لشأنكِ في النهاية. لن تدوم وقففتهم على بابكِ».

الفصل الخامس والخمسون

يتغيب مايكل عن المدرسة اليوم. لم يستعد بعد لمواجهة الأجواء هناك: النظرات الفضولية، الهمسات، التساؤلات، وسيسوء الوضع أكثر، لأن اليوم ستُجري أخته حوارًا فرديًا مع صحافيّة مشهورة، وستروي قصتها. سيُذاع على التلفاز، وسيُسجّل بعد الظهيرة في المنزل، في غرفة المعيشة. وقع جدالٌ حادٌ بين آفيري وأمه حوله، واستشارت أمه محامين ذوي خبرة، إنّما أخته عقدت العزم على إجراء الحوار. لا تتراجع عن فعل ما تريد أبدًا. تفعله رغمًا عن أنف أي أحدٍ.

سئم كل ما يرى. يكره وقفة الصحفيين عند عتبة الباب، محاصرين المنزل، مختلسين النظر عبر النوافذ لالتقاط الصور. جاءت الشرطة أكثر من مرة، لإزاحتهم بعيدًا حتى الرصيف، لكن سرعان ما يتسللون إلى مواقعهم بعد ذهابها. تزداد الأمور تعقيدًا منذ عودة آفيري، يراوده إحساسٌ بأنه محبوسٌ في منزله، لا يجرؤ على الخطو خطوةً للخارج. دومًا ما تغذّت أخته على لفت أنظار الجميع إليها، بيد أن ما تبتغي فعله سينقل الاهتمام بها إلى مستوى بالغ القدر. تعرف جيدًا أنه يبغض ما تفعله، ومع ذلك تذكّره باستمرار بما يثير اشمئزازه.

قالت له مساء البارحة على العشاء: «مسكين، هل يضايقك هذا؟». قصدت الحشد المكتظ بالخارج. فإذا به يحدّق إليها منعقد اللسان.

صاحت أمه غاضبة: «قطعاً، يُضايقه ويضايقني. إنه وضعٌ يثير ضيق أي أحدٍ ما عداك».

بدت أمه على شفا الانهيار، مستنفدةً كل قواها. خسرت الجدل مع آفيري بشأن الحوار التلفزيوني، ووافقت بعد عناءٍ على السماح لها بإجراء حوارٍ واحدٍ فقط، وفي إطارٍ محكوم.

تنتاب مايكل مشاعرٌ مضطربةٌ. فرحٌ كثيرًا برجوع آفيري، غمره الارتياح أنَّها لم تُصَب بسوء. ساوره قلقٌ شديدٌ عليها وخوفٌ شديدٌ على أمه؛ ارتعب أن أمه قد تنهار قواها ولا يُتاح سبيلٌ لمداواتها، ومع غياب أبيه هي الوحيدة الباقية له. إنَّما الحال تغيَّرت وعادت آفيري، كما لو لم تختفِ قط، عادت أكثر شراسةً. تتصرف بغرورٍ كالمشاهير، لكنَّها صارت ذائعةً الصيت بالفعل. كأنَّه يعيش أحداثٍ مسلسلٍ تلفزيونيٍّ واقعيٍّ بشعٍ، لا يشعر أن أيًّا مما يجري حوله حقيقيٌّ.

يرتدي ملابسه ويقصد غرفة نومها. ينقر على بابها برفق.
تسأل: «ماذا تريد؟».

يفتح الباب. يشقُّ عليه الكلام عندما ينفرد بأخته الصغيرة. لا يدري كيف يقول لها ما أتى لقوله. يدرك التناقض بين نظرة أمه ونظرة أبيه لها، تحسن أمه الظنَّ بآفيري أكثر مما ينبغي. يرجع ذلك إلى تعامل آفيري مع كلٍّ منهما بأسلوبٍ مغايرٍ عن الآخر. تتصرف بشخصيةٍ مع أمه، وبشخصيةٍ مختلفةٍ تمام الاختلاف مع أبيه. لطالما استطاع أبوه سبر غورها، ويعرف مايكل حقيقتها أيضاً، قليلاً ما تتظاهر أمامهما بعكس طبيعتها. لكنَّها أخته الصغرى على أي حال.

- أودُّ سؤالك عن أمرٍ ما.

- ما هو؟

تُعيِّره كامل انتباهها. يستجمع شجاعته ليلقيَ عليها سؤاله الذي يحتاج إلى إجابته بشدَّة.

- هل مسك ديريك بأي سوء، في بيت الشجرة؟

يشعر بوجهه يتضرج خجلًا، تنظر إليه في استغرابٍ.

- ديريك؟ لم يفعل. لماذا تسأل؟

- قالت جينا للشرطة بأنكِ أخبرتها عن رفيقكِ لكِ، واعتقدت الشرطة أنه ديريك.

تضحك في استهزاءٍ.

- اختلقتُ تلك القصة.

يُحْمَلَق في وجهها مبهوتًا للحظاتٍ.

- إذًا، فهي محض كذبة.

تهزُّ كتفَيها كما لو تقول، وماذا في ذلك؟ ثم يستدير مغادرًا في حنقٍ.

الفصل السادس والخمسون

تجهّزت آفيري، ارتدت ثوبها الأزرق الفاتح، وصُفّف شعرها في ضفيرة مهندمة خلف رأسها. واطبّت على التدرب خُفيةً على تعبيرات وجهها في مرآة الحمام بطابق غرف النوم، تتلو قصتها في سريرتها أمام صورتها المنعكسة، وتحرك شفتيها مع الكلمات.

حضر الفريق الفني منذ مدةٍ إلى المنزل، يغمغمون بالأرجاء كالنحل، يحركون أشياء ويضعون أشياء، ويحدثون جلبةً كبيرةً. أعادوا ترتيب الأثاث بغرفة المعيشة كأنّ المنزل تحت سيطرتهم. أمها مغتمةٌ بوضوحٍ حيال كل ما يجري أمامها، أما مايكل فمختبئٌ بغرفته. تعرف آفيري أنه يتمنى رحيل كل هؤلاء من هنا. لكنّ ترجو أن يخرج من غرفته ويشاهدها والحوار يُجرى معها. سيصل أبوها عمّا قريبٍ، قبل بدء التسجيل، تتوق إلى وجوده أيضًا. تريد أن تُرى وتُسمَع من الجميع. يُوضَع مصباحٌ طويلٌ، ضوءه دافئٌ ومبهّرٌ، على أرضية غرفة المعيشة حيث تغيّر مكان المقعدين من أجل آفيري والسيدة المحاورة، الصّحافيّة التلفزيونية المرموقة «كايسي ونج».

يقول رجلٌ: «خمس دقائق على الهواء».

تتأمل آفيري الصّحافيّة الجالسة على كرسي المطبخ، تُضبط زينتها. وُضعت مساحيق تجميلٍ على وجهها مثلها، إذ تشعر أنّها نجمةٌ سينمائيّةٌ، تتساءل إذا ما ستصير ممثلةً يومًا ما. تثيرها الفكرة. هل ستصبح بغاية

الجمال عندما تكبر؟ لا تعرف بعد، ربما عليها أن تنحف قليلاً. رأت صوراً تبدو فيها أمها رائعة الجمال، لكن لم تُعد جميلةً.

توجّه نحو غرفة المعيشة لتتخذ مجلسها على المقعد الذي خُصّص لها. ما إن جلست في مواجهة الأضواء وأعين الجميع ترقبها، يعترىها القلق، وقلبها يخفق بسرعة. تخبر نفسها أنه أمرٌ مشوّقٌ، وأخيراً جاءت لحظتها المرتقبة لتسلّط الأضواء عليها! تبادلت مع كايسي حديثاً قصيراً مسبقاً، في أثناء الإعداد لبثّ الحوار، حتى تتعرّفاً إلى بعضهما، وتنزع كايسي عنها الرهبة. يتبدّى في عيني كايسي البُنيّتين الواسعتين لطفٌ وتعاطفٌ. اختارت أمها كايسي ونج دون غيرها لأنّها تحاور ضيوفها بطريقةٍ لطيفةٍ ومتعاطفةٍ دائماً، مثلما تفعل أوبرا. قالت أمها إن أسلوبها ليس هجوماً مندفعاً مثل بعض المحاورين الآخرين. حالما تكلمت إلى أفيري تلاشى كل الصخب الدائر خلفهما، وبدأ لها أنهما وحدهما في غرفةٍ مغلقةٍ، كما قالت لها كايسي بالضبط: «كأننا صديقتان تتحدثان على انفراد».

تدير أفيري ناظرَها نحو الجانب الآخر من الغرفة، فتري أباهما قد وصل ويقف بالقرب من أمها، مقطب الوجه. تمتعض منه بسبب تعبيراته. ألا يمكنه أن يسعد من أجلها؟ كل ما يقلقه هو نفسه، وكيف سيجعله كلامها يبدو سيئاً. لكنّ الجميع عرف لماذا فعلت ماريون ما فعلته. أعلن المحققان كل الحقائق، كيفما تراءت لهما. حان دورها لتبوح بما لديها من جهتها، لتتلوّ قصتها الخاصة حيال ما خبرته بنفسها. تنظر أمها نحوها كما لو ستنتقياً، كأنّها من سيجرى معها الحوار. نزل مايكل من غرفته لتوه، سيتحاشى النظر إليها حتماً. يتبادر إلى ذهنها في تدمرٍ أنه لم يشجعها أيّ منهم وهي على وشك الظهور على التلفاز بكل أنحاء البلاد. في بعض الأحيان، تكره عائلتها. تقترب كايسي وتتخذ مقعدها بجوار أفيري، مبتسمةً لها ابتسامةً دافئةً.

تهمس لها: «ستبرعين في الحوار على نحوٍ مذهل».

يتأكد طاقم العمل من الميكروفونات ومن قوة الإضاءة. يجب أن يكون كل شيء مثاليّاً.

يبدأ الرجل الواقف عند طرف الغرفة في العدّ التنازلي.

- ثلاثة، اثنان، واحد...

حالما رأيته أفيري يعدّ تنازلياً، شعرت بدفقة أدرينالين بعروقها. تبتلع ريقها، لا وقت للتفكير. تشرع كايسي في تقديم الحوار، وإذ جفّ حلقها.

تستهل القول بأسلوبٍ ودودٍ: «إنكِ فتاةٌ شجاعةٌ، يا أفيري، لموافقتكِ على إخبارنا بقصتكِ التي أذهلت البلاد كلها. ويشرفني أنني أول صحافيةٍ ستقصّين عليها قصتكِ، جزيل الشكر لكِ».

تومئ أفيري برأسها، مبتسمةً ابتسامةً تخالطها الريبةُ.

تقول كايسي بلطفٍ: «أتفهم مدى صعوبة أن تحكي ما حدث، لذا خذي وقتكِ واهدئي».

تومئ أفيري ثانيةً.

تتابع كايسي: «نعرف كلنا، يا أفيري، الخطوط العريضة لما حدث لكِ: اختفيت يوم الثلاثاء في الثاني عشر من أكتوبر، منذ ما يزيد عن أسبوعٍ. في بادئ الأمر، اعتقد أنكِ اختفيت في طريق عودتكِ من المدرسة. صرّح والداكِ عن غيابكِ وانطلقت حملةٌ ضخمةٌ للبحث عنكِ. هل يمكنكِ أن تحكي لنا ما جرى في ذلك اليوم؟».

تستعيد أفيري قدرتها على النطق، وتتكلم ببطءٍ مستمدةً الثقة من كايسي التي تومئ لها مشجعةً. تروي كيف وجدها أبوها في المطبخ.

تسألها كايسي برفقٍ: «ماذا حدث عندما حضر والدكِ إلى المنزل؟».

تقول أفيري: «تجادلنا ثم غادر».

ترمق أباهما بطرف عينيها سريعاً، وتلمح تعبيرات وجهه تنبسط. بات مديناً لها بجميل صنيعها ذاك. لا يعرف أحدٌ خارج دائرة أسرتها، ما عدا الشرطة، أنه ضربها. تسرد كيف انتهى بها المطاف عند منزل الجارة، ماريون كوك، وكيف اعتبرت صدايقةً لها، حتى استيقظت في قبو منزلها، محبوسةً وعاجزةً عن الهروب.

تنظر إليها كايسي في تعاطفٍ وتهزُّ رأسها أسفًا. عيناها كينبوع حنان.
- أعجز عن تصور ما جرى لك. بمَ شعرتِ وقت اكتشافكِ أمر احتجازكِ
في القبو؟
- كنتُ مذعورةً.

تومئ كايسي ثانيةً، وتقول بصوتٍ مطمئنٍ، تعبيرها المميز الذي يوحي
بالاهتمام: «قطعًا شعرتِ بالذعر! إنه وضعٌ مخيفٌ جدًّا! هل قيدتِ تلك المرأة؟». تهزُّ رأسها نافيةً.

- لا، حُبست بالداخل فقط، ولم أستطع الخروج.

- هل تسببت بأبي أذى لك، جسديًا؟

- لا، ليس فعليًا.

تسأل بلطفٍ: «هل تعرفين لمَ فعلتُ ذلك؟».

- هي التي أخبرتني.

- بمَ أخبرتكِ؟

يغمر آفيري الارتياحُ لتوها.

- عملت ماريون ممرضةً في المشفى نفسه الذي عمل فيه أبي. إنه
طبيبٌ. أخبرتني أنها أحبَّت أبي، لكنَّها اكتشفت علاقته الغرامية مع
نورا بلانشارد التي تعمل متطوعةً بالمشفى، وهي نفسها والدة راين.
رغبت ماريون في أذيتهما، لذلك حبستني في القبو وأبلغت الشرطة
أنَّها رأتني أركب سيارة راين بلانشارد.

تنظر نحوها كايسي وتنفض رأسها.

- يا للبشاعة! إنكِ مجرد ضحية بريئة، طفلة بريئة.

تومئ آفيري.

- أرادت أن تقتلني.

- فيمَ فكَّرتِ خلال أربعة أيام احتجازكِ في القبو، وحدكِ، مرتعبةً من
خسارة حياتكِ؟

- كل ما فكَّرتُ فيه هو كيف سأهرب. بيدَ أنَّني لم أستطع. أبقت الباب المؤديَّ إلى الطابق الأعلى مقفلًا دائمًا، والنوافذ مسدودةً. لم أجد أي منفذٍ للهروب.

- ومتى أدركتِ.. -سامحيني يا آفيري، لصعوبة السؤال- متى أدركتِ أنَّها اعتزمت قتلك؟

تصمت آفيري هنيئةً. أدركته لمَّا علمت بإغلاق ماريون لباب القبو بالقفل، وغفلتها مبلَّغةً عن راين، كما لم تعترف للشرطة بكذبتها مثلما وعدتها. إنَّما لا يمكنها النطق بذلك. تتفكر مليًا، لا تدري ماذا ينبغي لها قوله في هذه اللحظة: «عرفتُ من البداية أن خطتها ستفشَل إنَّ لم أُمِت. رفضت السماح لي بالخروج لأنَّني فهمتُ ما فعلته ولماذا فعلته. خافتُ من أنَّني قد أبوح بكل شيء».

انخفض صوتها تدريجيًّا إلى حد الهمس، وتلبَّست التعبير المتألم الذي تدربَّت عليه أمام المرأة.

تهزُّ كايسي رأسها كأنَّما ارتعبت مما سمعته.

- جُلُّ ما بوسعي قوله إنكِ فتاةٌ جسورةٌ للغاية ومناضلةٌ، وإنه لمن دواعي سروري جلوسك برفقتي اليوم.

ترى عينيها تغرورقان للحظة، وتكاد دمعةٌ أو اثنتان تسيلان منهما. تتمالك نفسها وتساءل: «هل أحضرتُ لك طعامًا وماءً؟».

- كان بالقبو حمامٌ، به ماءٌ جارٍ، وأحضرت لي بعض الطعام.

- مكثت في القبو محبوسةً لفترةٍ دون علمك بما يجري خارج تلك الجدران الأربعة، لم تدري بحملة البحث الموسَّعة عنك. كيف تصوَّرت ما جرى في غيابك؟

- علمتُ طبعًا، شاهدنا الأخبار معًا كل ليلةٍ، هكذا تابعتُ كل ما يجري بالخارج.

- شاهدتما الأخبار معًا؟! ألم تمكثي في القبو طوال تلك الفترة؟!

تنظر إليها كايسي مصدومةً على نحوٍ ظاهرٍ.

أخطأت آفيري ويجب عليها إصلاح خطئها.

توضح: «بالقبو تلفاز، اعتادت ماريون النزول وإجباري على مشاهدة الأخبار. أرادتني أن أعرف كل ما يجري، أرادتني أن أرى كيف هي مكررة. أعتقد أنها أرادت التكلم مع أحدٍ عمّا تفعله، ولم تجد غيري لتتكلم معها».

تقول كايسي على مهلٍ: «فهمت، وضعٌ غريبٌ للغاية، إذ كنتما صديقتين، تشاهدان التلفاز برفقة بعضكما، على الرغم من معرفتكِ أنها تنوي قتلكِ. لا شك أنه حالٌ يبعث على الحيرة».

- يبعث على الحيرة والخوف.

- هل يمكن أن تقصّي علينا ما حدث يوم هروبكِ؟

تظهر آفيري حلقها.

- رأيتُ أنها أضخم مني وأقوى، فأدركتُ أن الطريقة الوحيدة للهروب هي مفاجأتها. لهذا اختبأتُ خلف الباب بأعلى الدّرج، وانتظرتها حتى تفتحه. ولمّا فعلتُ، دفعتها إلى أسفل الدرج بأقصى قوةٍ عندي، وهربت. تقول كايسي: «تفكيرٌ رائعٌ».

تسمح آفيري لنفسها بالابتسام قليلاً.

تُردف كايسي: «السقوط من الدرج قتل ماريون كوك، مع الأسف. إنّما نجحت في الهرب منها لحسن الحظ، وها أنتِ ذي اليوم تقصّين علينا ما حدث».

تري آفيري جبهة كايسي تتجدد، كأنّها متحيّرةٌ من أمرٍ ما.

- يشغلني أمرٌ لم أستوعبه. ما دمتِ عرفتِ منذ البداية أنها اعتزمت قتلكِ، لماذا انتظرتِ أربعة أيامٍ حتى تدفعيها من أعلى الدّرج؟

- معذرةٌ؟!

- أقصد، ما دامتُ أحضرت لكِ الطعام كل يومٍ، مما يفرض احتمال انشغال يديها، يراودني تساؤلٌ، لماذا لم تتمكني من دفعها خلال الأيام السابقة؟

- لم.. لم أفكر في ذلك.

لم تزل نظرات كايسي عطوفةً، إنّما أكثر فضوليةً.

تقول بنبرة رقيقة: «أحقاً؟».

تنظر كايسي في عينيها، وإذ ينتابها الذعر. لا يمكنها التفكير، يزوغ بصرها باحثةً عن والديها عند طرف غرفة المعيشة. لكنّ تماسك من فورها وتلتفت نحو كايسي قائلةً: «أعطتني مخدّراً منوّمًا. غبتُ عن الوعي معظم الوقت».

تومئ كايسي.

- فهمت. دفعتها إلى أسفل الدّرج وهربت من المنزل، للنجاة بحياتكِ. لا جرم شعرت بالفزع الشديد، والغضب.

- غضبت بشدةٍ منها، لقد غدرت...

تحجم عن الكلام على الفور. يمكنها سماع ضربات قلبها تتخبط بعنفٍ وسط حالة الصمت المباغثة.

لم تغفل كايسي زلة لسانها.

- غدرت بكِ ماريون، أهذا ما تقولينه، يا آفيري؟

تحدّق إليها آفيري مبهوتةً، خائفةً. لم تختفِ النظرة الودودة في عينيها، وتستمر في تشجيعها على الكلام، غير أن فضولها يبلغ حدًّا كبيرًا.

- كيف غدرت بكِ ماريون، يا آفيري؟ هل وعدتكِ ماريون بفعل أمرٍ ما من أجلكِ؟

أخفقت آفيري. يتملّكها الذعر، تفتّش ثانيةً عن أمها، تتعلّق عيناها بوجه أمها المرتعب. تحدّقان إلى بعضهما للحظةٍ مريّة. الآن ستعرف أمها، سترى وجه آفيري الحقيقي. تتمنى لو تتدخل أمها وتوقف التسجيل، لكنّ تبدو متجمدةً مكانها. تواصل كايسي بنبرتها اللطيفة، تلتفت آفيري إزاءها مرتعبةً، مشلولة التفكير، لا تدري كيف تتصرف.

- قصتكِ مليئةٌ بالتفاصيل الغامضة، يا آفيري. ما رأيك أن تقصّي علينا كل ما حدث فعلاً، من البداية؟

عرفان وتقدير

كم تبلغ الروعة أشدها حين إنجاز كتاب. يسرني أن أعرب عن عرفاني لكل أولئك -وهم جمعٌ غفيرٌ- الذين يثقون بالفكرة، الذين يتعاونون على تهيئة العمل حتى يصل إلى صورته النهائية، يمنحونه أغلفةً مذهلةً، ويسوّقونه لينتشر خبره ويُعرَض بفخرٍ على أرفف الكتب حول العالم. يتطلّب نجاح عملٍ كهذا حشدًا من الموهوبين والمخلصين، في مناطق متعددةٍ جغرافيًا. وكما ذكرتُ آنفًا، إنني لموفورة الحظ للعمل مع أفضل الناشرين. وها قد وصلنا إلى الرواية السابعة معًا، ومن جديدٍ أتوجه بخالص الشكر لكل أولئك الذين وثقوا بي وجعلوا مؤلفاتي على أكمل صورةٍ ممكنةٍ، كل مرةٍ.

أخصُّ بالشكر: براين تارت، بامبلا دورمان، جيرمي أورتن، بن بتروني، وباقي الفريق لدى فايكينج بينجوين بالولايات المتحدة؛ لاري فنلاي، بيل سكوت كير، سارا آدمز، توم هيل، وباقي الفريق لدى ترانسورلد بالمملكة البريطانية؛ كريستين كوكرين، إيمي بلاك، بهافنا تشوهان، إيما إنجرام، والفريق في دابلداي بكندا. لكم خالص التقدير، فردًا فردًا.

التحرير مجهودٌ مضمّن، لذا أدين بوافر الشكر لسارا آدمز وجيرمي أورتن من أجل إلهامهما وخبرتهما في تنقيح روايتي التي بين أيديكم، وأحيي سارا، بالأخص، لاقتراحها هذا العنوان المشوّق!

أجدد شكري إلى جين كافوليننا، محررتي المفضلة. من دواعي سروري أن حظيت بالعمل معكِ على مراجعة مؤلفاتي.

وشكري موصولاً لوكيلة أعمالي الوفيّة، هيلين هيلير. إنكِ تثنين على نجاحاتي وتشدين من أزرّي حين حاجتي إلى دفعة. كذا أتوجه بالشكر إلى كاميللا وجيما وللجميع بوكالة مارش للإنابة عني في جميع أنحاء العالم والترويج لأعمالي في بقاعٍ عدةٍ بالخارج.

أؤكد دومًا أن أي خطأ في مخطوطة العمل يقع في نطاق مسؤوليتي.

لكم شكرٌ يفيض للأبد، قرائي. قدركم عندي يفوق الكلمات، أنتم ببالي في كل مرة أقعد لأكتب؛ أتمنى أن يغمركم شعورٌ ممتعٌ والرواية تأسرکم بين طيّاتها!

بالنهاية، أشكر أفراد عائلتي، وحتى القطة «بوبي» التي أظنها انعزلت ولم تعد تأنس بصحبتّي في المكتب. تستحق جوليا بالأخص الإشادة بأفكارها اللامعة، وكذا مانويل، أشكرُكِ على دعمك كله، الفني وغيره. إنني ضائعةٌ دونكم إلى جواريّ.

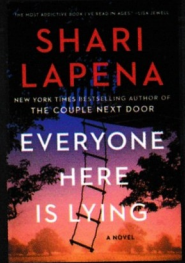
شاري لابينا

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكل هنا يكذب

هنا ستانهوب، الحي السكني الآمن، المكان الأمثل للعائلات. ويليام وولر، ربُّ أسرة وطبيبٌ مرموق، تنهي عشيقته نورا جارتها المتزوجة- علاقتهما السرية دون مقدمات، بعد ظهيرة يوم مشؤوم. لدى عودته لمنزله في حلق شديد وتوتر، طالباً بعض السكينة قبل الذهاب لمركز عياداته الطبي، يجد ابنته مضطربة السلوك، ذات السنوات التسع، وقد عادت من المدرسة وحدها مبكراً، وهو ما لم يتوقعه. يحاول الأب أن يعرف منها السبب، يحاول تمالك أعصابه مرة ثم مرة، حتى يفقدها. يخرج.. وبعد عدة ساعات، تبلغ والدة الطفلة الشرطة باختفائها. لم يعد ساكنو ستانهوب ينعمون بالسلام، ولم يكن ويليام الوحيد بينهم الذي يخفي سرّاً. ينهال مطرٌ من الحقائق، ولا يُعلم أيُّها صدقٌ وأيُّها كذبٌ. أصاب اختفاء الطفلة الجميع باللوعة. كلٌّ متورط، كلٌّ يخفي أمراً، وشخص واحد صامتٌ يعرف كلَّ ما يجري. أين هي ابنة وولر؟ مَنْ اختطفها؟



غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb